http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } ؛ نزلَتْ هذه الآيةُ في عبدِالله بن جَحْشٍ وأُختهِ زينبُ ، وكانت أُمُّهُما أُمَيْمَةُ بنتُ عبدِ المطَّلب عمَّةُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، " خَطَبَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم زَيْنَبَ بنْتَ جَحْشٍ لِزَيْدِ ابْنِ حَارِثَةَ مَوْلاَهُ ، فَكَرِهَ أخُوهَا عَبْدُاللهِ أنْ يُزَوِّجَهَا مِنْ زَيْدٍ ، وَكَانَ زَيْدٌ عَرَبِيّاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْلاَهُ فِي الإِسْلاَمِ ، كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أصَابَهُ مِنْ سَبْيِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعْتَقَهُ وَتَبَنَّاهُ.

فَقَالَتْ زَيْنَبُ : لاَ أَرْضَاهُ لِنَفْسِي ، ثُمَّ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ! أنَا أتَمُّ نِسَاءِ قُرَيْشٍ مِنَ ابْنَةِ عَمِّكَ ، فَلَمْ أكُنْ لأَفْعَلَ وَلاَ أرْضَاهُ يَا رَسُولَ اللهِ ، وَقَالَ أخُوهَا عَبْدُاللهِ كَذلِكَ أيْضاً ، وَكَانَتْ زَيْنَبُ بَيْضَاءَ جَمِيْلَةً ، وَكَانَ فِيْهَا حِدَّةٌ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " لَقَدْ رَضِيْتُهُ لَكِ " فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ".

{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ } أي مَا ينبغِي لِمؤمنٍ { وَلاَ مُؤْمِنَةٍ } يعني عبدَاللهِ بن جَحش وأُختَهُ زينبُ إذا اختارَ اللهُ تعالى ورسولهُ أمْراً { أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ } بخلافِ ما اختارَ اللهُ ورسولهُ.

قرأ أهلُ الكوفةِ (أنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) بالياءِ للحائلِ بين التأنيثِ والفعل ، وقرأ الباقونَ بالتاء. وقَوْلُهُ تَعَالَى { الْخِيَرَةُ } قراءَةُ العامَّة بفتحِ الياءِ ؛ أي الاختيارُ ، وقرأ ابنُ السَّمَيْقِعِ (الْخِيْرَةُ) بسُكون الياءِ, وهُما لُغتانِ. وإنَّما جُمِعَ الضميرُ في قولهِ { لَهُمُ الْخِيَرَةُ } لأن المرادَ بقولهِ { لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ } كلَّ مؤمنٍ ومؤمنة في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } ؛ أي فيما أمَرَتهُ ، { فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً } ؛ أي فقد أخطأَ خطأً ، وذهبَ عن الحقِّ والصواب ذهاباً بَيِّناً.

فلما نزلت الآية قَالَتْ : قَدْ رَضِيْتُ يَا رَسُولَ اللهِ. وَكَذلِكَ رَضِيَ أخُوهَا ، فَجَعَلَتْ أمْرَهَا إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ زَيْدٍ وَسَاقَ إلَيْهِمَا عليه السلام عَشْرَةَ مَثَاقِيْلَ وَسِتِّيْنَ دِرْهَماً ؛ وَخِمَاراً وَمِلْحَفَةً وَدِرْعاً وَإِزَاراً ؛ وَخَمْسِيْنَ مُدّاً مِنْ طَعَامٍ وَثَلاَثِيْنَ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ.

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ } ؛ أي واذْكُرْ يا مُحَمَّدُ قولَكَ { لِلَّذِي أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ } بالإسلامِ وغيرِهِ ، { وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ } ؛ بالإعْتَاقِ ؛ وهو زيدُ ابنُ حارثةَ ؛ وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأتِهِ زَيْنَبُ تَشَاجُرٌ ، فَجَاءَ زَيْدٌ إلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يَشْكُوهَا بَما كَانَتْ تَسْتَطِيْلُ عَلَيْهِ بشَرَفِهَا.

فَقَالَ صلى الله عليه وسلم لِزَيْدٍ عَلَى سَبيْلِ الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ : { أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ } ؛ امْرَأتَكَ ولا تُطلِّقْهَا ، { وَاتَّقِ اللَّهَ } ؛ فيها ولا تَفْعَلْ في أمرِها ما تَأْثَمُ بهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ } ؛ خطابٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ إنْ طَلَّقَهَا زَيْدٌ ، تَزَوَّجَهَا هُوَ وَضَمَّهَا إلَى نَفْسِهِ صِلَةً لِرَحِمِهَا وَشَفَقَةً عَلَيْهَا ، فعاتبَهُ اللهُ على ذلكَ وإخفائه ؛ لكي لا يكون ظاهرُ الأنبياء عليهم السلام إلاّ كباطنهم.

وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يعلمُ أنَّهما لا يتّفِقانِ لكثرةِ ما كان يجري بينَهما من الخصومةِ ، فجعل يُخْفِيْهِ عن زيدٍ ، وكان الأَولَى بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم أن يدعُوهُما إلى الْخُلْعِ فلم يفعَلْ ، وقالَ لهُ : (أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) خشيةَ أنه لو خَالَعَها ثُم تزوَّجَها النبيُّ عليه السلام أن يطعنَ الناسُ عليهِ فيُقالُ : تزوَّجَ بحليلةِ ابنهِ بعد ما بيَّنَ للناسِ أنَّ حليلةَ الابنِ حرامٌ على الأب ، فهذا معنى قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَخْشَى النَّاسَ } ؛ أي تخافُ لائِمَتَهُمْ أنْ يقولُوا : أمَرَ رَجُلاً بطَلاَقِ امْرَأتِهِ ثُمَّ نَكَحَهَا. قال ابنُ عبَّاس في هذه الآيةِ : (أرَادَ بالنَّاسِ الْيَهُودَ ، خَشِيَ أنْ يَقُولَ الْيَهُودُ : تَزَوَّجَ مُحَمَّدٌ امْرَأةَ ابْنِهِ). وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ } ؛ أي هو أوْلَى بأنْ تخشاهُ في كلِّ الأحوالِ.

وعن عليِّ بن الحسنِ : أنْ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ فَقَالَ : (كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ أعْلَمَ نَبيَّهُ عليه السلام أنَّ زَيْنَبَ سَتَكُونُ مِنْ أزْوَاجِهِ ، وَأنَّ زَيْداً سَيُطَلِّقُهَا ، فعلى هذا يكون النبي عليه السلام مُعَاتَباً عَلَى قَوْلِهِ : { أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ } مَعَ عِلْمِهِ بأَنَّهَا سَتَكُونُ زَوْجَتَهُ ، وَكِتْمَانِهِ مَا أخْبَرَهُ اللهُ بِهِ ، وَإنَّمَا كَتَمَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لأَنَّهُ اسْتَحْيَا أنْ يَقُولَ لِزَيْدٍ : إنَّ زَوْجَتَكَ سَتَكُونُ امْرَأتِي).

وَقِيْلَ : " إنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ لَمَّا أرَادَ فِرَاقَهَا ، جَاءَ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إنِّي أُرِيْدُ أنْ أُفَارِقَ صَاحِبَتِي ، فَقَالَ : " مَا لَكَ ؟ أرَابَكَ مِنْهَا شَيْءٌ ؟ " قَالَ : لاَ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا رَأيْتُ مِنْهَا إلاَّ خَيْراً ، وَلَكِنَّهَا تَتَعَظَّمُ عَلَيَّ لِشَرَفِهَا وَتُؤْذِيْنِي بلِسَانِهَا ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ ".

ثُمَّ إنَّ زَيْداً طَلَّقَهَا ، فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا قَالَ صلى الله عليه وسلم لِزَيْدٍ : " مَا أجِدُ فِي نَفْسِي أحَداً أوْثَقَ

مِنْكَ ، إِذْهَبْ إِلَى زَيْنَبَ فَاخْطُبْهَا لِي " قَالَ زَيْدٌ : فَذهَبْتُ فَإِذا هِيَ تُخَمِّرُ عَجِيْنَهَا ، فَلَمَّا رَأَيْتُهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي ، حَتَّى لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا حِيْنَ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذَكَرَهَا ، فَوَلَّيْتُهَا ظَهْرِي وَقُلْتُ : يَا زَيْنَبُ أَبْشِرِي ؛ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَخْطِبُكِ ؛ فَفَرِحَتْ بذلِكَ ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ { زَوَّجْنَاكَهَا } فَتَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَدَخَلَ بهَا ، وَمَا أَوْلَمَ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهِ مَا أَوْلَمَ عَلَيْهَا ، أَطْعَمَ النَّاسَ الْخُبْزَ واللَّحْمَ حَتَّى امْتَدَّ النَّهَارُ ".

(٠/٠)

مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ } أي مَا كان عليه من ضِيْقٍ وإِثْمٍ فيما شَرَّعَهُ اللهُ تعالى وأحَلَّهُ له كسُنَّةِ اللهِ ، { فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ } ، أي سائرِ الأنبياء الماضِين في التَّوسِعَةِ عليهم في النِّكاحِ ، فقَوْلُهُ : { سُنَّةَ اللَّهِ } منصوبٌ بنَزعِ الخافضِ ، وقَوْلُهُ تعالى : { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً } ؛ أي قضاءً مَقْضِيّاً ، أخبرَ اللهُ تعالى أن أمرَ زينبَ كان من حُكمِ الله وقَدَرِهِ.

(٠/٠)

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ } ؛ موضعُ (الَّذِيْنَ) الخفضُ ؛ لأنه نعتُ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ الذينَ خَلَوا من قَبلُ ، كانوا يبَلِّغُون الرسالةَ ، { وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ } ؛ ويخشَون اللهَ ولا يخشونَ أحداً سواهُ ، أي لا يخشون مقالةَ الناسِ ، { وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً } ؛ أي مُجَازياً لِمن يخشاهُ ، وَقِيْلَ : حَفِيظاً لأعمالِ العباد ، مُجازياً لَهم.

(٠/٠)

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ } ؛ وذلك أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا تَزَوَّجَ زَيْنَبَ ، قَالَ النَّاسُ : إنَّ مُحَمَّداً تَزَوَّجَ امْرَأَةَ ابْنِهِ! فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى { مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ } ، يعني أنَّهُ ليس بأَبي زَيْدٍ حتى تحرُمَ عليه زوجتهُ ، { وَلَاكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ } ؛ فعظَّموهُ وأقِرُّوا بهِ.

قرأ الحسنُ وعاصم (وَخَاتَمَ النَّبِيِّيْنَ) بفتحِ التاء ؛ أي آخِرَ النَّبِيِّينَ ، وقرأ الباقونَ بكسرِ التَّاء على الفاعلِ ؛ أي إنه خَتَمَ النَّبيينَ بالنبوَّةِ ، { وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً } ؛ أي لَم يَزَلْ عالِماً بكلِّ شيء من أقوالِكم وأفعالِكم.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } ؛ اختلَفُوا في المرادِ بالذِّكرِ الكثيرِ في هذه الآية. قال الكلبيُّ : (الْمُرَادُ بِهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، وَهِيَ تَتَضَمَّنُ أذْكَاراً كَثِيْرَةً ، وَأرَادَ بالتَّسْبِيْحِ التَّنْزِيْهَ فِي الصَّلاَةِ). وقال مجاهدُ : (هُوَ أنْ لاَ يَنْسَاهُ أبَداً). وقال مقاتلُ : (هُوَ التَّسْبِيْحُ وَالتَّحْمِيْدُ وَالتَّهْلِيْلُ وَالتَّكْبِيْرُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَهُوَ أنْ يَقُولَ : سُبْحَانَ اللهِ ؛ وَالْحَمْدُ للهِ ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ؛ وَاللهُ أكْبَرُ. وَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ يَتَكَلَّمُ بِهِنَّ صَاحِبُ الْجَنَابَةِ وَالْغَائِطِ وَالْحَدَثِ).

قَالَ صلى الله عليه وسلم : " يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : أنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بي شِفَاهُهُ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } بالغَدَاةِ والعَشِيِّ ، قال الكلبيُّ : (أمَّا بُكْرَةً فَصَلاَةُ الْفَجْرِ ، وَأمَّا أصِيْلاً فَصَلاَةُ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِب وَالْعِشَاءِ). وقال بعضُهم : أرادَ بذلك صلاةَ الصُّبح وصلاةَ العصرِ على قولِ قتادةَ ، وصلاةَ المغرب على قولِ غيرِهِ. وخَصَّ طَرَفَي النهار بالذِّكر ؛ لأنه يجتمعُ عندَهُما ملائكةُ اللَّيل والنهار ، فيقولون : أتيناهم وهم يُصَلُّونَ ، وتركنَاهُمْ وهم يُصَلُّونَ. وَقِيْلَ : خُصَّ التسبيحُ بطرَفَي النهار ؛ لأن صحيفةَ العبدِ إذا كان في أوَّلِها وآخِرِها ذكرٌ وتسبيحٌ يرجَى أن يُغْفَرَ له ما بين طَرَفَي الصحيفةِ.

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " مَا جَلَسَ قَوْمٌ قَطّ يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى ، إلاَّ نَادَى مُنَادِي السَّمَاءِ : أنْ قُومُوا فَقَدْ غُفِرَتْ لَكُمْ ذُنُوبُكُمْ ، وَبُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ " وَقِيْلَ : معنَى قولهِ {

اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً } أي باللَّيلِ والنهار ، وفي البَرِّ والبحرِ ، والسَّفر والحضرِ ، والغِنَى والفقرِ ، والصِّحة والسَّقمِ ، والسِّر والعلانيةِ ، وعلى كلِّ حالٍ. وقال مجاهدُ : (الْكَثِيْرُ هُوَ الَّذِي لاَ يَتَنَاهَى أبَداً).

(٠/٠)

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ } ؛ أي يَرْحَمُكُمْ ويغفرُ لكم ، وقوله { وَمَلاَئِكَتُهُ } أي يَدْعُونَ لكم. وَقِيْلَ : يأمرُ الملائكةَ بالاستغفار لكم. والصَّلاةُ مِن اللهِ الرحمةُ بالثواب ، ومِن المؤمنين الدُّعاءُ ، ومِن الملائكةِ الاستغفارُ للمؤمنين.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ } ؛ أي مِن ظُلُمَاتِ المعاصِي والجهلِ { إِلَى النُّورِ } ؛ العِلْمِ والطاعةِ ، وَقِيْلَ : مِن ظُلماتِ الكُفرِ إلى نور الإيْمانِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً } ؛ أي لَم يَزَلْ رَحِيْماً بهم إذ رَضِيَ عنهُم وأمَرَ الملائكةَ بالاستغفار لَهم.

(٠/٠)

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ } ؛ أي تحيةُ المؤمنينَ مِن الله تعالى { يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ } أنْ يُسَلِّمَ عليهم ، يقولُ لَهم الملائكةُ بأمرِ الله. السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ ؛ مَرْحَباً بِعِبَادِي الْمُؤمِنِينَ الَّذينَ أرْضَوْنِي فِي دار الدُّنيا باتِّباعِ أمْرِي. ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ }[الزمر : ٧٣]. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً } ؛ أي رزْقاً حَسَناً في الجنَّةِ ، وَقِيْلَ : الأجرُ الكريمُ هو الذي يكون عظيمَ القَدْر.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً } ؛ على أُمَّتِكَ وعلى جميعِ الأُممِ بتبليغِ الرِّسالةِ ، { وَمُبَشِّراً } ؛ للخَلْقِ بالجنَّة والثواب لِمَن أطاعَ اللهَ وصَدَّقَكَ ، { وَنَذِيراً } ؛ أي ومُخَوِّفاً بالنار والعقاب لِمَن عصَى الله تعالى وكَذبَكَ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ } ؛ أي وأرسلناكَ للناس رَاعِياً للخَلْقِ إلى دينِ اللهِ تعالى بأمرِهِ ، يعني إنَّهُ أمَرَكَ بهذا. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسِرَاجاً مُّنِيراً } ؛ أي وأرسلناكَ سِرَاجاً مُضِيئاً لِمَن تَبعَكَ واهتدَى بكَ ، كالسِّراجِ في الظُّلْمَةِ يُستَضَاءُ بهِ.
وإنَّما سُمِّيَ النبيُّ عليه السلام سِرَاجاً ؛ لأنه بُعِثَ والأرضُ في ظُلْمَةِ الشِّركِ ، فكان حين بُعِثَ كالسِّراجِ في الظُّلمة. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً } ؛ أرادَ بالفَضْلِ الكبيرِ مغفرةَ الله لَهم ، وما أعدَّ لَهم في الجنَّةِ.

(٠/٠)

وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } ؛ فيما يطلبونَهُ منكَ ، فقد ذكرنَا تفسيرَهُ في أوَّل السُّورة. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَدَعْ أَذَاهُمْ } أي اصْبرْ على أذاهُم واحتَمِلْ منهم ، ولا تَشْتَغِلْ بمجَازَاتِهم إلى أن تُؤْمَرَ فيهم بأمرٍ ، وهذا منسوخٌ بآية السَّيفِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } ؛ أي فَوِّضْ أمُورَكَ إليهِ. فإنه سَيَكْفِيْكَ أمرَهُم إذا تَوَكَّلْتَ عليهِ ؛ أي تَوَكَّلْ عليه في كِفَايَةِ شرِّهم وأذاهم ، { وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } ؛ إذا وَكَّلْتَ أمْرَكَ إليهِ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ } ؛ أي إذا تزوَّجتُمُوهُنَّ من قَبْلِ أن تُجامِعُوهن ، { فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا } ، تَسْتَوْفُونَهَا بالعَدَدِ لا بالحيضِ ولا بالشُّهور. والاعْتِدَادُ هو استيفاءُ العَدَدِ ، أسقطَ اللهُ العِدَّةَ من الْمُطَلَّقَةِ قَبْلَ الدُّخولِ لبَرَاءَةِ رحِمِها ، فلو شاءَتْ تزوَّجت مِن يومِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً } ؛ أي أعْطُوهُنَّ مُتْعَةَ الطلاقِ ، وهذا على سبيلِ الوجُوب فيمَن يدخلُ بها ولَم يُسَمِّ لَها مهراً ، وعلى النَّدب في مَن سَمَّى لَها مهراً ثُم طلَّقها قبلَ الدُّخولِ.

وقال سعيدُ بن المسيَّب : (نُسِخَ حُكْمُ هَذِهِ الآيَةِ بقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ{ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ }[البقرة : ٢٣٧]). وقال الحسنُ : (الْمُتْعَةُ وَاجِبَةٌ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ وَمُخْتَلَعَةٍ وَمُلْتَعَنَةٍ ، وَلَكِنْ لاَ يُجْبَرُ عَلَيْهَا الزَّوْجُ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَرِّحُوهُنَّ } أرادَ له التسريحُ عن المنْزِلِ لا عن النكاحِ ؛ لأن حقَّ الحبسِ لا يثبتُ إلاّ بأحدِ الأمرين : إما النكاحُ ؛ وإما العدَّةُ ، وقد عُدَّ ما جميع في هذا الموضعِ بعددِ الطَّلاق المذكور.

والسَّراحُ الجميلُ : هو الذي لا يكونُ فيه جَفْوَةٌ ولا أذَى ولا منعُ حقٍّ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قولهِ { فَمَتِّعُوهُنَّ } : (أيْ أعْطُوهُنَّ الْمُتْعَةَ ، قَالَ : وَهَذا إذا لَمْ يَكُنْ سَمَّى لَهَا صَدَاقاً ، فَأَمَّا إذا فَرَضَ صَدَاقاً فَلَهَا نِصْفٌ).

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ } أي أبَحْنَا لكَ نساءَكَ اللاّتِي تزوَّجْتَهن بمُهُورٍ مُسَمَّاةٍ ، وأعطيتَ مُهورَهُنَّ ، وسَمَّى المهرَ أجْراً لأنه يجبُ بَدَلاً عن منافعِ البُضْعِ ، كما أنَّ الأجرَ يجبُ بَدَلاً عن منافعِ الدَّار والعبدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ } ؛ أي وَأبَحْنَا لكَ ما ملكَتْ يَمينُكَ ؛ يعني الْجَوَاري التي يَملِكُها.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { مِمَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَيْكَ } ؛ أي مِمَّا أعطاكَ اللهُ من الغنيمةِ جُوَيْرِيَّةَ بنتِ الحارثِ ، وصَفِيَّةَ بنتِ حَيِيِّ بن أخْطَبَ. ويدخلُ في هذه اللفظةِ الشِّراءُ والتزوُّجُ ، كما رُوي في صَفِيَّةَ " أنَّهُ عليه السلام

أعْتَقَهَا ثُمَّ تَزَوَّجَهَا ، وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ } ؛ أرادَ به إباحةَ تزويجِ بناتِ عمِّه وبناتِ عمَّاتهِ من بنِي عبدِ المطَّلب ، { وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ } ، وبناتِ خالهِ وبنات خالاتهِ ؛ يعني نساءَ بني زُهرَةَ من بنِي عبدِ منافٍ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ } ؛ أي هَاجَرْنَ معكَ من مكَّة إلى المدينةِ ، وهذا إنَّما كان قَبْلَ تَحليلِ غير الْمُهاجِرَاتِ ، ثُم نُسِخَ شرطُ الهجرةِ في التحليلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ } ؛ بلا مَهرٍ إن أراد النبيُّ أن يتزوَّجَها ، ومَن قرأ (وَهَبَتْ) بالفتحِ ، فمعناهُ : أحللناهَا أنْ وهَبَت ، وهي قراءةُ الحسنِ ، فالفتحُ على الماضِي والكسرُ على الاستئنافِ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا } ؛ أي إنْ أرادَ النبيُّ أن يتزوَّجَها فلَهُ ذلكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { خَالِصَةً لَّكَ } ؛ أي خاصَّةً لكَ ، { مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ فليسَ لامرأةٍ أن تَهَبَ نفسَها لرجلٍ بغيرِ شُهودٍ ولا وَلِيٍّ ولا مَهْرٍ إلاّ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وهذا مِن خَصَائِصِهِ في النِّكاحِ ، كالتَّخْييرِ والعددِ في النِّساء.

ولو تزوَّجَها بلفظِ الهبة وقَبلَها بشهودٍ ومَهْرٍ انعقدَ النكاحُ ولَزِمَ المهرُ ، وهذا مذهبُ أبي حنيفةَ ، وقال الشافعيُّ ومالكٌ : (لاَ يَنْعَقِدُ النِّكَاحُ بلَفْظِ الْهِبَةِ إلاَّ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم خَاصَّةً ؛ لأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ { إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ } وَلَمْ يَقُلْ لَكَ ، لأَنَّهُ لَوْ قَالَ : إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَكَ ، كَانَ يَجُوزُ أنْ يُتَوَهَّمَ أنَّهُ يَجُوزُ ذلِكَ لِغَيْرِهِ عليه السلام كَمَا جَازَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : { وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ } ، لأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى { خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ }.

وحُجَّةُ أبي حنيفةَ وأصحابِهِ : إنَّ إضافةَ الهبةِ إلى المرأةِ دليلاً أنَّ النبيَّ لَم يكن مَخْصُوصاً بالنكاحِ بلفظةِ الهبةِ ، وإنَّما كانت خُصوصِيَّة في جواز النِّكاحِ بغير بدلٍ ، ولو لَم يكن بلفظِ الهبةِ نكاحاً لِمَا قالَ تَعَالَى { إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا } ، فلمَّا جعلَ اللهُ الهبةَ جواباً للاسْتِنْكَاحِ ، عُلِمَ أنَّ لفظَ الهبة نِكَاحٌ.

وقَوْلُهُ { خَالِصَةً } نعتُ مصدرٍ ؛ تقديرهُ : إنْ وَهَبَتْ نفسهَا هبةً خالصةً لك بغيرِ عِوَضٍ ، أحْلَلْنَا لكَ ذلك مِن دونِ المؤمنين ، فأمَّا المؤمنونَ إذا قَبلُوا هذه الهبةَ على وجهِ النِّكاحِ لزِمَهم المهرُ.

(٠/٠)

تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ } ، معناه : تؤخِّرُ مَن تشاءُ من فراشِكَ من نسائك ، وتضمُّ إلى فراشِكَ مَن تشاءُ منهن من غير حرجٍ عليك. وهذا من خصائصِ النبيِّ صلى الله

عليه وسلم تفضيلاً له ، أُبيح له أن يجعلَ لِمَن أحبَّ منهن يوماً أو أكثرَ ، ويعطِّلُ مَن شاء منهنَّ فلا يأتيها. وكان القَسْمُ واجباً على النبيِّ صلى الله عليه وسلم والتسويةُ بينهن ، فلما " نزَلت " هذه الآيةُ سقطَ الوجوبُ ، وصار الاختيار إليه فيهن. قال منصورُ عن أبي رَزين : (وَكَانَ مِمَّنْ آوَى عَائِشَةُ وَأُمُّ سَلَمَةَ وَزَيْنَبُ وَحَفْصَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ ، وَكَانَ يُسَوِّي بَيْنَهُنَّ فِي الْقَسْمِ ، وَكَانَ مِمَّنْ أَرْجَى سَوْدةُ وَجُوَيْرِيَّةُ وَصَفِيَّةُ وَأُمُّ حَبيبَةَ وَمَيْمُونَةَ ، وَكَانَ يَقْسِمُ لَهُنَّ مَا شَاءَ ، وَكَانَ قَدْ أَرَادَ أَنْ يُفَارِقَهُنَّ ، فَقُلْنَ لَهُ : اقْسِمْ لَنَا مَا شِئْتَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَدَعْنَا عَلَى حَالِنَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ } ، معناهُ : إنْ أردتَ أن تُؤوي إليك امرأةً ممن عزَلتهُنَّ من القسمةِ وتضمَّها إليه ، فلا عتبَ عليك ولا لَوْمَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ } ، أي ذلك التخييرُ الذي خيَّرتك في صُحبَتهنَّ أدنى إلى رضاهن إذا كان ذلك مُنَزَّلاً مِن الله عليك ، ويرضيهنَّ كلُّهن بما أعطيتهن من تقريبٍ وإرجاء وإيواءٍ. قال قتادةُ : (إذا عَلِمْنَ أنَّ هَذا جَاءَ مِنَ اللهِ لِرُخْصَةٍ ، كَانَ أطْيَبَ لأَنْفُسِهِنَّ وَأقَلَّ لِحُزْنِهِنَّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ } ، واللهُ يعلَمُ ما في قلوبكم من أمر النساء والميلِ إلى بعضِهنَّ ، ويعلمُ ما في قلوبكم من الرِّضا والسُّخط وغيرِ ذلك ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً } ، بمصالحِ العباد ، { حَلِيماً } ، على جهلِهم ولا يعاقبُهم بكلِّ ذنبٍ.

(٠/٠)

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ مِن بَعْدُ } ، قال قتادةُ : (وَذلِكَ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا خَيَّرَ نِسَاءَهُ فَاخْتَرْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، شَكَرَ اللهُ لَهُنَّ فَقَصَرَهُ اللهُ عَلَيْهِنَّ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ سِوَاهُنَّ). وكُن يؤمئذ تِسعاً : عائشةُ ، وحفصةُ ، وزينب ، وأُم سَلَمة ، وأمُّ حَبيبة ، وصفيَّة ، وميمونةُ ، وجويريَّة ، وسَوْدَةُ.

ومعنى الآية : لا يحلُّ لكَ من النساءِ سوى هؤلاء اللاَّتي اخترنَكَ ، { وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ } ، وليس لكَ أن تُطلِّقَ واحدةً منهن وتَزَوَّج بدَلها. وقولهُ : { إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ } ، يعني ماريَّة القِبطية وغيرها من السَّبايا. وقولهُ تعالى : { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً } ، أي حفيظاً.

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت : [مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى حَلَّتْ لَهُ النِّسَاءُ].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ } ، نزَلت هذه الآيةُ في شأنِ وليمَةِ زينب ، قال أنسُ ابن مالكٍ : " لَمَّا بَـنَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بزَيْنَبَ بنْتِ جَحْشٍ ، أوْلَمَ عَلَيْهَا بتَمْرٍ وَسَوِيقٍ وَذَبَحَ شَاةً ، وَبَعَثَت إلَيْهِ أُمِّي أُمُّ سُلَيمٍ بحَيْسٍ في تُورٍ مِنَ حِجَارَةٍ ، فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ أدْعُوَ أصْحَابَهُ إلَى الطَّعَامِ فَدَعَوْتُهُمْ ، فَجَعَلَ الْقَوْمُ يَدْخُلُونَ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ آخَرُونَ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ آخَرُونَ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ ، فَوَضَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَدَهُ عَلَى الطَّعَامِ وَدَعَا فِيهِ ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُواْ وَخَرَجُواْ ، وَبَقِيَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ لَمْ يَخْرُجُوا.

فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " ارْفَعُواْ طَعَامَكُمْ " فَرَفَعُواْ وَخَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَبَقِيَ أُوْلَئِكَ الْقَوْمُ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ فَأَطَالُوا الْمُكْثَ. وَإِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِكَيْ يَخْرُجُواْ ، فَمَشَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلَى جَميعِ بُيُوتِ أزْوَاجِهِ ، ثُمَّ رَجَعَ فَإذا الْقَوْمُ جُلُوسٌ يَتَحَدَّثُونَ فِي بَيْتِهِ ، وَكَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم شَدِيدَ الْحَيَاءِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ".

قال أنسٌ : " فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَاب جِئْتُ لأَدْخُلَ كَمَا كُنْتُ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " وَرَاءَكَ يَا أنسُ " ".

ومعنى الآية : { لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ } صلى الله عليه وسلم { إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ } أي إلا أن يُدعَوا إلى الضيافةِ أو يُؤذن لكم في الدخول ، من غير أن يجتنبوا وقتَ الطعام فيستأذنوا في ذلك الوقت ، ثم تقعُدوا انتظاراً لبُلوغ الطعامِ ونُضجِهِ.

ومعنى : { غَيْرَ نَاظِرِينَ } أي مُنتظرين نُضجَهُ وإدراكَهُ ، يقال أنَى يَأنِي إنَاهُ ، إذا حانَ وأدركَ ، وكانوا يدخلون بَيتَهُ فيجلسون منتظرين إدراكَ الطعام ، فنُهوا عن ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُواْ } ، أي فتفرَّقوا ، { وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ } ، ولا تجلسوا مُستَأنِسين لحديثٍ بعدَ أن تأكُلوا ، { إِنَّ ذَالِكُمْ } ، إنَّ طُولَ مقامكم بعدُ في منزل النبي عليه السلام ، { كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ } ، صلى الله عليه وسلم ، { فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ } ، أن

يأمركم بالخروج ، { وَاللَّهُ } ، عَزَّ وَجَلَّ ، { لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ } ، أي لا يمنعه عن بيان ما هو الحقُّ استحياءً منكم ، وإن كان رسولهُ يفعل ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ } ، أي إذا سألتُم أزواجَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم من متاعِ البيت ، فخاطبُوهم من وراء الباب والسَّترِ ، قال مقاتلُ : (أمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِيْنَ أنْ لاَ يُكَلِّمُوا نِسَاءَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إلاَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ). وعن أنسٍ رضي الله عنه قال : قَالَ عُمر : (يَا رَسُولَ اللهِ إنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، فَلَوْ أمَرْتَ أُمَّهَاتَ الْمُؤْمِنِينَ بالْحِجَاب ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَاب).

(٠/٠)

إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ } ، أي إنْ تُظهروا قَولاً أو تُضمِرُوهُ ، فإنَّ الله عالِمٌ بالظواهرِ والبواطنِ والضمائر. وقيل : معناهُ : إنْ تُظهروا أشياءَ من أمرِهنَّ ، يعني طلحةَ ، قوله تعالى : { أَوْ تُخْفُوهُ } أي تسِرُّونَهُ في أنفسكم ، وذلك أنَّ نفسَهُ حدَّثته بتزويجِ عائشة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً } ، أي عليمٌ بكل شيءٍ من السرِّ والعلانية.

فلمَّا نزلَت آيةُ الحجاب قال الأباءُ والأبناء والأقاربُ : يا رسولَ الله ونحنُ أيضاً نُكلِّمُهنَّ من وراء حجاب ؟ فأنزلَ اللهُ :

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَآئِهِنَّ وَلاَ أَبْنَآئِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَآءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَآءِ أَخَوَاتِهِنَّ } ، الآية. أي لا حرجَ عليهن في إذنِ آبائهن بالدخول عليهن ، ولا في إذن الأبناءِ والإخوان وأبناء الإخوانِ وأبناء الأخوات.

فإن قيلَ : فهلاَّ ذكَر الأعمامَ والأخوال ؟ قيل : إنَّ العمَّ والخالَ يجريان مجرَى الوالدين في الرُّؤية ، وكان ذِكرُ الأباء يتضمَّن ثباتَ حُكم الأعمام والأخوال. وقيل : إنما لم يذكُر الأعمامَ والأخوال لكي لا يدخلَ أبناؤهما ، ولا يطمَعا فيهن.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ نِسَآئِهِنَّ } ، قال ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (يَعْنِي نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ ، لاَ نِسَاءَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَصِفْنَ لأَزْوَاجِهِنَّ نِسَاءَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إنْ رَأَيْنَهُنَّ). وقولهُ تعالى : { وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ } ، يعني العبيدَ والإماءَ ، قيل : حَمْلُهُ على الإماءِ أوْلَى ؛ لأن الْحُرَّ والعبيدَ

يختلفان فيما يُباح لهما من النَّظَر ، فلا يجوزُ للبالغين من العبيدِ أن يَنظُروا إلى شيءٍ منهن.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّقِينَ اللَّهَ } ، أي واتَّقين اللهَ أن يرَاكُنَّ غيرُ هؤلاء ، وقيل : اتَّقين اللهَ في الإذنِ لغير المحارمِ في الدخول عليكن ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ } ، من أعمال العباد ، { شَهِيداً } ، لم يغب عنه شيء.

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ } ، معناه : أنَّ اللهَ يترَحَّمُ على النبيِّ ويُثني عليه ، وقوله : { وَمَلاَئِكَتَهُ } أي والملائكة يدعونَ له بالرَّحمة ، وقوله تعالى : { يُصَلُّونَ } الضميرُ فيه يعودُ على الملائكة دون اسم الله تعالى ؛ لأن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُفرِدُ ذِكرَهُ عن ذِكر غيره إعظاماً كما تقدم في قوله : { وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ }[التوبة : ٦٢]. وقرأ ابن عباس : (وَمُلاَئِكَتُهُ) بالرفع عطفاً على محل قوله تعالى قبل دخول (إنَّ) ، ونظيره قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ }[المائدة : ٦٩] وقد مضى ذلك.
وقيل : معنى قوله : { وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ } أي يُثْنُونَ ويترحَّمون ويَدْعُون له. وقال مقاتلُ : (أمَّا صَلاَةُ اللهِ فَالْمَغْفِرَةُ ، وَأمَّا صَلاَةُ الْمَلاَئِكَةِ فَالاسْتِغْفَارُ لَهُ). وقولهُ تعالى : { يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ } ، أي قولوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى محَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّد ، تَعظِيماً وإجْلاَلاً وتَفضِيلاً.
وعن كعب بن عُجرة قال : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ، قِيلَ : " يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ الصَّلاَةُ عَلَيْكَ ؟ قَالَ : " قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ ، إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ إنَّكَ حَمِيْدٌ مَجِيدٌ " ".
وعن عبدِالله بن مَسعُود أنه قال : (إذا صَلَّيْتُمْ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَأَحْسِنُوا الصَّلاَةَ عَلَيْهِ ؛ فَإنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ لَعَلَّ ذلِكَ يُعْرَضُ عَلَيْهِ. قَالُواْ : فَعَلِّمْنَا ذلِكَ. قَالَ : قُولُوا : اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَإمَامِ الْمُتَّقِينَ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ ، إمَامِ الْخَيْرِ وَقَائِدِ الْخَيْرِ وَرَسُولِ الرَّحْمَةِ. اللَّهُمَّ ابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً يَغْبطُهُ فِيهِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } ، يجوزُ أن يكون معناه : واخْضَعُوا لأمرِهِ خُضوعاً ، ويجوز أن يكون معناه : الدُّعاء بالسلامِ ، يقول : السَّلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ. وعن الحسنِ قال : " سُئِلَ النَّبيُّ صلى الله

عليه وسلم فَقِيْلَ : يَا رَسُولَ اللهِ عَرَفْنَا السَّلاَمَ عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ الصَّلاَةُ عَلَيْكَ ؟ قَالَ : " قُولُوا : اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ وَبَارَكْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ " والأفضلُ في هذا الباب أن تصَلِّي على مُحَمَّد وعلى آلهِ ، فتقولَ : اللَّهُمَّ صلِّ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّد. فإنْ اقتُصِرَ على أحدهما جازَ.

واختلفوا في كيفيَّة وجُوب الصلاةِ على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضُهم : تجبُ في العُمرِ مرَّة واحدةً بمنزلة الشهادَتين ، وإلى هذا ذهبَ الكرخيُّ قالَ : (إذا صَلَّى عَلَيْهِ فِي عُمُرِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَدْ أدَّى فَرْضَهُ ، إلاَّ أنَّ الْمُسْتَحَبَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ أنْ يُكْثِرَ مِنَ الصَّلاَةِ عَلَيْهِ فِي مُقَابَلَةِ حَقِّهِ فِي الدِّينِ عَلَيْنَا ، كَمَا يَلْزَمُ الْمَرْءَ الدُّعَاءُ لأَبَوَيْهِ الْمُؤْمِنِيْنِ لِيَقْضِيَ بذلِكَ الدُّعَاءِ حَقَّهُمَا عَلَيْهِ).

وقال بعضُهم : تجبُ عليه في كلِّ مجلسٍ مرَّة بمنزلة سَجدَةِ التِّلاوة. وقال الطحَّاويُّ : (تَجِبُ الصَّلاَةُ عَلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم كُلَّمَا ذُكِرَ) واستدلَّ بما رُوي أنَّ جبريلَ عليه السلام قالَ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَلاَ غَفَرَ اللهُ لَهُ " وقال الشافعيُّ رضي الله عنه : (الصَّلاَةُ عَلَيْهِ فَرْضٌ فِي كُلِّ صَلاَةٍ) وهذا قولٌ لم يقُل به أحدٌ غيرهُ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ } ، قال المفسِّرون : هم المشركون واليهودُ والنصارى ، وصَفُوا اللهَ بالولدِ فقالوا : عُزيرٌ ابن الله ، والمسيحُ ابن الله ، والملائكةُ بناتُ الله ، وكذبوا رسولَهُ وشجُّوا وجهَهُ وكسَرُوا رُباعيته ، وقالوا : مجنونٌ ، وشاعر ، وساحرٌ كذاب. قال صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ أحَدٍ أصْبَرُ عَلَى أذَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، جَعَلُوا لَهُ نَدّاً وَجَعَلُوا لَهُ وَلَداً ، وَهُوَ مَعَ ذلِكَ يُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ " وكذلك قالتِ اليهودُ : يدُ الله مغلولةٌ ، وقالوا : إن الله فقيرٌ.

ومعنى يُؤذون اللهَ ، أي يُخالفون أمرَ اللهِ ويعصونه ويصفونَهُ بما هو مُنَزَّهٌ عنه ، والله تعالى لا يلحقهُ أذَى.

وقوله تعالى : { لَعَنَهُمُ اللَّهُ } أي باعدَهم اللهُ يعني بالقتلِ والجلاء في الدُّنيا والعذاب بالنار في الآخرة ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً } ، أي ذي هوانٍ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُواْ } ، أي يَرمُونَهم بما ليس فيهم ، قال قتادةُ والحسن : (إيَّاكُمْ وَإيْذاءَ الْمُؤْمِنِ ؛ فَإنَّ اللهَ يَغْضَبُ لَهُ وَيُؤْذِي مَنْ آذاهُ). وعن عبدالرحمن بن سَمُرة قال : " خَرَجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقالَ : " رَأيْتُ اللَّيْلَةَ عَجَباً ، رأيْتُ رجَالاً مُعَلَّقُونَ بأَلْسِنَتِهِمْ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ فَقَالَ : هَؤُلاَءِ الّذِينَ يَرْمُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغَيْرِ مَا اكْتَسَبُواْ " ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَدِ احْتَمَلُواْ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً } ، أي فقد قَالُوا كَذِباً وجَنَوا على أنفُسهم وزْراً وعقوبةً.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ } ، أي قُل لنسائك وبناتِكَ والحرائرِ من النساء يُلقِينَ على رُؤوسهن ووجوههنَّ من جلابيبهن ، والجلبابُ : هو المقنعةُ التي تسترُ بها المرأة ما يَظْهَرُ من العنُق والصدر ، وهي الملاءةُ التي تشتمل بها المرأةُ.

قال المفسِّرون : يُغطِّين رؤُوسَهن ووجوههن إلا عَيناً واحدة. وظاهرُ الآية يقتضي أنْ يكُنَّ مأمورات بالسَّتر التام عند الخروجِ إلى الطُّرق ، فعليهن أن يَستَتِرْنَ إلا بمقدار ما يعرفنَ به الطريق.

وقولهُ تعالى : { ذلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً } ، معناه : ذلك أقربُ أنْ يعرِفن الحرائرَ من الإماءِ فلا يؤذِي الحرائر ؛ لأن الناسَ كانوا يومئذٍ يُمازحون الإماءَ ولا يمازحون الحرائرَ ، وكان المنافقون يمازحون الحرائرَ ، فإذا قيلَ لهم في ذلك ، قالوا : حسِبنا أنَّهن إماءٌ. فأمرَ اللهُ الحرائرَ بهذا النوعِ من السَّتر قطعاً لأعذار المنافقين.

وعن عُمر رضي الله عنه : أنَّهُ كَانَ يَضْرِبُ الإمَاءَ وَيَقُولُ : (اكْشِفْنَ رُؤُوسَكُنَّ وَلاَ تَتَشَبَّهْنَ بالْحَرَائِرِ).

ومرَّت جاريةٌ بعُمر رضي الله عنه متقنِّعة ، فعَلاَها بالدرَّة وقال : (يَا لُكَاعُ ، أَتَتَشَبَّهِينَ بالْحَرَائِرِ ، أَلْقِي الْقِنَاعَ).

ويقالُ في معنى ذلك : { أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ } أي أقربُ إلى أن يُعرفن بالسَّتر والصلاح ؛ فَيَئِسَ منهن فُسَّاق الرِّجال ، فلا يطمَعُون فيهن كطمَعِهم فيمن تتبرَّج وتتكشَّف.

(٠/٠)

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ } ، أي لإنْ لم يَنْتَهِ المنافقون عن نِفَاقهم ، { وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ } ، يعني الفُجور وهم الزُّناة وضعفاء الدِّين عن أذى المؤمنين ، { وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ } ، وهم قومٌ كانوا يُوقعون الأخبارَ بما يكرهُ المؤمنون ، ويقولون : قد أتَاكُم العدوُّ ، ويقولون لسَرَاياهم : أنهم قُتِلوا وهُزِموا ، يُخيفون المؤمنين بذلك. لئن لم ينتَهُوا عن هذه الأفعالِ القبيحة ، { لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ } ، أي لنسلطنَّكَ عليهم ، ونأمرك بقتلِهم حتى تقتُلَهم وتخلو منهم المدينة ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلاَّ قَلِيلاً } ، أي في المدينةِ ، والمعنى : لا يُساكِنُونك في المدينة إلا يَسيراً حتى يهلَكُوا ، { مَّلْعُونِينَ } ، مطرودين مُبعَدين عن الرَّحمة ، { أَيْنَمَا ثُقِفُواْ } ، أي أينَما وُجدوا وأُدركوا.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّلْعُونِينَ } نصبٌ على الحالِ ، وقيل : على الذمِّ ، وتقديرُ النصب على الحالِ : لا يُجاورونك إلا وهم مَلعُونون مطرودون مخذولون.
وقولهُ تعالى : { أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً } ، أي أُخذوا وقُتلوا مرَّة بعد مرَّة ؛ لأنه إذا ظهرَ أمرُ المنافقين كانوا بمنزِلة الكفَّار ، ومن حقِّ الكفار أن يُقتلوا حيث يوجدون. قال قتادة : (أرَادَ الْمُنَافِقُونَ أنْ يُظْهِرُوا مَا فِي قُلُوبهم مِنَ النِّفَاقِ ، فَلَمَّا وَعَدَهُمُ اللهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ فَكَتَمُوهُ).

(٠/٠)

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ } ، أراد بالسُّنة الطريقةَ التي أمرَ اللهُ بلُزومها واتباعها ، وقد كانت هذه السُّنة في الأُمم الماضية ، لَمَّا آذى المنافقون أنبياءَهم ، أمرَ الله أنبياءَهُ بقتالهم.
قال الزجَّاجُ : (سَنَّ اللهُ فِي الَّذِينَ يُنَافِقُونَ الأَنْبِيَاءَ وَيُرْجِفُونَ بِهِمْ أنْ يُقْتَلُوا حَيْثُمَا ثُقِفُوا) ولا يبدِّلُ الله سُنَّتَهُ فيهم ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً } ، أي هكذا سُنة الله فيهم إذا أظهَرُوا النفاقَ.

(٠/٠)

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ } ، قال الكلبيُّ : (سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم عَنِ السَّاعَةِ وَعَنْ قِيَامِهَا) فقال الله تعالى : { قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ } ، أي قُل لهم يا مُحَمَّد : إنَّما العلمُ بوقتِ قيامها عند اللهِ ، لا يُطلِعُ أحدا عليها. وقولهُ تعالى : { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً } ، أيْ أيُّ شيْءٍ يُعلمُكَ أمرَ الساعة ومتى يكون قيامُها ، أي أنتَ لا تعرفهُ ، ثم قال : { لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً }.

وما بعدَ هذه الآية : { إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً لاَّ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً } ، ظاهرُ المعنى.

(٠/٠)

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ } ، أي تُقلَّبُ وجوهُ الكفار ظهرَ البطنِ ، وقيل : تُقلَّبُ إلى سوادٍ ، وقيل : تُقلَّبُ إلى الأقفيةِ.

وقرأ أبو جعفر : (تَقَلَّبُ) بفتح التاء بمعنى تَتَقَلَّب. وقرأ عيسى بن عمر : (نُقَلِّبُ) بالنون وكسرِ اللام (وُجُوهَهُمْ) بالنصب. وقولهُ تعالى : { يَقُولُونَ ياليْتَنَآ أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ } ، في الدُّنيا.

(٠/٠)

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ } أي صرَفُونا عن الدِّين وعن سَبيلِ الهدى. قرأ الحسنُ وابن عامرٍ ويعقوب : (سَادَتِنَا) بالألفِ وكسر التاء على جمعِ الجمع.

(٠/٠)

رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبَّنَآ آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ } ، أي عذِّبْهم مِثْلَي عذابنا ، فيكون ضعفٌ على كُفرِهم وضِعفٌ على دُعائهم لنا إلى الضلالِ. وقوله : { وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً } ، قرأ عاصم (كَبيراً) بالباء ؛ أي عظيماً ، وقرأ الباقون بالثاء مِن الكثرة ، وإنما اختاروا الكثرةَ لقوله : { وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ }[البقرة : ١٥٩] وقولهِ تعالى : { عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }[البقرة : ١٦١] فهذا يشهدُ للكثرة.

حدثنا مُحَمَّد بن الحسن العسقلاني ، قال : " سمعتُ مُحَمَّدَ بن السري يقولُ : رأيتُ في المنام كأنِّي في مسجدِ عَسقلان ؛ وكأنَّ رجُلاً يُناظِرُني ويقول : (وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبيرًا) وأنا أقولُ : (كَثِيراً). وإذا بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم فدخلَ علينا بالمسجدَ ، وكان في وسطِ المسجد منارةً لها بابٌ ، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقصدُها.

فقلتُ : هذا النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقلتُ : السلامُ عليكَ يا رسولَ الله استَغفِرْ لي. فأمسكَ عنِّي ، فجِئتهُ عن يمينهِ فقلتُ : يا رسولَ الله استغفِرْ لي ، فأعرضَ عني ، فقمتُ من تلقاءِ صدره ، حدَّثَنا سُفيان بن عُيينة عن مُحَمَّد بن المنكدر وعن جابرِ بن عبدالله : " أنَّكَ مَا سُئِلْتَ شَيْئاً قَطْ فَقُلْتُ لاَ " فتبسَّم عليه السلام وقال : " اللَّهم اغفِرْ له ". فقلتُ : يا رسولَ الله إني وهذا نتكلَّمُ في قولهِ تعالى : (وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا) ، فأنا أقولُ : (كَثِيراً) وهذا يقولُ : (كَبيراً) ، قال : فدخلَ النبيُّ المنارةَ وهو يقولُ : كَثيراً ، كَثِيراً ، بالثاءِ إلى أن غابَ عني صوتهُ ".

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ آذَوْاْ مُوسَى فَبرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُواْ } ، أي لا تكونُوا في أذى مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم كبني إسرائيلَ ، الذين آذوا موسَى بعيبٍ أضافوهُ إليه ، فبرَّأهُ اللهُ مما قالوا عليه ، { وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً } ، أي رفيعَ القدر والمنزلةِ.

واختلفوا في العيب الذي أضافَهُ بنوا إسرائيلَ إلى موسى ، قال بعضُهم : كان هارونُ أحبَّ إلى بني إسرائيلَ من موسى لزيادةِ رفقه بهم ، فلما ماتَ هارونُ في حالِ غيبتهما عنهم ، قالوا : إنَّ موسى قتلَهُ لتخلصَ له النُّبوة ، فأحياهُ الله تعالى حتى كذبَهم.

وقال بعضُهم : كان أذاهُم له أنهم رَمَوه بالأَدَرَةِ لكثرةِ حيائه واستتارهِ عن الناس ، وكانت بنوا إسرائيلَ عُراةً ينظرُ بعضهم إلى سَوءَةِ بعضٍ ، وكان موسى يغتسلُ وحدَهُ ، فقالوا : واللهِ ما يمنعُ موسَى أن يغتسلَ معنا إلا أنه آدَرَ.

قال : فذهبَ يغتسلُ مرَّة ، فوضعَ ثوبَهُ على حجرٍ ، فذهبَ الحجرُ بثوبهِ ، فخرجَ موسى من الماءِ في إثْرِ الحجرِ ، يقول : ثَوبي يا حجرُ ، حتى نظَرت بنوا إسرائيل إلى سَوأتهِ عليه السلام ، فقالوا : واللهِ ما به من بأسٍ. فقامَ الحجرُ بعدما نظروا إليه وأخذ ثوبه ، فطَفِقَ بالحجرِ ضَرباً. قال أبو هُريرة : " وَاللهِ إنَّ بالْحَجَرِ نُدَبٌ سِتَّةٌ أوْ سَبْعَةٌ مِنْ ضَرْب مُوسَى " قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً } أي حَظِيّاً لا يسألهُ شيئاً إلا أعطاهُ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ } ، أي اتَّقوا عذابَ الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، { وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً } ، قال ابنُ عباس : (صَوَاباً) ، وقال الحسنُ : (صَادِقاً) يعني كلمةَ التوحيدِ : لا إلهَ إلاَّ اللهُ.

(٠/٠)

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)

وقولهُ تعالى : { يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ } ، قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ يَتَقَبَّلُ حَسَنَاتِكُمْ) { وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } ، بسَدَادِ قَولِكم ، { وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً } ، أي فقد نالَ الخير كلَّهُ وظَفِرَ به ، والفوزُ العظيم هو الظَّفَرُ بالكرامةِ والرضوان من اللهِ تعالى.

(٠/٠)

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ } ، معناه : إنا عرَضنا الأمانةَ التي هي الشرائعُ والفرائض التي يتعلَّقُ بأدائها الثوابُ وبتركها العقاب. قال ابنُ عباس : (عُرِضَتِ الأَمَانَةُ عَلَى السَّمَوَاتِ السَّبْعِ الَّتِي زُيِّنَتْ بالنُّجُومِ وَحَمَلَتِ الْعَرْشَ الْعَظِيْمَ ، فَقِيْلَ لَهُنَّ بأَخْذِ الأَمَانَةِ بما فِيهَا ، قُلْنَ : وَمَا فِيهَا ، قِيلَ : إنْ أحْسَنْتُنَّ جُزِيتُنَّ ، وَإنْ أسَأْتُنَّ عُوقِبْتُنَّ ، قُلْنَ : لاَ. ثُمَّ عُرِضَتِ الأَمَانَةُ عَلَى الْجِبَالِ الصُّمِّ الشَّوَامِخِ الصِّلاَبِ الْبَوَاذِخِ) ، { فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا }. قال ابنُ جريج : (قَالَتِ السَّمَاءُ : يَا رَب خَلَقْتَنِي وَجَعَلْتَنِي سَقْفاً مَحْفُوظاً ، وَأجْرَيتَ فِيَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ ، لاَ أعْمَلُ فرِيضَةً وَلاَ أبْتَغِي ثَوَاباً. وَقَالَتِ الأَرْضُ : يَا رَب جَعَلْتَنِي بسَاطاً وَمِهَاداً ، وَشَقَقْتَ فِيَّ الأَنْهَارَ ، وَأنْبَتَّ فِيَّ الأَشْجَارَ ، لاَ أتَحَمَّلُ فَرِيضَةً وَلاَ أبْتَغِي ثَوَاباً وَلاَ عِقَاباً).

ومعنى قولهِ : { فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا } أي مخافةً وخِشيَةً لا معصيةً ولا مخالفة ، والعرضُ كان تَخييراً لا إلزاماً ، قولهُ : { وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا } أي خِفْنَ من الأمانةِ أن لا توفِّيها ، فيلحقهُنَّ العقابُ ، فأَبَوا ذلك تَعظيماً لدِين الله وخَوفاً أن لا يقوموا به ، وقالوا : نحنُ مسخَّرات لأمرِكَ لا نريدُ ثَواباً ولا عقاباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } ، يعني : وحَملَها آدمُ عليه السلام قال الله له : يا آدمُ إني عرضتُ الأمانةَ على السَّموات والأرض والجبالَ فأبَين أن يحمِلنَها ولم يُطِقْنَها ، فهل أنتَ آخذُها بما فيها ؟ قال : يا رب وما فيها ؟ قال : إنْ أحسنتَ جُزِيتَ ، وإنْ أسأتَ عُوقِبْتَ. فتحمَّلها آدمُ ، وقال : حَمَلتُها بين أذُنَيَّ وعاتِقي.

قال ابنُ عباس : (عَرَضَ اللهُ عَلَى آدَمَ أدَاءَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فِي مَوَاقِيتِهَا ، وَأدَاءَ الزَّكَاةِ عِنْدَ مَحِلِّهَا ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ ، وَحِجِّ الْبَيْتِ ، عَلَى أنَّ لَهُ الثَّوَابَ وَعَلَيْهِ الْعِقَابَ ، فَقَالَ : بَيْنَ أُذُنَيَّ وَعَاتِقِي).

وقال مقاتل : (قَالَ اللهُ تَعَالَى لآدَمَ : أتَحْمِلُ هَذِهِ الأَمَانَةَ وَتَرْعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ؟ فَقَالَ آدَمُ : وَمَا لِي عِنْدَكَ ؟ قَالَ : إنْ أحْسَنْتَ وَأطَعْتَ وَرَعَيْتَ الأَمَانَةَ ، فَلَكَ الْكَرَامَةُ وَحُسْنُ الثَّوَاب فِي الْجَنَّةِ ، وَإنْ

عَصَيْتَ وَأَسَأْتَ مُعَذِّبُكَ وَمُعَاقِبُكَ. قَالَ : قَدْ رَضِيتُ يَا رَب ، وَتَحَمَّلَهَا. فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : قَدْ حَمَّلْتُكَهَا. فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً }.

قال الكلبيُّ : (ظُلْمُهُ حَيْثُ عَصَى رَبَّهُ وَأُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَجَهْلُهُ حَيْثُ تَحْمَّلَهَا). وقال مقاتلُ : (ظَلُوماً لِنَفْسِهِ ، جَهُولاً بعَاقِبَةِ مَا حُمِّلَ). وقال مجاهدُ : (لَمَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ وَالْجِبَالَ ، عُرِضَتِ الأَمَانَةُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَقْبَلْهَا فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَرَضَهَا عَلَيْهِ فَقَالَ : قَدْ تَحَمَّلْتُهَا يَا رَب. قال مجاهدُ : فَمَا كَانَ بَيْنَ أَنْ تَحَمَّلَهَا وَبَيْنَ أَنْ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ قَدْرَ مَا بَيْنَ الْعَصْرِ وَالظُّهْرِ).

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال : (إِنَّ اللهَ قَالَ لآدَمَ : إِنِّي عَرَضْتُ الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَلَمْ يُطِقْنَهَا ، فَهَلْ أَنْتَ حَامِلُهَا بمَا فِيهَا ؟ قَالَ : يَا رَب وَمَا فِيهَا ؟ قَالَ : إِنْ حَفِظْتَهَا أُجِرْتَ ، وَإِنْ ضَيَّعْتَهَا عُوقِبْتَ ، قَالَ : قَدْ تَحَمَّلْتُهَا.

(٠/٠)

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ } ، أي ليعذبَهم اللهُ بما خَانُوا الأمانةَ وكذبوا الرُّسُلَ ، ونقضِ الميثاق الذي أقَرُّوا به حين أُخرِجُوا من ظهرِ آدم. قال الحسنُ : (هَؤُلاَءِ الَّذِينَ خَانُوهَا ، وَهُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوهَا).

قَوْلهُ تَعَالَى : { وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } ، لأنَّهم أدَّوا الأمانةَ ، وهي الفرائضُ. وقيل : معنى الآية : إنَّا عرَضنا الأمانةَ ليَظهَرَ نِفاقُ المنافقِ ، وشِرْكُ المشركِ فيعذِّبُهم اللهُ ، ويُظهِرَ إيمانَ المؤمنين فيتوبَ اللهُ عليهم بالمغفرةِ والرَّحمة إنْ حصلَ منهم تقصيرٌ في بعضِ الطاعات ، وكذلك ذكرَ بلفظِ التوبة ، فدلَّ على أن المؤمنَ العاصي خارجٌ من العذاب ، { وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً } ، للمؤمنين إذا تَابُوا ، { رَّحِيماً } ، بمن ماتَ على التوبةِ.

(٠/٠)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)

{ الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } ؛ الحمدُ : الوصفُ بالجميلِ على جهةِ التَّعظيمِ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } المعنى : له ما في السموات والأرض مُلْكاً وخَلْقاً ، { وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ } ؛ أي يَحمدهُ أهلُ الآخرةِ على دَوَامِ نِعَمِهِ عليهم كما يحمدهُ أهلُ الدُّنيا ، ولكنَّ الحمدَ في الدُّنيا تَعَبُّدٌ ، وفي الآخرة شُكْرٌ على سبيلِ السُّرور ؛ لأنه لا يُكَلَّفُ في الآخرةِ ، يقولُ أهلُ الآخرةِ : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذا ، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي أذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ وَالنِّقَمَ فِي الدَّارَيْنِ كُلِّهَا مِنْهُ. قَوْلُهُ : { وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } ؛ أي الْحَكِيْمُ في أفعالهِ ، الْخَبِيْرُ بأحوالِ عبادِه.

(٠/٠)

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا } ؛ أي ما يدخلُ في الأرضِ ويَغِيبُ فيها مِن المطرِ والحيواناتِ من الْمَيْتَةِ ، ويعلمُ ما يخرجُ منها من أنواعِ النَّباتِ والزُّروعِ وغيرِ ذلك مما لا يعلمهُ إلاّ هُوَ ، وَيعلمُ { وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ } ؛ مِن الأمطار التي هي سببُ أرزاقِ العباد ، وَيعلمُ { وَمَا يَعْرُجُ } ؛ في السَّماء ؛ أي مَن يصعدُ ، { فِيهَا } ؛ مِن الملائكةِ الْحَفَظَةِ لديوانِ العباد ، وما يرتفعُ فيها من الرِّياح والحرِّ والبردِ ، ويعلمُ ما يصعدُ فيها من أعمالِ العباد. يقالُ : عَرَجَ يَعْرُجُ ؛ إذا صَعَدَ ، وعَرَجَ يَعْرِجُ إذا صَارَ أعْرَجاً.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ } ؛ أي الرَّحِيْمُ بعبادهِ ، الغَفُورُ لِمَنِ استحقَّ المغفرةَ.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ } ؛ أي قالَ الكفَّارُ : لا تَأتِينَا القيامةُ ، { قُلْ } ؛ لَهم يا مُحَمَّد : { بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ } ؛ على ما أخبرَ اللهُ تعالى ، { عَالِمِ الْغَيْبِ }.

قرأ حمزةُ والكسائيُّ (عَالِمِ الْغَيْب) بخفضِ الميمِ على وزن فِعَالِ على المبالغةِ ، كقولهِ : عَلاَّمِ الْغُيُوب ، وقرأ نافعُ وابنُ عامرٍ : (عَالِمُ) برفعِ الميمِ على تقدير : هو عالِمٌ ، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمر وعاصمُ (عَالِمِ) بالكسرِ نعتٌ لقولهِ (وَرَبي).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ } ؛ أي لا يغيبُ عنه ولا يبعدُ عليه معرفةُ وزنِ ذرَّةٍ ، { فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ } ؛ وخصَّ الذرَّةَ بالذِّكر لأنَّها أصغرُ شيءٍ يدخلُ في أوهامِ البَشَرِ ، وهذا مَثَلٌ ؛ لأنه سُبْحَانَهُ لا يخفَى عليه ما هو دُونَ الذرةِ ، والمعنى : اللهُ يعلمُ كلَّ شيءٍ دَقَّ أو جَلَّ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } ؛ الكتابُ الْمُبِيْنُ في هذه الآيةِ هو اللَّوحُ الْمَحفوظُ.

(٠/٠)

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

وَقَوْلُهُ : { لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } ؛ معناهُ : لتَأتِيَنَّكُم الساعةُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ عَلَى أعمالِهم بالمغفرةِ والرِّزقِ الكريمِ ؛ أي الثواب الحسَنِ في الجنَّة.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ } ؛ أي سَعَوا فيها بعدَ ظُهورها ووضُوحِها بالتكذيب لَها والجحودِ بها ، مقدِّرينَ أنَّهم سيفُوتُونَنا ، ويُعاجِزُونَ الرسولَ صلى الله عليه وسلم ، { أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ } ؛ من عذابٍ مُؤلِم ، والرِّجْزُ : أسْوَأُ الْعَذاب.

قرأ ابنُ كثيرٍ (أَلِيْمٌ) بالرفعِ على نعتِ العذاب ، وقرأ الباقونَ بالخفضِ على نعتِ الرِّجْزِ.

(٠/٠)

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } ؛ أوَّلُ هذه الآيةِ عطفٌ على قولهِ (لِيَجْزِيَ) أي ولكَي يعلمَ الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبكَ وهو القُرْآنُ وآيهِ يهدِي إلى صِراط العزيزِ بالنِّقمةِ لِمَن لا يؤمنُ به ، الْحَمِيْدِ لِمَن وحَّدَهُ ، أي يهدِي إلى دِينِ اللهِ.
وقوله تعالى { الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ } يعني مؤمنِي أهلِ الكتاب. وقال قتادةُ : (يَعْنِي أصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم). وقولهُ { هُوَ الْحَقَّ } إنَّما دَخلت (هُوَ) في هذا الموضعِ للفصلِ عند البصريِّين ، ويُسمَّى ذلك عِمَاداً ، ولا يدخلُ العِمَادُ إلاّ في المعرفةِ ، قال الشاعرُ : لَيْتَ الشَّبَابُ هُوَ الرَّجِيْعُ عَلَى الْفَتَى وَالشَّيْبُ كَانَ هُوَ الْبَدِئُ الأَوَّلُ

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } ؛ أي قال الكُفَّارُ على وجهِ التَّعَجُّب والإنكار ؛ أي قال بعضُهم لبعضٍ : هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَعْنُونَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم يَزْعُمُ أنَّكُمْ تُبْعَثُونَ بَعْدَ أنْ تَكُونُوا عِظَاماً وَرُفَاتاً! وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } أي يقولُ لكم إذا بَلِيتُمْ وتقطَّعَتْ أجسامُكم وانْدَرَسَتْ آثارُكم تعودونَ. وقوله تعالى { كُلَّ مُمَزَّقٍ } أي إذا تفرَّقتُم في الأرضِ وتفرَّقَت العظامُ والجلودُ كلَّ تفريقٍ ، { إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } أي نجدِّدُ خلْقَكم بأنْ تُبعَثُوا.

(٠/٠)

أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً } ؛ هذا مِن قولِ الكُفَّار بعضُهم لبعضٍ ؛ قالوا : افْتَرَى مُحَمَّدٌ

على اللهِ كَذِباً حين زَعَمَ أنَّا نُبْعَثُ بعدَ الموتِ! { أَم بِهِ جِنَّةٌ } ؛ أي جنونٌ ، يقولون : زَعَمَ كَذِباً أمْ بِهِ جنونٌ.

فردَّ اللهُ عليهم مقالَتَهم بقوله : { بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ } ؛ أي ليسَ الأمرُ على ما قالوا من افتراءٍ وجنون ، كأنه قالَ : لا هذا ولا ذاكَ ، ولكنَّ الذين لا يؤمنونَ بالبعثِ في الآخرةِ ، والخطأ البعيدِ في الدُّنيا.

(٠/٠)

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ } ؛ معناهُ : إنَّ سماءَنا محيطةٌ بهم والأرضَ حاملةٌ لَهم ، { إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ } ؛ هذهِ ، { الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ } تلكَ ، { كِسَفاً مِّنَ السَّمَآءِ } فما يحذرُونَ هذا فيرتَدِعونَ عنِ التكذيب بآياتِنا.

والمعنى : أنَّ الإنسانَ حيث ما نظرَ رأى السماءَ فوقَهُ ، والأرضَ قُدَّامَهُ وخلفَهُ وعن يَمينهِ وعن شِمالهِ ، فكأنهُ تعالَى قال : إنَّ أرضِي وسَمائِي محيطةٌ بهم ، وأنا القادرُ عليهم ، إنْ شِئْتُ خسفْتُ بهم ، وإنْ شئتُ أُسقِطْ عليهم قطعةً من السماءِ.

قرأ حمزةُ والكسائي وخلَف : (إنْ يَشَأْ) و(يَخْسِفْ) و(يُسْقِطْ) في ثلاثَتها بالياءِ لذكرِ الله تعالى قبلَهُ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى (أفْتَرَى) ألفُ استفهامٍ دخلَتْ على ألفِ الوَصلِ فلذلك سَقطَتْ.

وقَوْلُهُ : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ } ؛ أي إنِّ فيما ذُكِرَ من مَنيعهِ وقدرتهِ وفيما تَرونَ من السَّماء والأرضِ لعلامةٌ تدلُّ على قُدرةِ اللهِ تعالى على البعثِ ، وعلى مَن يشاءُ من الخسفِ بهم ، لكلِّ عبدٍ أنابَ إلى الله ورجعَ إلى طاعتهِ وتأمَّلَ ما خلقَ. قال الحسنُ : (الْمُنِيْبُ : الرَّاجِعُ إِلَى اللهِ تَعَالَى بقَلْبِهِ وَقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ ، فَإِذا نَوَى نَوَى للهِ ، وَإِذا قَالَ قَالَ للهِ ، وَإِذا عَمِلَ عَمِلَ للهِ).

(٠/٠)

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً } ؛ يعني النبوةَ والكتابَ والْمُلكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ } ؛ أي سَبحِي معهُ إذا سَبَّحَ ، فكان داودُ عليه السلام إذا سَبَّحَ سَبَّحَتِ الجبالُ معه حتى يُسمَعَ صوتُ تسبيحِها. وقُرئَ (أُوْبِي مَعَهُ) أي عُودِي في التَّسبيحِ معه كلَّما عادَ فيهِ.

وقال القُتَيْبِيُّ : (أَصْلُهُ مِنَ التَّأْوِيْب ، وَهُوَ السَّيْرُ باللَّيْلِ كُلِّهِ ، كَأَنَّهُ أَرَادَ ادْنِي النَّهَارَ كُلَّهُ بالتَّسْبِيْحِ مَعَهُ). وَقِيْلَ : تسيرُ معه كيفَ شاءَ.

وقوله (وَالطَّيْرَ) ، قرأ العامةُ بالنصب ، وله وجوهٌ ؛ أحدُها : بالفعلِ ؛ تقديرهُ : وسخَّرنَا له الطيرَ ، تقول : أطعَمتهُ طَعَاماً ومَاءً أي وسَقيتهُ ماءً. والثاني : بالنِّداءِ ، يعني بالعطفِ على موضعِ النداء ، لأنَّ موضعَ كلَّ مُنادَى النصبُ. والثالث : بنَزعِ الخافضِ ، كأنه قالَ : أوِّبي مَعَهُ الطَّيرَ ، كما يقالُ : لو تركتَ الناقةَ وفصِيلَها لرَضَعَها ؛ أي مع فصِيلها. وقرأ يعقوبُ (والطَّيْرُ) بالرفعِ عَطفاً على الجبالِ. وَقِيْلَ : على الابتداءِ ، قال الشاعرُ : ألاَ يَا زَيْدُ وَالضَّحَاكُ سِيرَا فَقَدْ جَاوَزْتُمَا خَمَرَ الطَّرِيْقِيُروى هذا البيتُ بنصب (الضَّحَّاكَ) ورفعِهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ } ؛ أي جعلنَا له الحديدَ لَيِّناً يضربهُ كيفَ شاءَ من غيرِ نارٍ ولا مِطرَقَةٍ ، وكان عندَهُ مثلُ الشَّمعِ والطينِ المسلول والعَجِينِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ } ؛ أي قُلنا له اعْمَلْ دُرُوعاً واسعاتٍ تامَّاتٍ يجرُّها لابسُها على الأرضِ ، فكان داودُ عليه السلام أوَّلُ مَن عَمِلَ الدُّروعَ ، والسَّابغُ : هو الذي يغطِّي كلَّ ما على الرجُلِ حتى يفضُلَ ، فكان داودُ يبيعُ كلَّ درعٍ بأربعَةِ آلاَفٍ ، فيأكلُ ويُطعِمُ عيَالَهُ ويتصدَّقُ على الفُقَرَاءِ والمساكينِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ } ؛ أي اجْعَلْ حِلَقَ الدِّرعِ متتابعةً مُتناسقةً بعضُها إلى بعضٍ على مقدارٍ مَعلُومٍ لا يتفاوتُ على وجهٍ ، ولا تنفذُ فيه السِّهامُ ولا السِّنانُ. يقال : سَرَدَ الكلامَ يسرِدُهُ إذا ذكَرَهُ بالتأليفِ على وجه تحصلُ به الفائدةُ ، ومِن هذا يقالُ لصانعِ الدُّروعِ : سَرَّادٌ وَزَرَّادٌ. والسُّرُودُ والزُّرُدُ للوَصْلِ.

وقال بعضُهم : السَّرْدُ سَمْرُكَ طَرَفَي الْحَلَقِ ؛ أي لا تَجعَلِ المساميرَ دِقَاقاً فتنغلقَ ، ولا غِلاَظاً فتكسرَ الحلَقُ ، واجعَلْ ذلك على قَدْر الحاجةِ. والقولُ الأولُ أقربُ إلى الآيةِ ، لأن الدروعَ التي عمِلَها داودُ كانت بغيرِ المساميرِ ؛ لأنه كانت معجزةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاعْمَلُواْ صَالِحاً } ؛ أي قالَ اللهُ لآلِ داودَ : اعْمَلُوا صَالِحاً فيما بينَكم وبينَ ربكُم ، { إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } ؛ من شُكرٍ وطاعةٍ.

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ } ؛ أي وسَخَّرنَا لسليمانَ الرِّيحَ كانت تحملُ سَرِيرَهُ فتذهبُ في الغُدُوِّ مسيرةَ شَهرٍ ، وترجعُ في الرَّواحِ مسيرةَ شَهرٍ.
قال الفرَّاءُ : (نُصِبَ (الرِّيحَ) عَلَى الْمَفْعُولِ ؛ أيْ وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيْحَ). وقرأ عاصمُ (الرِّيْحُ) بالرفعِ على معنى : ولَهُ تسخيرُ الرِّيحُ ، والمعنى أنَّ الريحَ كانت تسيرُ في اليومِ مسيرةَ شَهرَينِ للرَّاكب الْمُسرعِ.
قَولُهُ تَعَالَى : { وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ } ؛ أي أذبْنَا له عَينَ النُّحاسِ ، فسَالَتْ له ثلاثةَ أيَّامٍ كما يسيلُ الماءُ ، وإنَّما انتفعَ الناسُ بما أخرجَ اللهُ لسُليمانَ ، وكان قبلَ سُليمان لا يذوبُ. والقِطْرُ هو الرَّصَاصُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ } ؛ أي وسخَّرنا له من الجنِّ { مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ } مِنَ القُصُور والبُنيانِ ، { بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا } ؛ أي مَن يَمِلْ من الشَّياطينِ عن أمرِنا الذي أمَرْناهُ من الطاعةِ لسُليمانَ ، { نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ } ؛ أي مِن عذاب النَّار الموقَدَةِ. وَقِيْلَ : إنَّ اللهَ تعالى وَكَّلَ مَلَكاً بيدهِ سوطٌ من نارٍ ، فمَن زَاغَ منهم مِن طاعةِ سُليمانَ ضَرَبَهُ ضربةً أحرقَتْهُ.

(٠/٠)

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ } ؛ أي يعملونَ لسُليمانَ ما يشاءُ { مِن مَّحَارِيبَ } أي مَسَاجِدَ ، كان هو والمؤمنونَ يُصَلُّونَ فيها. ويقالُ : أراد بالْمَحَاريب الغُرَفَ والمواضعَ الشريفةَ ، يقالُ لأشرفِ موضعٍ في الدار مِحْرَابٌ ، والْمِحْرَابُ مُقَدَّمُ كلِّ مسجدٍ ومجلس وبيتٍ.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَمَاثِيلَ } أي تَماثيلَ كلِّ شيءٍ ، يعني صُوَراً من نُحاسٍ وزُجاجٍ ورُخامٍ ، كانت الجنُّ تعمَلُها ، وكانوا يصوِّرُون له الأنبياءَ والملائكةَ في المسجدِ ليَرَاهَا الناسُ فيزدادوا عبادةً ، وهذا يدلُّ على أن التصويرَ كان مُباحاً في ذلكَ الزمانِ ، ثُم صارَ حَرَاماً في شَريعةِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم كما رُوي في الحديثِ : " إنَّ الْمَلاَئِكَةَ لاَ تَدْخُلُ بَيْتاً فِيْهِ صُورَةٌ " ورُوِيَ : " لَعَنَ اللهُ الْمُصَوِّرِيْنَ بمَا صَوَّرُواْ ".
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ } ؛ الْجِفَانُ جمع جُفْنَةٍ وهي القَصْعَةُ الكبيرةُ من الصُّفْرِ. وقَوْلُهُ { كَالْجَوَابِ } أي كالحِيَاضِ العِظَامِ ، فهي كحِيَاضِ الإبلِ ، والْجَوَابُ جمعُ الْجَابيَةِ ، وسُمِّيَ الحوضُ

جَابِيَةً ؛ لأنه يَجْبي الماءَ ؛ أي يَجمعهُ ، والجِبَايَةُ جمعُ الماءِ. يقالُ : إنه كان يجتمعُ على جَفْنَةٍ واحدةٍ ألفُ رجُلٍ يأكلون بين يديهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ } ؛ أي ثابتاتٌ عِظَامٍ من الْحَجَرِ كالجبالِ لا تُرْفَعُ مِن أماكِنها ، ولكن يوقدُ تحتَها حتى ينطَبخَ ما فيها من الأطعمةِ فيأكلُ منها الأُلُوفُ ، وكانت هذه الأعمالُ التي يعملونَها معجزةً لسُليمانَ عليه السلام.

وقَولُهُ تَعَالَى : { اعْمَلُواْ آلَ دَاوُودَ شُكْراً } ؛ أي قُلنا لَهم : اعمَلُوا بطاعةِ اللهِ شُكْراً لَهُ على هذه النِّعَمِ التي مَنَّ بها عليكُم. وَقِيْلَ : انتصبَ قوله (شُكْراً) على المصدريَّة. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } ؛ أي قليلٌ مِن عبادِي مَن يَشْكُرُ لِي ؛ لأن الشَّاكِرِينَ وَإنْ كَثُرُوا فقَليلٌ في جَنْب مَن لَم يشكُرْ.

(٠/٠)

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ } ؛ وذلك أنَّ سُليمانَ عليه السلام كان يعتادُ طُولَ القيامِ في الصَّلاة ، وكان إذا أعْيَا اتَّكَأَ على عَصاهُ ، فاتَّكَأَ ذاتَ يومٍ على عصاهُ ، فقَبَضَ اللهُ رُوحَهُ ، فبَقِيَ على تلكَ الحالةِ سَنَةً ، والعَمَلَةُ في أعمَالِهم يعملونَ كما هم ولَم يَجتَرِئ أحدٌ أن يَدْنُو منه هيبةً لَهُ.

وقوله { مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ } دابَّةُ الأرضِ هي الأَرْضَةُ التي تأكلُ الخشبَ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى { مِنسَأَتَهُ } أي عصاهُ التي كان يَتَّكِئُ علَيها.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ } ؛ أي فلمَّا سَقَطَ سليمانُ لتَآكُلِ الْمِنْسَأَةِ ، تَبَيَّنَ الجِنُّ للإنسِ ؛ أي ظَهَرُوا أنَّهم لا يعلمونَ الغيبَ ، فلو عَلِمُوا ما عَمِلُوا له سَنَةً وهو ميِّتٌ ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا لَبِثُواْ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ } أي في العذاب مِن أعمالِهم الشاقَّة التي كانوا يعملونَها في بناءِ بيتِ المقدس وغيرِهِ ، فلمَّا عَلِمُوا بموتهِ لسُقوطِ العصَا تَرَكُوا الأعمالَ.

ثُم أن الشياطينَ قالوا للأَرْضَةِ : لو كُنْتِ تأكلينَ الطَّعامَ لآتيناكِ بأطيَب الطعامِ ، ولو كُنْتِ تشرَبينَ الشرابَ لآتيناكِ بأطيب الشراب ، ولَكِنَّا سننقلُ إليكِ الطينَ والماءَ ، فهُمْ ينقلونَ إليها ذلك حيث كانَتْ ، فما رأيتموهُ من الطِّينِ في جَوفِ الخشب فهو مما ينقلهُ الشياطينُ إليها شُكراً لَها!

وسُميتِ العصا مِنْسَأَةً لأنه يَنْسَأُ بها الغنمُ وغيرهُ ؛ أي يؤَخِّرُ ويطردُ ، يقال : أنْسَأَ اللهُ في أجَلِهِ ؛ أي أخَّرَ اللهُ في أجَلِهِ. وأكثرُ القرَّاء يقرأون (مِنْسَأَتَهُ) بالهمزةِ ، وقرأ أبو عمرٍو ونافع بتركِ الهمزةِ ، وهما لُغتَانِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى { أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ } أي ظَهَرَ أمرُهم. وَقِيْلَ : في موضع النصب تقديرهُ : عَلِمَتْ وأيْقَنَتِ الجنُّ { أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ } ، وكان الإنسُ قَبْلَ هذا يظنُّونَ أن الشَّياطينَ يعلمونَ السِّرَّ يكون بين اثنَينِ ، فظَهَرَ لَهم يومئذٍ أنَّهم لا يعلمونَ ذلكَ.

قال أهلُ التّاريخِ : كان عُمْرُ سليمانَ ثلاثاً وخمسينَ سَنةً ، ومدَّة مُلكهِ أربعون سَنةً ، ومَلَكَ يومَ مَلَكَ وهو ابنُ ثلاثَ عشرةَ سَنةً ، وابتدأ في بناءِ بيت المقدسِ لأربعِ سِنين مَضَينَ من مُلكهِ ، وكان عُمْرُ داودَ مائة وأربعون سنة.

(٠/٠)

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ } ؛ قال فروةُ بن مُسَيكٍ : " أتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَسَأَلْتُهُ عَنْ سَبَأ مَا هُوَ ؟ فَقَالَ : " رَجُلٌ مِنَ الْعَرَب أوْلَدَ عَشْرَةَ أوْلاَدٍ ، تَيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ ، وَتَشَامَّ مِنْهُمْ أرْبَعَةٌ. فَأَمَّا الَّذِيْنَ تَيَامَنُواْ فَالأَزْدُ وَكِنْدَةُ وَحِمْيَرُ وَمُذْحَجُ وَالأَشْعَرِيُّونَ وَإِنْمَارُ وَمِنْهُمْ بَجِيْلَةُ. وَأَمَّا الَّذِيْنَ شَامُوا فعَامِلَةُ وَغَسَّانُ وَلَخْمٌ وَجُذامُ " والمرادُ بسَبَأ القبيلةُ الذين هُم مِن أولادِ سَبَأ بنِ يَشْجُبَ بنِ يَعْرُبَ بن قَحطَانَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فِي مَسْكَنِهِمْ } أنه كانت مساكِنُهم بمَأْرَبَ مِن اليَمَنِ (آيَةً) أي علامةً يدلُّ على قُدرةِ اللهِ وأنَّ الْمُنْعِمَ عليهم هو اللهُ تعالى. ثُم فسَّر تلكَ الآيةِ فقالَ : { جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ } ؛ أي عَن يَمين وَادِيهم وشِمالهِ قد أحاطَتَا بذلك الوادِي الذي بين مسَاكِنهم.

والمعنى لقد كان لأهلِ سَبَأَ في مواضِعِهم علامةٌ ، وهي جَنَّتَانِ ؛ أي بُستَانَانِ ؛ إحدَاهُما عن يَمينِ الطريقِ ، وأُخرَى عن يسار الطَّريقِ ، ويقالُ : كان بُستَانَين عن يَمين الطريقِ وبُستانَين عن شِمال الطريقِ ، إلاّ أنَّ البَساتينَ كلَّ واحدٍ مِن الجانبين سُمي جَنَّةً لاتِّصالِ بعضِها ببعضٍ ، وكانوا في النِّعمةِ بحيثُ كانتِ المرأةُ تَمشِي في تلك الطريقِ بين البساتينِ وعلى رأسِها الزَّنبيلُ فيمتلئُ من ألوانِ الفاكهةِ مِن غيرِ أن تَمَسَّ شيئاً بيدِها.

قرأ حمزةُ والنخعيُّ وحفص (فِي مَسْكَنِهِمْ) بفتحِ الكاف على الواحدِ ، وقرأ الأعمشُ والكسائي وخلَف : (مَسْكِنَهُمْ) بكسر الكاف على الواحد أيضاً ، وقرأ الباقون : (مَسَاكِنِهِمْ) على الجمعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ } ؛ أي قيلَ لَهم : (كُلُوا مِنْ رِزْقِ ربَكُمْ) يعني هذه النِّعَمَ ، { وَاشْكُرُواْ لَهُ } ؛ أي للهِ على نعمةِ هذه ، وهذا حدُّ الكلامِ ، ثُم ابتدأ فقال : { بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ } ؛ أي هذه بلدةٌ طيبة أو لكُم بلدةٌ طيبة ، يعني ليست بسَبْخَةٍ ، ولَم يكن يُرَى بعوضةٌ قَطُّ ، ولا ذُبابٌ ولا بَرغُوثٌ ولا حيَّةٌ ولا عقربٌ ، وأنَّ الرجلَ الغريبَ ليأتِيَها وفي ثوبِهِ القملُ والدوابُّ ، فحين يرَى بُيوتَهم تَموتُ الدوابُ والقملُ. والمعنى : بلدةٌ طيِّبةُ الهواءِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَبٌّ غَفُورٌ } ؛ أي غفورُ الخطَايَا ، كثيرُ العطايَا.

(٠/٠)

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ } ؛ أي فأعرَضُوا عن الحقِّ وكفَرُوا وكذبُوا أنبيائَهم ، ولَم يشكرُوا نِعَمَ اللهِ ، وقالوا : لا نعرفُ لله تعالى نِعْمَةً علينا! وقالوا لأنبياءهم : قولُوا لربكم الذي يَزعمُونَ أنه مُنْعِمٌ فليحبسْ عنَّا نِعَمَهُ إنِ استطاعَ!

قال وهبُ : (بَعَثَ اللهُ تَعَالَى إلَى سَبَأ ثَلاَثَةَ عَشَرَ نَبيّاً ، فَدَعَوْهُمْ إلَى اللهِ وَذكَّرُوهُمْ نِعَمَهُ ، وَخَوَّفُوهُمْ عِقَابَهُ ، فَكَذبُوهُمْ وَقَالُواْ : مَا نَعْرِفُ للهِ عَلَيْنَا نِعْمَةً).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ } ، قال ابنُ الأعرابيِّ : (الْعَرِمُ : السَّيْلُ الَّذِي لاَ يُطَاقُ) ، وقال مقاتلُ : (الْعَرِمُ وَادِي سَبَأ). وَقِيْلَ : العَرِمُ : المطرُ الشديدُ الذي يأتِي منه سَيْلٌ لا يطاقُ دَفْعُهُ ، وعَرْمَةُ الماءِ ذهَابُهُ في كلِّ مذهبٍ.

وَقِيْلَ : العَرِمُ هو الفَأرُ الذي نَقَبَ السدَّ عليهم ، وصِفَةُ ذلكَ : أن الماءَ كان يأتِي أرضَ سَبَأ مِنَ الشَّجرِ وأوديةِ اليَمَنِ ، فَرَدَمُوا رَدْماً بين جَبلَين وحبَسُوا الماءَ في ذلك الرَّدْمِ ، وجعَلُوا لذلكَ الرَّدمِ ثلاثةَ أبوابٍ بعضُها فوق بعضٍ ، وكانوا يَسْقُونَ مِن الباب الأعلى ، ثُم مِن الباب الثاني ، ثم مِن الباب الأسفَلِ ، فلا ينفذُ الماءُ حتى يأتِي ماءُ السَّنة الثانيةِ ، فأخصَبُوا وكَثُرَتْ أموالُهم. فلمَّا كذبُوا الرُّسُلَ بعثَ اللهُ عليهم جِرْذاً نقبَ ذلك الرَّدْمَ ، فاندفعَ الماءُ عليهم وعلى جنَّتَيهِم ، فدَفَنَ السَّيلُ بُيوتَهم وأغرقَ جنَّتَيهِم وخرَّبَ أراضَيهِم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ } ؛ أي بدَّلنَاهم بالجنَّتَين اللَّتين أهلكنَاهما جنَّتين ، { ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ } ؛ الأُكُلُ : اسمٌ لِمَا يؤكَلُ. والْخَمْطُ : شَجَرُ الأرَاكِ ، ويقالُ : الْخَمْطُ كلُّ نَبْتٍ قد أخذ طَعْماً مِن مرارةٍ حتى لا يُمكنُ أكلهُ. وَقِيْلَ : هو شجرٌ ذاتُ شَوكٍ.

قرأ أبو عمرٍو ويعقوبُ (أُكُلِ خَمْطٍ) بالإضافةِ ، وقرأ الباقون (أُكُلٍ) بالتَّنوينِ ، وهما مُتقاربان في المعنى.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَثْلٍ } ؛ الأثْلُ : ما عَظُمَ من شَجَرِ الطَّرْفَاءِ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ } ؛ والسِّدْرُ إذا كان بَرِّيّاً لا يُنتفَعُ به ولا يصلحُ ورَقُهُ للغُسُولِ ، كما يكونُ ورَقُ السِّدر الذي نَبَتَ على الماءِ. ومعنى قَوْلِهِ تَعَالَى { وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ } يعني أن الْخَمْطَ وَالأَثْلَ كان أكثرَ في الجنَّتين المبدَّلَتين من السِّدر. قال قتادةُ : (كَانَ شَجَرُ الْقَوْمِ مِنْ خَيْرِ الشَّجَرِ ، فَبَدَّلَهُ اللهُ مِنْ شَرِّ الشَّجَرِ بأعْمَالِهِمْ) ، والسِّدْرُ هو شجرُ النَّبْقِ.

(٠/٠)

ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَالِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُواْ } ؛ أي جَزَيناهُمْ ذلك التَّبديلِ والتَّخريب بكُفْرِهم بنِعَمِ اللهِ تعالَى ، { وَهَلْ نُجَازِي } ؛ بمثل هذه العقوبةِ وتعجيلِ سَلْب النِّعمةِ ، { إِلاَّ الْكَفُورَ } ؛ أي الكافِرَ المعَانِدَ ، وَقِيْلَ : معناهُ : إنَّ المؤمنَ نُكَفِّرُ عنه ذُنوبَهُ بطاعاتِهِ ، والكافرُ يُجازَى على كلِّ سوءٍ يعملهُ.
وقال الفرَّاءُ : (الْمُؤْمِنُ يُجْزَى وَلاَ يُجَازَى) أيْ يُجْزَى الثَّوَابَ بعَمَلِهِ ، وَلاَ يُكَافَؤُ بسَيِّئَاتِهِ.
قرأ أهلُ الكوفةِ : (نُجَازِي) بالنُّونِ وكسرِ الزَّاي. ونُصِبَ (الكَفُورَ) لقولهِ (جَزَيْنَاهُمْ) ولَم يقل جُوزُوا ، وقرأ الآخرونَ (يُجَازِيُ) بياءٍ مضمومة ورفعِ (الْكَفُورُ).
وقَوْلُهُ تَعَالَى { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ } مَن قرأ بالنصب فهو اسمُ قبيلةٍ ، فلِهَذا لَم ينصرِفْ ، ومَن نَوَّنَهُ وخفضَهُ فهو اسمٌ لرَجُلٍ.

(٠/٠)

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً } أي جعَلنا بين أهلِ سَبَأ وبين قُرَى الأرضِ التي بارَكْنا فيها وهي الأرضُ المقدَّسة بارَكنا فيها بالماءِ والشَّجرِ ، يعني قُرَى الشَّامِ ومصر ،

وقوله { قُرًى ظَاهِرَةً } أي قرى متقاربةً متَّصِلةً ، إذا خرجَ الرجلُ من واحدةٍ من القُرَى ظهرَتْ له الأُخرى ، فكانوا لا يحتاجُونَ في سَيْرِهم إلى الشَّامِ إلى زادٍ ، وكانت المرأةُ تخرجُ ومعَها مِغْزَلُهَا ، وعلى رأسِها مِكْتَلُهَا ، ثُم تَغْزِلُ ساعةً فلا ترجعُ بيتَها حتى يَمتَلِئ مكْتَلُها من الثِّمار ، وكان ما بين الشَّام وأرضِ سبأ على تلكَ الصفةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ } ؛ أي جعلنا القُرَى مُوَاصَلةً بقدر السَّير المتَّصلِ على قدر الْمَقِيْلِ والمبيتِ مِن قريةٍ إلى قرية ، أنعَمْنا عليهم في مَسِيرِهم كما أنعَمْنا عليهم في مسَاكِنِهم ، فقُلنَا لَهم : { سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً } ؛ إنْ شِئْتُم باللَّيالِي وإنْ شِئتُمْ بالأيَّامِ ، { آمِنِينَ } ؛ مِن الظُّلمِ والجوعِ والعطشِ وعن جميع ما يُخَافُ في الطريقِ.

ومعنَى الآيةِ : { وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ } من القريةِ إلى القريةِ مِقْدَاراً واحداً ، نِصْفَ يَوْمٍ ، وقُلنا لَهم : { سِيرُواْ فِيهَا } في تِلكَ القُرَى ، { لَيَالِيَ وَأَيَّاماً } ؛ لِيْلاً شِئتُمْ السيرَ أو نَهاراً { آمِنِينَ } من الجوعِ والعطَشِ والسِّباعِ والتَّعب ومِن كلِّ خوفٍ.

ثم إنَّهم بطَرُوا النعمةَ ، وسألُوا أن تكونَ القُرَى والمنازلَ بعضُها أبعدَ من بعضٍ ، { فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا } ؛ أي اجعَلْ بيننا وبين الشَّامِ فَلَوَاتٍ وَمَفَاوِزَ لنَرْكَبَ عليها الرَّواحِلَ ونَتَزَوَّدَ الأَزْوَادَ ، ذلك أنَّهم قالوا لو كانَتْ ثِمارُنا أبعدَ مما هي لكان أجدرَ أن نشتَهِيَها ، فاجعَلْ بين منازلنا وبين مقصَدِنا الْمَفَاوِزَ.

ويقالُ : كانت هذه المسألةُ من تُجَّارُهم ليربَحُوا في أموالِهم.

قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو (بَعِّدْ) على وجهِ الدُّعاء. وقرأ ابنُ الحنفيَّة ويعقوب (رَبُّنَا) برفعِ الباء (بَاعَدَ) بألفٍ وفتح العينِ والدلالةِ على الخبر ، استبعَدُوا أسفارَهم بَطَراً منهم وأشَراً. وقرأ الباقونَ (رَبَّنَا) بفتح الباء و(بَاعِدْ) بالألفِ وكسرِ العين وجزمِ الدَّالِ على الدُّعاء. وقد قُرِئَ (بَعُدَ) بضمِّ العين و(بَيْنُ) بالرفع ؛ أي بَعُدَ مَا يتَّصِلُ بسفَرِنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ } ؛ يعني بتَرْكِ الشُّكرِ والطاعةِ ، وَقِيْلَ : بالكُفرِ ، { فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ } ؛ لِمَن بعدَهم يتحدَّثون بأمرِهم وشأنِهم ، ولَم يبقَ منهم ولا مِن ديارهم أثرٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ } ؛ أي فرَّقنَاهم في البلادِ المختلفة كلَّ تفريقٍ ، وذلك أنَّهم شُرِّدُوا في البلادِ ، وصَارُوا بحيث يتمثلُ بهم العربُ يقولون : تفرَّقَ القومُ أيدِي سَبَأَ وأيَادِي سَبَأ.

قال الشعبيُّ : (أمَّا غَسَّانُ فَلَحِقُواْ بالشَّامِ ، وَأمَّا الأَنْصَارُ فَلَحِقُواْ بيَثْرِبَ ، وَأمَّا خُزَاعَةُ فَلَحِقُواْ بتُهَامَةَ ، وَأمَّا الأَزْدُ فَلَحِقُواْ بعُمَانَ) وَكَانَتْ غَسَّانُ مُلُوكَ الشَّامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ } ؛ أي فيما فُعِلَ بسَبأ { لآيَاتٍ } ؛ لَعِبَرٍ ودلالاتٍ { لِّكُلِّ صَبَّارٍ } ، عن معاصِي اللهِ ، { شَكُورٍ } ؛ لأَنْعُمِهِ.

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ قرأ أهلُ الكوفةِ (صَدَّقَ) بالتشديدِ ؛ أي ظنَّ فيهم ظَنّاً حيثُ قال : { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ }[ص : ٨٢]{ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ }[الأعراف : ١٧] فصدَّقَ ظنَّهُ وحقَّقهُ بفعلهِ ذلك واتِّباعِهم إيَّاه. وقرأ الآخَرونَ (صَدَقَ) بالتخفيفِ ؛ أي صَدَقَ عليهم في ظَنِّهِ بهم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى { عَلَيْهِمْ } أي على أهلِ سَبأ ، وقال مجاهدُ : عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ إلاَّ مَنْ أطَاعَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ { فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ } وهمُ الَّذين قَالَ اللهُ تَعَالَى فيهم{ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ }[الاسراء : ٦٥].

وَقِيْلَ : إن إبليسَ لَمَّا وَسْوَسَ إلى آدمَ وعمِلتْ فيه وَسْوَسَتُهُ ، طَمِعَ في ذرِّيته ؛ فقال : إنَّهُ مع فضلهِ وعقْلهِ ، وعَمِلَتْ فيه وسْوَسَتِي ؛ فكيفَ لا تعملُ في ذرِّيتهِ ؟ فأخبرَ اللهُ في هذه الآيةِ : أنَّ القومَ اتبعُوهُ فصدَّقُوا ظَنَّهُ ، إلاَّ طائفةً مِن المؤمنينَ لَم يتَّبعوهُ في شيءٍ.

وَقِيْلَ : إنَّ ابليسَ لَمَّا سألَ النَّظِرَةَ فأَنْظَرَهُ اللهُ تعالى قال : لأَضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلأُمَوِّهَنَّهُمْ ، ولَم يكن في وقتِ هذه المقالةِ مُستَيقِناً ، وإنَّما قالَ ظَنّاً منهُ ، فلما اتَّبَعُوهُ وأطاعوهُ صَدَقَ عليهم ما ظَنَّهُ فيهم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ } ؛ أي ما كانَ لأبليسَ عليهم من حُجَّةٍ ولا نَفَاذِ أمْرٍ إلاّ بالتَّزيين والوَسْوَسَةِ. وقَوْلُهُ : { إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ } ؛ أي ما كان تُسْلِيْطُنَا إياه عليهم إلاّ لنعلمَ المؤمنينَ مِن الشاكرين.

والمعنى : ما سَلَّطْنَاهُ عليهم إلاّ لنعلمَ إيْمانَ المؤمنِ ظَاهراً وكُفْرَ الكافرِ ظَاهِراً ، وقد يذكرُ العلمُ ويراد به الإظهارُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ } ؛ أي عالِمٌ بكلِّ شيء مِن الإيْمَانِ وشَكٍّ وغيرِ ذلك.

(٠/٠)

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ

} ؛ أي قُل لكُفَّار مكَّة : أدعُوا الَّذينَ زَعمتُم أنَّهم آلهةٌ مِن دون اللهِ ، قال مقاتلُ : (أيِ ادْعُوهُمْ لِيَكْشِفُواْ عَنْكُمُ الضَّرَرَ الَّذِي نَزَلَ بكُمْ فِي سِنِيْنِ الْجُوعِ).

وَقِيْلَ : معناهُ : ادْعُوا الذين زَعمتُم أنَّهم آلهةٌ لكم لكي يرزُقوكم ويدفَعُوا عنكم الشدائدَ ، ثُم إنَّهم لا يَملكون مِثْقَالَ ذرَّةٍ ؛ أي لَم يخلِقُوا زنَةَ ذرَّة في السَّموات ولا في الأرضِ ، فمِن أينَ يستَحقُّون العبادةَ؟!

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ } ؛ أي ما لَهم في السَّموات والأرضِ مِنْ شِرْكٍ في خَلْقِهما ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ } ؛ أي وما اللهُ تعالى منهم من مُعِينٍ فيما خَلَقَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } ؛ أي ولا تنفعُ شفاعةُ مَلَكٍ مقرَّبٍ ولا نَبيٍّ ولا أحدٍ حتى يأْذنَ اللهُ له في الشَّفاعةِ. وهذا تكذيبٌ مِن الله لَهم حيثُ قالُوا : هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ.

قرأ أبو عَمرٍو وحمزةُ والكسائي وخلف (أُذِنَ) بضمِّ الألفِ ، وقرأ غيرُهم بالفتحِ ، فمَن فَتَحَ كان المعنى لِمَن أذِنَ اللهُ له في الشَّفاعةِ ، وكذلك مَن قرأ بالضمِّ لأنَّ الآذِنَ هو اللهُ تعالى في القِراءَتين جميعاً.

(٠/٠)

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } ؛ قرأ ابنُ عامرٍ ويعقوب : (فَزَّعَ) بفتح الفاء والزاي ، وقرأ غيرُهما بضمِّ الفاءِ وكسرِ الزاي. والمعنى : حتى إذا كُشِفَ الفزعُ والجزَعُ عن قلوبهم. ومَن قرأ بالفتحِ فالمعنى : حتَّى إذا كَشَفَ اللهُ الفزعَ عن قلوبهم.

واختلَفُوا في هذه الكتابةِ والموصُوفِين بهذه الصِّفةِ ، مَن هم ؟ ومَن النَّصَب الذي مِن أجلهِ فَزَّعَ عن قلوبهم ؟ فقال قومٌ : همُ الملائكةُ. واختلَفُوا في سبب ذلك ، فقال بعضُهم : إنَّما فَزَّعَ عن قلوبهم مِن غَشْيَةٍ تصيبُهم عند سَماعِ كلامِ الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال عبدُالله بنُ مسعودٍ : (إذا تَكَلَّمَ اللهُ تَعَالَى بالْوَحْيِ ، سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ صَلْصَلَةً مِثْلَ صَلْصَلَةِ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفْوَانِ ، فَيُصْعَقُونَ لِذلِكَ وَيَخُرُّونَ سُجَّداً ، فَإذا عَلِمُوا أَنَّهُ وَحْيٌ فَزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ فَتُرَدُّ إِلَيهِمْ ، فَيُنَادِي أَهْلُ السَّمَواتِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً : (ماذا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ).

وعن رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنهُ قال : " إنَّ اللهَ تَعَالَى إذا تَكَلَّمَ بالْوَحْيِ ، سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَا ، فيُصْعَقُونَ فَلاَ يَزَالُونَ كَذلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيْلُ ، فَيَقُولُونَ لَهُ : مَاذا قَالَ رَبُّكَ ؟ قَالَ : يَقُولُ الْحَقَّ ".

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " إذا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي

السَّمَاءِ ، ضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضُوعاً لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ ، فَإِذا فَزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ، قَالُواْ : مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُواْ : الْحَقَّ ".

وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا تَكَلَّمَ اللهُ بالْوَحْيِ ، أخَذتِ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً أوْ رَعْدَةً شَدِيْدَةً خَوْفاً مِنَ اللهِ تَعَالَى ، فَإذا سَمِعَ ذلِكَ أهْلُ السَّمَـَوَاتِ صُعِقُواْ وَخَرُّواْ سُجَّداً ، فَيَكُونُ أوَّلُ مَنْ رَفَعَ رَأسَهُ جِبْرِيْلُ عليه السلام ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بمَا أرَادَ ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيْلُ بالْمَلاَئِكَةِ ، فَكُلَّمَا مَرَّ بسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلاَئِكَتُهَا : مَاذا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيْلُ ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيْلُ : قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيْرُ ، فَيَقُولُ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيْلُ ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيْلُ بالْوَحْيِ حَيْثُ أمَرَ اللهُ ".

وقال مقاتلُ والكلبيُّ : (لَمَّا كَانَتِ الْفَتْرَةُ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم خَمْسُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ عَاماً ، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم كَلَّمَ اللهُ تَعَالَى جِبْرِيْلَ بالرِّسَالَةِ إلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، فَسَمِعَتِ الْمَلاَئِكَةُ الصَّوْتَ بالْوَحْيِ ، فَظَنُّواْ أنَّهَا الْقِيَامَةُ قَامَتْ ، فَصُعِقُواْ مِمَّا سَمِعُواْ ، فَلَمَّا انْحَدَرَ جِبْرِيْلُ بالرِّسَالَةِ ، جَعَلَ أهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ يَسْأَلُونَهُ عَلَى وَجْهِ التَّعَرُّفِ بَعْدَ مَا انْكَشَفَ الْفَزَعُ عَنْ قُلُوبِهِمْ ، قَالُواْ : مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالَ جِبْرِيْلُ وَمَنْ مَعَهُ : قَالَ الْحَقَّ).

وَقِيْلَ : لَمَّا سَمعَتِ الملائكةُ الوحيَ صُعِقُوا فَخَرُّوا سُجَّداً ظَانِّينَ أنَّها القيامةُ ، فلما نَزَلَ جبريلُ بالوحيِ انكشَفَ فزَعُهم فرَفَعُوا رُؤوسَهم ، وقال بعضُهم لبعضٍ : (مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُواْ الْحَقَّ) يعنِي الوحيَ { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } أي الغالبُ القاهر السيِّدُ المطاعُ الكبيرُ العظيم ، فلا شيءَ أعظمَ منهُ.

وقرأ الحسنُ (حَتَّى إذا فَزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) بالعَينِ المعجمةِ والزَّاي بمعنى فَزِعَتْ قلوبُهم من الفزَعِ ، وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ قولَهُ { حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ } راجعٌ إلى المشركِينَ ، فإنَّهم إذا شاهَدُوا أهوالَ يومِ القيامةِ غَشِيَ عليهم ، فيُزِيلُ اللهُ ذلك عن قلوبهم ، ثُم تقولُ لَهم الملائكةُ : مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ في الدُّنيا والآخرةِ ؟ فيقولونَ : الْحَقَّ ، فأَقَرُّوا حين لا ينفعُهم الإقرارُ.

(٠/٠)

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ } ؛ أي قُل يا مُحَمَّد لكُفَّار مكَّة : مَن يرزُقكم من السَّمواتِ المطرَ ، ومِن الأرضِ النباتَ والثمرَ ؟ وإنَّما أمرَ بهذا السُّؤالِ احتِجَاجاً عليهم ؛ لأنَّ الذي يرزقُ هو المستحقُّ للعبادةِ لا غيره ، وذلك أنه إذا استفهَمَهم عن الرِّزقِ لَم يُمكِنُهم أن يُبَيِّنُوا رَازقاً غيرَ اللهِ ، فيتحيَّرُوا في الجواب فيُؤمَرُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالجواب ، فيقولُ لَهم : إنَّ الذي يرزقُكم هو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وتَمَّ الكلامُ.

ثُم أمَرَ بأنْ يُخبرَهم أنَّهم على الضَّلالِ بعبادةِ غيرِ الله تعالى بقولهِ تعالى : { وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } ؛ وهذا على وجهِ الإنصَافِ في الحجَّة لاستمالةِ قُلوبهم ، كما يقولُ القائلُ من المسَارعِين : أحَدُنا كاذبٌ ؛ وهو يعلمُ أنَّهُ صادقٌ وصاحبهُ كاذبٌ.
والمعنى : مَا نحنُ وأنتم إلاَّ على أمرٍ واحدٍ ؛ أحدُ الفريقَين مهتَدٍ والآخرُ ضَالٌّ ، فالنبيُّ صلى الله عليه وسلم ومَنِ اتَّبَعَهُ على الْهُدَى ، ومَن خالفَهُ في ضَلالٍ مُبينٍ.

(٠/٠)

قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } أي قُل يا مُحَمَّدُ للكفَّار لا تُؤاخَذُونَ بجُرمِنا ، ولا نؤاخَذُ بجُرمِكُم ، فانظُرُوا لأنفُسِكم واعلَمُوا أنَّ حِرصَنا على إيْمانِكم لا ينفعُكم ، وهذا على وجهِ التَّبَرُّؤ منهُم ومِن كُفرِهم.

(٠/٠)

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا } ؛ يعني بَعْدَ الْبَعْثِ في الآخرةِ فِي الْمَحشَرِ ، { ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ } ؛ أي ثُم يقضِي بينَنا ويحكُمَ بيننا بالعدلِ ، { وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ } ؛ أي وهو القاضِي العليم بما يقضِي.

(٠/٠)

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَآءَ كَلاَّ } ؛ أي قُل لَهم أرُونِي الَّذينَ أَلْحَقْتُمُوهُمْ بالله تعالَى

وجعلتمُوهم شركاءَ اللهِ في العبادةِ ؛ هل لَهم قدرةٌ على الْخَلْقِ والأمرِ ، وهل يرزُقون ويخلُقون ؟ وقَوْلُهُ تَعَالَى { كَلاَّ } كلمة رَدْعٍ وزَجْرٍ ؛ أي ارتَدِعُوا عن مقالَتِكم وانْزَجِرُوا ؛ فإنَّكم لا تَقدِرُونَ أن تجعَلُوا للهِ شُركاءَ ، { بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ؛ أي المنيعُ الغالِبُ لكلِّ شيءٍ ، الْحَكِيْمُ في تدبيرِهِ لخلقِه ، فأنَّى يكونُ له شريكٌ في مُلْكِهِ. وَقِيْلَ : معناهُ : قل أرُوني الذين ألحقتُموهم باللهِ في العبادة شُركاءَ هل يَرزُقونَ ويَخلُقون ؟ كَلاَّ ؛ لا يرزُقون ولا يخلُقون ، بل الذي يخلُقُ ويرزقُ هو اللهُ العزيز في مُلكهِ ، الحكيمُ في أمرِهِ.

(٠/٠)

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً } ؛ أي ما أرسلنَاكَ يا مُحَمَّدُ إلاّ للناس كافَّة أي كلَّهم ، أحمَرِهم وأسوَدِهم. وَقِيْلَ : معناهُ : إلاَّ مَانِعاً للناسِ من الكُفرِ والضَّلالِ ، والكفُّ على هذا هو المنعُ. وأُدخِلَتِ الهاءُ ها هُنا للمبالغةِ كالرِّوايةِ والعلامةِ ، (بَشِيراً) بالخيرِ لِمَن أطاعَ الله ، (وَنَذِيراً) أي ومُخَوِّفاً بالنار لِمَن كَفَرَ باللهِ ، { وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ يعني كُفَّارَ مكَّة لا يتدبَّرُون القُرْآنَ ، فلو تدَبَّرُوا لعَلِمُوا.

(٠/٠)

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَقُولُونَ مَتَى هَاذَا الْوَعْدُ } ؛ أي يقولُ الكفَّارُ : مَتَى هَذا الْوَعْدُ الذي تُخوِّفُونا به مِن البعثِ والعذاب ، { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } ؛ فِي مَقالَتِكم ، { قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ } ؛ أي قُل لِبَعثِكُم وعَذابكم ميقاتُ يَوْمٍ لا يؤخَّرُ عن وقتِ الوَعْدِ ولا يُقَدَّمُ وهو يومُ القيامةِ.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَاذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } ؛ أي قالَ الكفَّارُ : لن نؤمِنَ بصِدْقِ هذا القُرْآنِ ولا بالَّذي بينَ يديهِ من أمرِ الآخرةِ ، والنشأةُ الثانية.

وَقِيْلَ : معنَى { وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } يعنُونَ التَّوراةَ والإنجيلَ ، وذلك : أنَّهُ لَمَّا قالَ مؤمِنُوا أهلِ الكتاب : إنَّ صِفَةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم في كِتَابنا وهو نبيٌّ مبعوثٌ ، كَفَرَ أهلُ مكَّةَ بكِتَابهم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ } ؛ أي ولو ترَى يا مُحَمَّدُ مُشركي مكَّة مَحبُوسُونَ في الْمَحْشَرِ للحِسَاب يومَ القيامةِ ، يتجَاوَبونَ فيما بينهم يرُدُّ بعضُهم على بعضٍ القولَ في الجدالِ ، ويحمِلُ كلُّ واحدٍ منهُم الذنبَ على صاحبهِ ، فيقولُ الأتبَاعُ لرُؤسَائِهم : { لَوْلاَ أَنتُمْ } ؛ ودعَاؤُكم إيَّانا إلى الكُفرِ ، { لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ } ؛ كغيرِنا ، بل أنتُم منعتُمونا وصدَدتُمونا عنِ الإيْمانِ.

فأجَابَهم رؤسَاؤُهم على وجهِ الإنكار : { قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ أَنَحْنُ صَدَدنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ } باختياركم الكُفرَ على الإيْمانِ.

فقالَ الأتباعُ للرُّؤسَاءِ : { وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ الَّيلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً } ؛ قال الأخفشُ : (اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لاَ يَمْكُرَانِ بأَحَدٍ ، وَلَكِنْ يُمْكَرُ فِيْهِمَا ، وَهَذا كَقَوْلِهِ{ مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ }[محمد : ١٣] وَهَذا مِنْ سَعَةِ الْعَرَبِيَّةِ).

والمعنى : بل مَكْرُكم بنَا في الليلِ والنهار إذ تأمُرونَنا ، وكذلك يقالُ : فلانٌ نَهارُ صائمٍ وليلهُ قائمٌ ، وقال الشَّاعرُ : (مَا لَيْلُ الْمطِي بنَائِمِ). ومثلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ }[محمد : ٢١]. وَقِيْلَ : مكرُ اللَّيلِ والنهار بهم طولُ السَّلامةِ فيهما ، كقولهِ{ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ }[الحديد : ١٦].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ } ؛ أي أضْمَرُوها في أنفسِهم ؛ لأن موضعَ النَّدامَةِ القلبُ. وَقِيْلَ : أظهَرُوها فيما بينهم ، أقبلَ بعضُهم يَلُومُ بَعْضاً ، ويعرضُ بعضُهم بعضاً الندامةَ ، وهذا مِن ألفاظِ الأضدَادِ ، يقالُ : أسَرَّ إذا كَتَمَ ، وأسَرَّ إذا أظهَرَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ أي غُلَّتْ أيْمَانُهم إلى أعناقِهم ، { هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ من الشِّركِ في الدُّنيا.

(٠/٠)

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ } ؛ أي ما أرسَلنَا في أهلِ قريَةٍ مِن رسولٍ إلاَّ قال رؤَساؤُها وأعيَانُها وأُولُو النِّعمَةِ فيها : { إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ } ؛ مِن الإيْمانِ والتَّوحيدِ ، { كَافِرُونَ * وَقَالُواْ } ؛ للرُّسُلِ : { نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً } ؛ فكان فُضِّلْنَا عليكم في الدُّنيا لن نُعَذبَ بذُنوبنا في الآخرةِ! افتخَرَ مُشركُوا مكَّة على رسولِ الله والمؤمنينَ بأموَالِهم وأولادِهم ، وظَنُّوا أنَّ اللهَ إنَّما خوَّلَهم المالَ والولدَ كرامةً لَهم عندَهُ ، فقالوا { وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } ؛ أي إنَّ اللهَ أحسَنَ إلَيْنا بالمالِ والولدِ فلا يعذِّبُنا!

فقَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبيِّهِ عليه السلام : { قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ } ؛ يعني أنَّ بَسْطَ الرزقِ وتضييقِهِ مِن الله تعالى بفعلِهِ إبتلاءً وامتحاناً ، ولا يدلُّ البسطُ على رضَا اللهِ تعالى ، ولا التضييقُ على سَخَطِهِ ، { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ يعني أهلَ مكَّة لا يعلمونَ حين ظَنُّوا أنَّ أموالَهم وأولادَهم دليلٌ على كرامةِ اللهِ لَهم.

(٠/٠)

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ } ؛ أي ليست كَثْرَةُ أموَالِكم ولا أولادِكم بِ الخصلَةِ { بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى } ؛ أي بالتي تُقرِّبُكم إلى الثواب والكرامة قُرْبَةً. وَقِيْلَ : معناهُ : بالَّتي تقرِّبُكم عندَنا قُربَى. قال الأخفشُ : (زُلْفَى : اسْمُ الْمَصْدَر ؛ كَأَنَّهُ أرَادَ : بالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا تَقْرِيْباً). { إِلاَّ مَنْ آمَنَ

وَعَمِلَ صَالِحاً } ؛ بصرفِ المال في وجُوهِ الخيرِ ، وبصرفِ الأولاد في طاعةِ الله تعالى. وَقِيْلَ : معناهُ : إلاَّ مَن آمَنَ وعَمِلَ صَالحاً فإنَّ إيْمَانَهُ وعملَهُ يقرِّبُه منِّي.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأُوْلَـائِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ } ؛ أي لَهم الجزاءُ الْمُضَاعَفُ على حسَنَاتِهم بالحسَنةِ الواحدةِ عشراً ، { وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ } ؛ الجنَّة ، { آمِنُونَ } ؛ مِن كلِّ آفَةٍ ومَكروهٍ. والغُرْفَةُ : هي البيوتُ فوقَ الأبنية.
قرأ حمزةُ (وَهُمْ فِي الْغُرْفَةِ) على الواحدةِ ، لقوله{ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ }[الفرقان : ٧٥] ، وقرأ الباقون (فِي الْغُرُفَاتِ) على الجمعِ ، لقوله{ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ }[العنكبوت : ٥٨] ، وقرأ يعقوبُ (فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءَ) بالنصب مُنَوَّناً (الضِّعْفُ) بالرفع تقديرهُ : فأولئكَ لَهم الضعفُ جَزاءً على التقديرِ والتأخيرِ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ } ؛ أي يَسْعَوْنَ في دَلائلِ التوحيدِ والنبوَّة مُعَانِدِيْنَ ، يحسَبُون أنَّهم يَفُوتُونَنَا ويُعجِزُوننا ، { أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ } ؛ أي مَحبُوسُونَ.

(٠/٠)

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ } ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَنفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ } ؛ أي ما أنفقتُم من مالٍ في غير إسْرافٍ ولا تَقتِيرٍ فهو يُخلِفُهُ في الدُّنيا بالعِوَضِ ، وفي الآخرةِ بالحسَناتِ والدَّرجَاتِ.
وقَوْلُهُ تَعَالَى { فَهُوَ يُخْلِفُهُ } لكم أو علَيكم ، يقالُ : أخلَفَ اللهُ لَهُ وعليهِ ؛ إذا أبدلَ اللهُ لَهُ ما ذهبَ عنهُ ، وعن رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَالَ : " مَنْ فَقِهَ الْمُرَادَ فَقِهَ فِي مَعِيْشَتِهِ ".
وقال الكلبيُّ : (مَعْنَاهُ : وَمَا أَنْفَقْتُمْ فِي الْخَيْرِ وَالْبِرِّ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، إمَّا أنْ يُعَجِّلَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإمَّا أنْ يُدَّخَرَ لَهُ فِي الآخِرَةِ). وعن سعيدِ بن بشَّار قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيْهِ

إلاَّ وَمَلَكَانِ أحَدُهُمَا يَقُولُ : اللَّهُمَّ أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً ، وَيَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً " وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } ؛ أي وهو خيرُ الْمُخْلِفِيْنَ ، وإنَّما خَيْرُ الرَّازِقِينَ لأنه قَدْ يُقالُ : رزَقَ السُّلطانُ الْجُنْدَ.

(٠/٠)

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً } ؛ يعني المشركين ، { ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَاؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ } ؛ هذا استفهامُ تَوبيخٍ للعَابدين كقوله تعالَى لعيسَى : { أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ }[المائدة : ١١٦]. فنَزَّهَتِ الملائكةُ ربَّهُم عن الشِّرك و { قَالُواْ سُبْحَانَكَ } ؛ تَنْزِيْهاً لكَ مما أضَافُوا إليكَ مِن الشُّركاء ، { أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ } ؛ أي ما اتَّخذنَاهم عَابدين ، ولا تولَّينَاهم ولسْنَا نريدُ غيرَكَ وَلِيّاً ، وأنتَ العالِمُ بأمورنا وافتِرَائِهم علينا ، كنَّا نُواليكَ ولا نُواليهم ، { بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ } ، أي أطَاعُوا الشيَّاطينَ في عِبادَتِهم إيَّانا ؛ لأن الشياطينَ كانت دعوتُهم إلى ذلكَ ، فكان أكثرُهم بالشَّياطين مؤمنينَ.

(٠/٠)

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَالْيَوْمَ لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً } ؛ أي يقالُ لَهم : اليومُ لا يَقْدِرُ بعضُكم لبعضٍ جَرَّ نفعٍ ولا دَفْعَ ضُرٍّ ، { وَنَقُولُ } ، خَزَنَهُ النار بأمرِ الله ، { لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ } في الدُّنيا.

(٠/٠)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ } ؛ معناهُ : إذا يُقْرَأُ على أهلِ مكَّة آياتِنا وهي القُرْآنُ واضحات الْحُجَجِ ، { قَالُواْ مَا هَاذَا } ؛ يعنون مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم { إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَاذَآ إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى } ، وقالُوا : ما هَذا الذي أتَانا به إلاّ كذبٌ مُفتَرَى ؟ يعنُونَ القُرْآنَ ، { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ } ؛ وهو القُرْآنُ : مَا هَذا القُرْآنُ ؟ { إِنْ هَاذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ }.

(٠/٠)

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِّن نَّذِيرٍ } ؛ أي ما آتَينا أهلَ مكَّة مِن كُتُبٍ يقرَؤُنَها. والمعنى : مِن أين كذبُوكَ ، ولَم يأتِهم كتابٌ ولا نذير بهذا الذي فعلوهُ ، وما أرسلنا إليهم قَبْلَكَ يا مُحَمَّد مِن رسولٍ.
ثُم خوَّفَهم وأخبرَ عن عاقبةِ مَن كذبَ قبلَهم فقال : { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِمْ } ؛ يعني أمم كافرة ، { وَمَا بَلَغُواْ } ؛ يعني أهلَ مكَّة ، { مِعْشَارَ مَآ آتَيْنَاهُمْ } ؛ أي ما بَلَغَ هؤلاءِ الذين أُرسِلْتَ إليهم عُشْرَ ما أُوتِيَ الأممُ قبلَهم من القوَّة والعُدَّة ، { فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } ؛ فَانْظُرْ كيفَ كان إنْكَاري عليهم وتَعذِيبي لَهم ، أليَسُوا مُهلَكِين بالعذاب إذ لَم يُؤمِنُوا به مِعْشَارَ. والعُشْرُ والعَشِيرُ جزءٌ من عشرةٍ.
قال ابنُ عبَّاس : (الْمَعْنَى : وَمَا بَلَغَ قَوْمُكَ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَكَثْرَةِ الْمَالِ وَطُولِ الْعُمُرِ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ).

(٠/٠)

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ } ؛ أي آمُرُكم وأُوصِيكُم بخِصْلَةٍ واحدةٍ ، وهي : { أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى } ؛ أي تقُومُوا للهِ اثنَين اثنَين وواحداً واحداً ، { ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ } , فيُناظِرُوا ويذكِّرُوا في أمرِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، هَل تَرَوْنَ في فعلهِ وقَولهِ ودُعائهِ إلى توحيدِ الله ما يكونُ مِن كلامِ الْمَجانِين وأفعَالِهم ، وهُو كَلامُ عالِمٍ حازِمٍ ؟ قال مقاتلُ : (وَالْمَعْنَى : ألاَ يَتَفَكَّرُ مِنْكُمْ وَاحِدٌ وَمَعَ صَاحِبِهِ يَنْظُرُوا أنَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ دَلِيْلٌ عَلَى أنَّ خَالِقَهَا وَاحِدٌ لاَ شَرِيْكَ لَهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ } ؛ وذلكَ أنَّ المشركينَ قالُوا : إنَّ مُحَمَّداً ساحرٌ مجنونٌ! فقال اللهُ تعالى : { مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ } وما صَاحِبُكم بمجنُونٍ ، فعلَى هذا المعنى يكونُ قولهُ { مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ } ابتداءُ كلامٍ مِن اللهِ تعالى ، ويجوزُ أن يكونَ المعنى : ثُم تتفكَّرُوا فتعلَمُوا بُطلاَن قولِكم في نِسْبَتِهِ إلى الجنونِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ } ؛ أي ما هُو إلاَّ رسولٌ مُخَوِّفٌ ، { بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } ؛ أي بينَ يدَي القيامةِ لكي تُخَلِّصُوا أنفُسَكم من عذاب اللهِ بالتَّلافِي والتَّوبةِ.

(٠/٠)

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّن أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ } ؛ معناهُ : قُل لَهم يا مُحَمَّد : ما سألْتُكم على تبليغِ الرِّسالة أجْراً فتتَّهمُونِي ، وقَوْلُهُ تَعَالَى { فَهُوَ لَكُمْ } هذا الرجلُ يقول لغيرِهِ : ما أعطَيتَنِي فخُذْهُ ، يريدُ بذلك لَم يُعْطِهِ شيئاً ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ } ؛ أي ما ثَوابي إلاَّ على اللهِ ، { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ } ؛ مِن أعمالِ العِبَادِ { شَهِيدٌ }.

(٠/٠)

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ } ؛ القَذْفُ : هو الرَّمْيُ بألْسِنَتِهم والحصَى والكلامِ ، قال الكلبيُّ : (فَمَعْنَى الآيَةِ : قُلْ إنَّهُ يَأْتِي بالْحَقِّ ؛ أيْ يَتَكَلَّمُ بالْوَحْيِ وَهُوَ الْقُرْآنُ يُلْقِيْهِ إلَى

نَبيِّهِ عليه السلام). والمعنَى : قُل إنَّ رَبي يُنْزِلُ الوحيَ مِن السَّماء فَيَقْذِفُهُ ويُلقيهِ إلى الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { عَلاَّمُ الْغُيُوبِ } ظاهرُ المعنَى.

(٠/٠)

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ جَآءَ الْحَقُّ } ؛ يعني الإيْمَانَ والقُرْآنَ ؛ أي ظَهَرَ الإسلامُ والقُرْآنُ ، { وَمَا يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ } ؛ معناهُ : ذهبَ الباطلُ وزَهِقَ ، فلم يَبْقَ له بَقِيَّةٌ يُبدِئُ بها ولا يعيدُ. قال الحسنُ : (الْبَاطِلُ : كُلُّ مَعْبُودٍ سِوَى اللهِ ، فَإنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ سِوَى اللهِ لاَ يُبْدِئُ لأَهْلِهِ خَيْراً فِي الدُّنْيَا ، وَلاَ يُعِيْدُ بخَيْرِهِ فِي الآخِرَةِ). فقال قتادةُ : (الْبَاطِلُ إبْلِيْسُ ؛ أيْ مَا يَخْلُقُ إبْلِيْسُ أَحَداً وَلاَ يَبْعَثُهُ).
ويجوزُ أن يكون هذا اسْتِفْهَاماً ، كأنَّهُ قالَ : وأيُّ شيءٍ يُبدِئُ الباطلُ ؟ وأيُّ شيء يعيدهُ ؟ وعنِ ابنِ مسعودٍ قال : " دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَكَّةَ وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَماً ، فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بعُودٍ مَعَهُ وَيَقُولُ : " جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ، جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيْدُ " أيْ ذهبَ الباطلُ بحيثُ لا يبقَى له بقيَّة ، لا إقبالٌ ولا إدبارٌ ولا إبداءٌ ولا إعادة كما قَالَ تَعَالَى{ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ }[الأنبياء : ١٨]. ويقالُ : فلانٌ ظهرَتْ عليه الحجَّة ، فما يُبدِئُ وما يعيدُ ، ومَا يحل وما يَمرُّ.

(٠/٠)

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي } ؛ وذلك أنَّ كفارَ مكَّة قالوا للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : لقد ضَلَلْتَ حين تركتَ دِين آبائِكَ! فَقَالَ اللهُ تَعَالَى { قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي } أي ضَرَرُ ذلكَ راجعٌ إلى نفسِي ، { وَإِنِ اهْتَدَيْتُ } ؛ إلى الحقِّ ، { فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي } ؛ من القُرْآنِ والبَيانِ ، { إِنَّهُ سَمِيعٌ } ؛ لكلِّ ما يقولهُ الْخَلْقُ من حقٍّ وباطلٍ ، { قَرِيبٌ } ؛ مِنِّي ، لا تخفَى عليه خافيةٌ.

(٠/٠)

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُواْ فَلاَ فَوْتَ } ؛ ولو ترَى يا مُحَمَّدُ الكفَّار ، يعنِي عندَ البعثِ ، فلا يُمكِنُهم الفَوْتُ ولا الْهَرَبُ مِن ما هو نازلٌ بهم ، لرأيتَ ما يُعْتَبَرُ به غايةَ الاعتبار. ومعنى الآيةِ : { وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُواْ } عند البعثِ فلا يَفُوتُونَنِي ؛ أي لاَ يَفُوتُنِي أحدٌ ولا ينجُوا منِّي ظالِمٌ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ } ؛ يعنِي من القُبُور حيثُ كانوا ، فَهُمْ مِن اللهِ قريبٌ لا يبعُدونَ عنه ولا يَفُوتُونَهُ. تعني هذه الآيةِ ؛ قال بعضُهم : أرادَ بقولهِ { إِذْ فَزِعُواْ فَلاَ فَوْتَ } مما أصَابَهم يومَ بدرٍ عند القتالِ. وقال بعضُهم : أرادَ به يومَ القيامةِ إذ فَزِعُوا مِن مُشاهدَةِ عذاب جهنَّم ، وعلِمُوا أنَّهم لا يفُوتُونَ للهَ ، وأُخِذُوا بالعذاب مِن مكانٍ قريبٍ إلى جهنَّم فقُذِفُوا فيها.

{ وَقَالُواْ } ، عندَ رُؤيَةِ العذاب : { آمَنَّا بِهِ } ، أي آمَنَّا باللهِ تعالَى وبرسُولهِ ، يقولُ اللهُ تعالى : { وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ } ؛ أي أينَ لَهم تَنَاوُلُ ما أرادُوا بُلُوغَهُ مِن مكانٍ بعيد ، يعني مِن الآخرةِ وقد تركوهُ في الدُّنيا ؟ يعني أنَّهم قد تَعَذرَ عليهم تناولُ الإيْمانِ كما يتعذرُ على الإنسانِ تناوُلُ النُّجومِ.

والتَّنَاوُشُ هو التَّنَاوُلُ ، نِشْتُهُ أنُوشُهُ نَوْشاً ، إذا تَنَاوَلَهُ ، كأنَّهُ قالَ : وأنَّى لَهُمُ التوبةُ. وَقِيْلَ : ما يتَمَنَّوْنَ. قال ابنُ عبَّاس : (يَتَمَنَّوْنَ الرَّدَّ حِيْنَ لاَ رَدَّ).

قرأ أبُو عمرٍو والأعمشُ وحمزة والكسائيُّ وخلف : (التَّنَاؤُشُ) بالمدِّ والهمزةِ ، وهو الإبطاءُ والبُعْدُ ؛ أي مِن أينَ لَهم أن يتحرَّكُوا فيما لا حيلةَ لَهم فيهِ. يقالُ : أنَشْتُ الشَّيءَ ؛ إذا أخذتهُ مِن بعيدٍ ، والنَّيْشُ : الشيءُ البطيءُ. وقرأ الباقونَ بغيرِ همزةٍ من التَّناوُلِ ، يقالُ : نِشْتُهُ إذا تناوَلتهُ ، وَتَنَاوَشَ القومُ في الحرب إذا تدَانَوا وتناولَ بعضُهم بعضاً.

واختارَ أبو عُبيد تركَ الهمزِ ؛ لأنه قالَ : (مَعْنَاهُ مِنَ التَّنَاوُلِ ، فَإذا هُمِزَ كَانَ مَعْنَاهُ الْبُعْدُ فكيف يقول : { وَأَنَّى لَهُمُ } البُعْدُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيْدٍ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ } يعني أنَّهم يريدونَ أنْ يتناوَلُوا التوبةَ ، وقد صَارُوا في الآخرةِ ، وإنَّما تُقْبَلُ التوبةُ " في الدنيا " وقد ذهبَتِ الدُّنيا فصارت بعيداً مِن الآخرةِ.

(٠/٠)

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ مِن قَبْلُ } ؛ أي كانوا كَافِرِينَ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقُرْآنِ في الدُّنيا قبلَ ما عايَنُوا مِن العذاب وأهوالِ القيامةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ } ؛ أي يَنْسِبُونَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم إلى السِّحرِ والجنونِ والكَهَانَةِ رَجْماً منهم بالغَيْب والقذفِ. والرَّجْمُ بالغَيْب : أن يَلْفِظَ الإنسانُ شَيئاً لاَ يَتَحَقَّقُ ، ومنه سُمِّي الرميُ بالفاحشةِ قَذْفاً.
ومعنى قَوْلِهِ تَعَالَى { بِالْغَيْبِ } أنْ يقذِفُون مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم بالظَّنِّ لا باليقينِ ، والغيبُ على هذا الظَّنُّ ، وهو ما غَابَ عِلمُه عنهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ } يعني بُعْدَهم عن الحقِّ. وقال قتادةُ : (مَعْنَى { وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ } يَقُولُونَ : لاَ بَعْثَ وَلاَ جَنَّةَ وَلاَ نَارَ).

(٠/٠)

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ } : أي حِيْلَ بين هؤلاءِ الكفَّار وبين الرَّجعةِ إلى الدُّنيا ، وقال الحسنُ : (مَعْنَاهُ : حِيْلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الإيْمَانِ وَالتَّوْبَةِ) ، { كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم } ؛ أي كما فُعِلَ بنُظَرَائِهم أو أشيَاعِهم ، ومَن كان على مِثْلِ حالِهم من الكفَّار ، { مِّن قَبْلُ } ، أي قَبْلَ هؤلاءِ ، { إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ } ؛ مِن البعثِ ونُزولِ العذاب بهم ، { مُّرِيبٍ } ، أي ظاهرِ الشَّكِّ.
وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " مَنْ قَرَأَ سُورَةَ سَبَأَ لَمْ يَبْقَ رَسُولٌ وَلاَ نَبيٌّ إلاَّ كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَفِيْقَاً وَمُصَافِحاً ".

(٠/٠)

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)

{ الْحَمْدُ للَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي خالِقُهما ، مُبتَدِئاً من غيرِ مثالٍ سبقَ ، قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (مَا كُنْتُ أعْرِفُ مَا مَعْنَى فَاطِرِ حَتَّى اخْتَصَمَ إلَيَّ أعْرَابِيَّانِ فِي بِئْرٍ ، فَقَالَ أحَدُهُمَا : أنَا فَطَرْتُهَا ؛ أيْ بَدَأتُهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً } ؛ قال بعضُهم : أرادَ به بالملائكةَ كلَّهم ، فإنَّهم كلُّهم رسُلُ اللهِ بعضُهم إلى بعضٍ وبعضُهم إلى الإنسِ ، وقالَ بعضُهم : أرادَ بذلك جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ وملَكُ الموتِ والحفَظَةَ ، يرسلُهم إلى النبيِّين وإلى ما شاءَ من الأُمور.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلِي أَجْنِحَةٍ } ؛ صفةُ الملائكةِ أي ذوي أجنحةٍ ، { مَّثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ } ، منهم مَن له جَناحَان ، ومنهم مَن له ثلاثةٌ ، ومنهم من له أربعةٌ ، اختارَهم اللهُ تعالى لرِسالَتِهِ من حيث عَلِمَ أنَّهم لا يُبدِّلون.

وقولهُ تعالى : { يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ } ؛ أي يزيدُ في أجنحةِ الملائكة ما يشاءُ ، فمِنهُم من له مائةُ ألفِ جَناحٍ ، ومنهم من له أكثرُ ، وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ؛ قال : " رَأى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم جِبْرِيلَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ ".

وعن ابنِ شِهَابٍ قال : " سَأَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يَتَرَاءَى لَهُ فِي صُورتِهِ ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ : إنَّكَ لَنْ تُطِيقَ ذلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : " إنِّي أُحِبُّ أنْ تَفْعَلَ " فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلَى الْمُصَلَّى فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فِي صُورتِهِ ، فَغَشِيَ عَلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم حِينَ رَآهُ ، ثُمَّ أفَاقَ وَجِبْرِيلُ مُسْنِدُهُ إلَيْهِ وَاضِعٌ إحْدَى يَدَيْهِ عَلَى صَدْرِهِ وَالأُخْرَى بَيْنَ كَتِفَيْهِ. فَقَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : " سُبْحَانَ اللهِ مَا كُنْتُ أرَى شَيْئاً مِنَ الْخَلْقِ هَكَذا " فَقَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام : كَيْفَ لَوْ رَأيْتَ إسْرَافِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! لَهُ اثْنَا عَشَرَ جَنَاحاً ، جَنَاحٌ بالْمَشْرِقِ وَجَنَاحٌ بالْمَغْرِب وَالْعَرْضُ عَلَى كَاهِلِهِ ".

وعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قالَ : (إنَّ للهِ تَعَالَى مَلَكاً يَسَعُ الْبحَارَ كُلُّهَا فِي نَقْرَةِ إبْهَامِهِ). وَقِيْلَ : معنى قولهِ { يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ } يعني حُسنَ الصَّوتِ ، كذلك قال الزهريُّ ، وقال قتادةُ : (هِيَ الْمَلاَحَةُ فِي الْعَيْنَيْنِ وَالشَّعْرِ الْحَسَنِ وَالْوَجْهِ الْحَسَنِ وَالْخَطِّ الْحَسَنِ).

وقولهُ تعالى { وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ } في موضعِ خفضٍ ؛ لأنه لا يتصرَّفُ. وقولهُ تعالى : { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ؛ أي قادرٌ على ما يزيدُ على الزيادةِ والنُّقصانِ.

(٠/٠)

مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا } ؛ أي ما يُرسِلِ اللهُ إلى الناسِ من رسُولٍ فلا مانعَ له ، وذلك لأن إرسالَ الرسُولِ من اللهِ تعالى رحمةٌ لعبادهِ كما قالَ تعالى : { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }[الأنبياء : ١٠٧].

وَقِيْلَ : أرادَ بالرحمةِ ها هنا المطرَ والرزقَ والعافية وجميعَ النِّعَمِ ، ما يفتحِ اللهُ من ذلك فلا مانعَ له ، ولا يستطيعُ أحدٌ من الخلقِ حبسَهُ ولا إمساكَهُ ، وقولهُ تعالى : { وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ } ؛ أي وما يُمسِكِ اللهُ من ذلك فلا يقدِرُ أحدٌ على إرسالهِ ، { وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ؛ أي العزيزُ فيما أمسكَ ، الحكيمُ فيما أرسلَ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } ؛ يعني أهلَ مكَّة اذكرُوا نعمةَ الله عليكم إذ أسكنَكم الحرَمَ ومنعَكم من الغاراتِ ، { هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ } ؛ هذا استفهامٌ ، ومعناهُ التوبيخ ؛ أي لا خالقَ سواهُ. وقولهُ تعالى : { يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ } ؛ أي مِن السَّماءِ بإنزالِ المطر ومِن الأرض بإخراجِ النبات ، { لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } ؛ أي فأنَّى تُصرَفون عن الإلهِ الذي هذه صفتهُ إلى معبودٍ لا يقدرُ على شيءٍ.

(٠/٠)

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ } ؛ في هذه الآيةِ تسليةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم لئلاَّ يجزعَ على تكذيب قومه ، ويصبرُ كما صَبَرَ على تكذيب الأمُمِ الرسلُ ، { وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ } ؛ عواقبُ { الأُمُورُ } ؛ في مجازاةِ المكذِّبين ونُصرَةِ المسلمين.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } ؛ معناهُ إن الذي وعدَهُ اللهُ المجازاةَ والبعثَ بعد الموتِ حقٌّ كائن ، { فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } ؛ بزِينَتِها وزَهرتِها حتى تشتَغِلوا بها عن أمرِ دينكم ، { وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ } ؛ أي ولا يستزِلَّكم عن طاعةِ الله الشيطانُ الذي مِن عادته الغرورُ. وقرأ ابنُ سماك العدويّ : (الْغُرُورُ) بضمِّ الغينِ ، وهو أباطيلُ الدنيا ، وأما (الْغَرُورُ) بفتح الغينِ فيه ، الشَّيطانُ.

(٠/٠)

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً } ؛ أي احترِزُوا من كَيدِهِ ، ولا تقبلُوا منه وتطيعوهُ ، { إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ } ؛ أي أهلَ طاعتِهِ ليكون معه ، { لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } ؛ أي ليَسُوقَهم إلى النار ، { الَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ }.

(٠/٠)

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً } ؛ نَزَلْنَ في أبي جهلٍ ومُشركي مكَّة. وَقِيْلَ : نزلت في أصحاب الأهوَاءِ والمِلَلِ التي خالَفت الْهُدَى ، والمعنى : أفمَن زُيِّنَ له سوءُ عملهِ فرآهُ حسناً كمَن هداهُ الله ، ويدلُّ على هذا المحذوفِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ }.
قولهُ : { فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ } ؛ أي لا تَغْتَمَّ ، ولا تُهلِكْ نفسَكَ عليهم حَسَرَاتٍ على تركِهم الإسلامَ ، { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } ؛ في كُفرِهم فيجازيهم بما هو أولى بهم ، قرأ أبو جعفر (فَلاَ تُذْهِبْ) بضم التاء وكسر الهاء ، نصب السِّين.

(٠/٠)

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً } ؛ معناهُ : اللهُ الذي أرسلَ الرياحَ لإثارةِ السَّحاب ، { فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ } ، فأجريناه الى بلد ميت ليس فيه نبات ولا شجر ، { فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } ، فأحيَا " الله " بالمطرِ الأرضَ بإخراجِ الزَّرعِ والأشجار منها بعدَ يُبسِها وذهاب النباتِ منها ، { كَذَلِكَ النُّشُورُ } ؛ كذلك البعثُ في القيامةِ.

وهذا احتجاجٌ على مُنكرِي البعثِ ، فإن موتَهم كموتِ الأرض ، وذهابَ أثَرِهم كذهاب أثرِ الأشجار والزُّروعِ ، والقادرُ على إخراجِ الأشجار والزروعِ من الأرضِ قادرٌ على إخراجِ الموتَى من الأرضِ.

ومعنى الآية : { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً } أي تُزعِجهُ من حيث هو { فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ } أي مكانٍ ليس فيه نباتٌ { فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } أي أنبَتنا فيها الزرعَ والكلأَ بعدَ أن لم يكن ، { كَذَلِكَ النُّشُورُ } أي الإحياءُ والبعث.

وعن أبي رُزَينٍ العقيليِّ قالَ : " قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحيِي اللهُ الْمَوْتَى ؟ " أوَمَا مَرَرْتَ بوَادِي قَوْمِكَ مُمَحَّلاً ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ خَضِراً ؟ " قُلْتُ : بَلَى ، قَالَ : " فَكَذلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى " وَقَالَ : " كَذلِكَ النُّشُورُ " ".

(٠/٠)

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠)

قَوْلَهُ تَعَالَى : { مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً } ؛ أي مَن كان يطلبُ العزَّةَ بعبادةِ الأصنام فليطلُبْها بطاعةِ الله تعالى وطاعةِ رسوله صلى الله عليه وسلم ، العزيزُ مَن أعزَّهُ اللهُ. وذلك أنَّ الكفارَ كانوا يعبدُونَ الأصنامَ طَمَعاً في العزَّةِ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً }[مريم : ٨١]. أو قِيْلَ : معناهُ : مَن كان يريدُ أن يعلمَ العزَّةَ لِمَن هي فليعلَمْ أنَّها للهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } ؛ إلى اللهِ تصعدُ كلمةُ التوحيدِ وهو قولهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، ومعنى { إِلَيْهِ يَصْعَدُ } أي يعلمُ ذلك كما يقالُ : ارتفعَ الأمرُ إلى القاضِي والسُّلطان أي عَلِمَهُ. وَقِيْلَ :

صعودُ الكَلِمِ الطيِّب أن يُرفَعَ ذلك مَكتُوباً أو مَقبُولاً إلى حيث لا مالِكُ إلاَّ اللهُ ؛ أي إلى سَمائِهِ يصعدُ الكَلِمُ الطيِّبُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } ؛ قال الحسنُ : (مَعْنَاهُ : ذُو الْعَمَلِ الصَّالِحِ يُرْفَعُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ إِلَى اللهِ تَعَالَى بعَرْضِ الْقَوْلِ عَلَى الْفِعْلِ ، فَإِنْ وَافَقَ الْقَوْلُ الْفِعْلَ قُبِلَ ، وَإِنْ خَالَفَ رُدَّ ، لأَنَّ الْعَبْدَ إذا وَحَّدَ اللهَ وَأَخْلَصَ فِي عَمَلِهِ ارْتَفَعَ الْعَمَلُ إِلَى اللهِ تَعَالَى). قال : (لَيْسَ الإِيْمَانُ بالتَّحَلِّي وَلاَ بالتَّمَنِّي ، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْب وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ ، مَنْ قَالَ حُسْناً وَعَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ رَدَّهُ اللهُ تَعَالَى ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً رَفَعَهُ الْعَمَلُ).

وقرأ أبو عبدِالرحمن (الْكَلاَمُ الطَّيِّبُ). وعن أبي هريرةَ عن النبيِّ صلى الله علي وسلم في قولهِ { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ } : " هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ : سُبْحَانَ اللهِ ؛ وَالْحَمْدُ للهِ ؛ وَلاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ ؛ وَاللهُ أَكْبَرُ ، إذا قَالَهَا الْعَبْدُ عَرَجَ بهَا مَلَكٌ إِلَى السَّمَاءِ ".

وَقِيْلَ : الكلامُ الطيب : لا إلهَ إلاَّ اللهُ ، والعملُ الصالِحُ : أداءُ فرائضهِ ، ومَن لا يؤدِّي فرضَهُ رُدَّ كلامهُ.

وجاءَ في الخبرِ : " طَلَبُ الْجَنَّةِ بلاَ عَمَلٍ ذنْبٌ مِنَ الذُّنُوب " ، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : " لاَ يَقْبَلُ اللهُ قَوْلاً بلاَ عَمَلٍ " ، وعلى هذا المعنَى قولُ الشاعرِ : لاَ تَرْضَ مِنْ رَجُلٍ حَلاَوَةَ قَوْلِهِ حَتَّى يُصَدِّقَ مَا يَقُولُ فَعَالُفَإذا وَزَنْتَ فَعَالَهُ بمَقَالِهِ فَتَوَازَنَا فَإِخَاءُ ذاكَ جَمَالُوقال ابنُ المقفَّع : (قَولٌ بلاَ عَمَلٍ كَثَرِيدٍ بلاَ دَسَمٍ ، وَسَحَابٍ بلاَ مَطَرٍ ، وَقَوْسٍ بلاَ وَتَرٍ). وَقِيْلَ : معناهُ : والعملُ الصالِحُ يرفعهُ اللهُ ؛ أي يَقبَلهُ.

قَوْلَهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ } ؛ أي يَفعلُونَها على وجهِ المخادَعة كما كان الكفارُ يَمكُرون بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم في دار النَّدوةِ. وَقِيْلَ : معناهُ : الذين يُشرِكون باللهِ وبعملِ السيِّئات لَهم عذابٌ شديد في الآخرةِ. وَقِيْلَ : أرادَ بقولهِ { يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ } يعمَلون عمَلاً على وجهِ الرِّياءِ.

" كما رُوي أنَّ رجُلاً قالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ فِيمَ النَّجَاةُ غَداً ؟ فَقَالَ : " لاَ تُخَادِعِ اللهَ ، فَإِنَّهُ مَنْ يُخَادِعِ اللهَ يَخْدَعُهُ وَيَخْلَعُهُ مِنَ الإِيْمَانِ ". فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ فَكَيْفَ يُخَادَعُ اللهُ ؟ فَقَالَ : " أَنْ تَعْمَلَ بمَا أَمَرَكَ اللهُ ، لاَ يُقْبَلُ مَعَ الرِّيَاءِ عَمَلٌ ، فَإِنَّ الْمُرَائِي يُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ بأَرْبَعَةِ أَسْمَاءٍ : يَا كَافِرُ ؛ يَا فَاجِرُ ؛ يَا غَادِرُ ؛ يَا خَاسِرُ ؛ ضَلَّ عَمَلُكَ " قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ } ؛ أي يفسَدُ ويهلَكُ ويكسَرُ ولا يكون شيئاً.

(٠/٠)

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ } ؛ أي خلَقَ أصلَكم وأبَاكم آدمَ من ترابٍ ، { ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ } ؛ أي ثم خلقَ نسلَ آدم من نُطفةٍ ، { ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً } ؛ يعني ذُكَراناً وإنَاثاً ، { وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى } ؛ أو تَلِدُ لتمامٍ وغيرِ تَمام ، { وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ } ؛ أي ما يَطُولُ عمُر أحدٍ ، ولا يَنقصُ من عمُرِ أحدٍ إلاَّ وهو مُثْبَتٌ في اللوحِ المحفوظ ، وقوله : { إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } ؛ أي كتابةُ الآجالِ والأعمالِ وحِفظُها من غيرِ كتابةٍ على الله هيِّنٌ.

(٠/٠)

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَاذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَاذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ } ؛ قِيْلَ : هذه مثلٌ ضربَهُ اللهُ ، يقولُ : كما لا يستوِي البحرَان أحدُهما عَذْبٌ في غايةِ العذُوبَةِ هنِيءٌ شرابهُ مَرِيءٌ ، والآخَرُ مرٌّ زُعَافٌ لا يستطاعُ شرابه ، فكذلك لا يستوِي المؤمنُ والكافر ، والتقيُّ والفاسقُ. والسائغُ : هو السالكُ في الحلْقِ. والأُجَاجُ : شديدُ الْمُلُوحَةِ. وقرأ عيسى (سَيِّغٌ شَرَابُهُ) مثل ميِّتٍ وسَيِّد.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً } ؛ أي ومِن كلِّ البحرَين تأكلُون السمكَ لا يختلفُ طَعْمُ السَّمكِ لاختلاف ماءِ البحرَين ، فكذلك قد يولَدُ للكافرِ ولدٌ مسلم مثلَ خالدِ بن الوليد وعكرمةَ بن أبي جهلٍ وغيرِهما.

وقولهُ تعالى : { وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا } ؛ قِيْلَ : أرادَ به إخراجَ اللُّؤلُؤِ والمرجان من أحدِهما خاصَّة وهو الملحُ. والمعنى : تَستَخرِجُونَ من الملحِ دون العَذْب. قِيْلَ : إن اللؤلؤَ قطرُ المطرِ يقعُ في جوفِ الصَّدَفِ فيكون منه اللؤلؤُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ } ؛ أي ترَى السفُنَ جواري في البحرِ ، قال مقاتلُ : (هُوَ أنْ تَرَى سَفِينَتَيْنِ ، أحَدُهُمَا مُقْبلَةً وَالأُخْرَى مُدْبرَةً ، وَهَذِهِ تَسْتَقْبِلُ تِلْكَ ، وَتِلْكَ تَسْتَدْبرُ هَذِهِ ، تَجْرِيَانِ بريحٍ وَاحِدَةٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ } ؛ لتَطلبُوا من رزقِهِ التجارةَ ، فتحملُ النِّعَمُ فيها من بلدٍ إلى بلدٍ ،

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ؛ أي فَعَلَ ذلك لتعلَمُوا أنَّ هذه النعَمَ من اللهِ ، ولكي تشكرونَهُ عليها.

(٠/٠)

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ.
وقولهُ تعالى : { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ } ؛ أي الذي يفعلُ هذه الأشياءَ هو اللهُ ربُّكم ، و ؛ { لَهُ الْمُلْكُ } ؛ الدائمُ الذي لا يزولُ ، { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ } ؛ من الأصنامِ ، { مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ } ؛ لا يقدِرون على أنْ ينفعُوكم بقدر قِطْمِيرٍ ، وهو القشرةُ الدَّقيقة الملتزِقَةُ بنواةِ التَّمرة كاللفَّافَةِ عليها.

(٠/٠)

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ } ؛ ولو كانُوا سَامِعين ما أجَابُوكم بإغاثةٍ ولا نُصرةٍ ، والمعنى : إنْ تدعُوهم لكشفِ ضُرٍّ لا يَسمَعُوا دعاءَكم لأنَّها جمادٌ لا تنفعُ ولا تضرُّ ، { وَلَوْ سَمِعُواْ } ؛ بأنَّ الله خَلَقَ فيهم السمعَ ، { مَا اسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ } ؛ أي يتبرَّؤُن منكم ومِن عبادِتكم كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ }[البقرة : ١٦٦] والمعنى بقولهِ : { يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ } أي يتبرَّؤن من عبادتِكم ، يقولون : ما كُنتم إيَّانا تعبُدون.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } ؛ معناهُ : لا يُخبرُكَ بحقائقِ الأمُور وعواقبها إلاَّ اللهُ ؛ لأنه عالِمٌ بكلِّ الأشياءِ ، لا يخفَى عليه منها شيءٌ ، ولا تلحقهُ المضَارُّ والمنافعُ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ } ؛ أي الْمُحتَاجُونَ إليه وإلى نِعَمِهِ ومغفرتِهِ حالاً بعد حالٍ ، { وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ } ؛ عن إيمانِكم وطاعتكم ، { الْحَمِيدُ } ؛ أي المحمودُ في أفعالِهِ عند خَلقِهِ. وإنَّما أمرَكم بطاعتِهِ لتنتَفِعوا بها لا حاجةَ به إليها ، { إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ } ؛ أي إنْ يشأ يهلككم ، { وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ } ، ويأتِ بخلقٍ أطوعَ منكم ، { وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } ؛ أي ليس إهلاكُكم وإتيانهِ بمثلِكم على اللهِ ممتنعٌ.

(٠/٠)

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠)

قوله تعالى : { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } ؛ أي لا تحملُ يومَ القيامةِ حمل حاملةٍ أُخرى ؛ أي لا تؤخذُ نفسٌ بذنب غيرِها ، { وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ } ؛ بالذُّنوب ، { إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ } ، إلى أن يُحمَلَ عنها شيءٌ من ذنوبها لا تُحمَلُ مِن ذنوبها شيءٌ ، { وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } ، ولو كانت المدعوَّةُ ذاتَ قرابةٍ من الداعيةِ لِمَا في ذلك مِن غِلَظِ حملِ الآثام ، ولو تحمَّلتْهُ لا يُقبَلُ حملها ؛ لأن كلَّ نفسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ ، فلا يؤخَذُ أحدٌ بذنب غيرِهِ.

وسُئل الحسنُ بن الفضلِ عن الجمعِ بين هذه الآيةِ وبين قولهِ{ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ }[العنكبوت : ١٣] فقالَ (قَوْلُهُ { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } يَعْنِي طَوْعاً ، وَقَوْلُهُ{ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ }[العنكبوت : ١٣] يَعْنِي كَرْهاً). قال ابنُ عبَّاس : في قولهِ { وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ } قال : (يَقُولُ الأَبُ وَالأُمُّ : يَا بُنَيَّ احْمِلْ عَنِّي ، فَيَقُولُ : حَسْبِي مَا عَلَيَّ).

قوله تعالى : { إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ } ؛ يقولُ : إنما ينتفعُ بإنذارِكَ ووَعْظِكَ الذين يُطيعون ربَّهم في السرِّ ، { وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ } ؛ المفروضةَ ، ولأن مَن خَشِيَ اللهَ واجتنبَ المعاصي في السرِّ مِن خشيةِ الله تعالى ، اجتنبَها لا محالةَ في العَلانيةِ.

ويقال : إنَّ الخشيةَ في السرِّ ، والإقدامَ على الطاعةِ في السرِّ ، واجتنابَ المعصيةِ في السرِّ ، أعظمُ

عندَ اللهِ ثواباً ، كما قالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم : " مَا تَقَرَّبَ امْرِئٌ بشَيْءٍ أفْضَلَ مِنْ سُجُودٍ خَفِيٍّ فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ " وأما عطفُ الماضِي في قولهِ تعالى { وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ } على المستقبَلِ في قولهِ { يَخْشَوْنَ } ، ففائدةُ ذلك أنَّ وجوبَ خشيةِ الله لا تختصُّ بزمانٍ دون زمانٍ ولا بمكان دون مكانٍ ، ووجوبُ إقامةِ الصَّلاة يختصُّ ببعضِ الأوقاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ } ؛ أي ومَن تطَهَّرَ من دَنَسِ الذُّنوب والشِّركِ ليكون عند ربه زَكيّاً ، فإن منفعةَ تطَهُّرِهِ راجعةٌ إلى نفسهِ ، { وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } ؛ أي إليه يرجعُ الخلق كلُّهم في الآخرةِ ، { وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ } ؛ يعني الْمُشرِكُ والمؤمنُ ، { وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ } ؛ أي ولا الشِّركُ ولا الضَّلالُ كالنور والهدى والإيمان.

(٠/٠)

وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣)

وقولهُ تعالى : { وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ } ؛ ولا الجنَّةُ ولا النارُ. وقال عطاءُ : (يَعْنِي ظِلَّ اللَّيْلِ وَسَمُومَ النَّهَار) ، { وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَآءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ } ؛ يعني المؤمنين والكافرينَ ، وهذه أمثالٌ ضربَهَا اللهُ تعالى ، كما لا تستوِي هذه الأشياءُ ، كذلك لا يستوِي الكافرُ والمؤمن.

وقولهُ تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ } ؛ أي يسمعُ كلامَهُ مَن يشاءُ ؛ أي يتَّعِظُ ويهتدِي ، قال عطاءُ : (يَعْنِي أَوْلِيَاءَهُ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ لِجَنَّتِهِ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ } ؛ أي كما لا تقدرُ تسمِعُ مَن في القبور ، فكذلكَ لا تقدرُ أن تُسمِعَ الكفارَ ، شبَّهَهم بالموتَى لأنَّهم لا ينتفَعُون كالموتَى.

وقرأ أبو رُزَين العقيليِّ (مَا أَنْتَ بمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُور) بلا تنوينٍ بالإضافة ، وقولهُ تعالى : { إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ } ؛ أي ما أنتَ إلاَّ رسولٌ تُنذِرُهم النارَ وتخوِّفُهم ، وليس عليك غيرُ ذلك.

(٠/٠)

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ } ؛ أي ما مِن أُمَّة إلاَّ سَلَفَ فيها نبيٌّ ، { وَإِن يُكَذِّبُوكَ } ؛ فلستَ بأوَّلِ رسولٍ كُذِّبَ ، { فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ } ؛ الواضحاتِ ، { وَبِالزُّبُرِ } ؛ وهِي الكتُب ، وقولهُ تعالى : { وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ } ؛ يعني التوراةَ. وَقِيْلَ : إنَّما كرَّرَ الزبورَ هي الكتُب أيضاً لاختلافِ صفات الكتاب ؛ لأن الزبورَ هو الكتابةُ الثابتة كالنَّقرَةِ في الصخرةِ ، ثم قالَ { وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ } الموصوف واحدٌ والصفات مختلفةٌ. وقولهُ تعالى : { ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ أي أخذتُهم بالعقوبةِ, { فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } ؛ أي إنكاري عليهم وتعذيبي لَهم.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً } ؛ يعني المطرَ ، { فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا } ؛ وطعمُها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ } ؛ أي وخلَقنا من الجبالِ (جُدَدٌ بيضٌ) أي طرُق يكون في الجبالِ كالعرُوقِ بيضٌ وسود وحُمْرٌ ، واحدها جُدَّة ، قال المبرِّد : (جُدَدٌ : طُرُقٌ وَخُطُوطٌ وَنَحْوُ هَذا ، وَالْجُدَدُ الْجُدَّةُ ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ كَالْمُدَّةِ وَالْمُدَدِ وَالْعُدَّةِ وَالْعُدَدِ ، وَأَمَّا الْجُدُدُ بِضَمَّتَيْنِ فَهِيَ جَمْعُ الْجَدِيدِ مِثْلُ سَرِيرٍ وَسُرُرٍ).
وقوله تعالى { وَغَرَابِيبُ سُودٌ } يجوز أن يكون الغرَابيبُ هي الجبالُ السُّود ، كأنَّه قالَ : ومن الجبالِ غرابيبُ ، والغَرَابيبُ الذي لَونهُ كَلَونِ الغُرَاب ، ولذلك حَسُنَ أن يقال سُودٌ ، وقال الفرَّاء : (هَذا عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ، تَقْدِيرُهُ : وَسُودٌ غَرَابِيبُ).

(٠/٠)

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ } ؛ كاختلافِ الثِّمار والجبالِ ، وتَمَّ الكلامُ على ، { كَذَلِكَ }.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : إنَّما يَخَافُونَ مِنْ خَلْقِي مَنْ عَلِمَ جَبَرُوتِي وَعِزَّتِي وَسُلْطَانِي) ، وقال مقاتلُ : (أشَدُّ الناسِ للهِ خِشْيَةً أعْلَمُهُمْ بِهِ) ، وقال مسروقُ : (كَفَى بخِشْيَةِ اللهِ عِلْماً ، وَكَفَى بالاغْتِرَار باللهِ جَهْلاً). قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ } ؛ أي عزيزٌ قاهر وغالبٌ في مُلكهِ ، { غَفُورٌ } ؛ لذنوب المؤمنين.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ } ؛ يعني القرآنَ في الصَّلاةِ وغيرِها ، { وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ } ؛ المفروضةَ ، { وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً } ؛ أي وأنفَقُوا مما أعطَيناهم من الأموالِ تطوُّعاً سِرّاً فيَسلَمُوا بذلك عن تُهمَةِ الرِّياءِ ، وفريضةً جَهْراً فيَسلَمُون بذلك عن تُهمةِ المنعِ ، ويقالُ أرادَ بذلك النفقةَ في الجهادِ ، { يَرْجُونَ } ؛ بذلك ، { تِجَارَةً لَّن تَبُورَ } ؛ أي لن تَكْسَدَ ولا يَرِدُ عليها الفسادُ والبُطلان.

(٠/٠)

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ } ؛ ليُعطِيَهم أجرَ أعمالِهم كاملةً ، { وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ } ؛ فوق ما يستحقُّوهُ ، قال ابنُ عبَّاس : (يَعْنِي سِوَى الثَّوَاب) ، وقولهُ تعالى : { إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ } ؛ إنه غفورٌ

لذنوبهم ، شكورٌ يعامِلُ بالأحسنِ معاملةَ الشاكرِ ، قال ابنُ عبَّاس : (غَفَرَ الْعَظِيمَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ ، وَشَكَرَ الْيَسِيرَ مِنْ أعْمَالِهِمْ).

(٠/٠)

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } ؛ أي مُوافِقاً لِمَا قبلَهُ من الكتُب ، لأن كتبَ اللهِ تعالى كلُّها دالَّة على توحيدهِ وإنِ اختلفتْ بالشرائعِ ، { إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ } ؛ أي خبيرٌ بأقوالِهم وأفعالِهم ونيَّاتِهم فيَجزِيهم بما يستحقُّون.

(٠/٠)

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } ؛ قال مقاتلُ : (يَعْنِي الْقُرْآنَ) ، وقوله تعالى : { الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } يريد أُمَّة مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.
ثم قسَّمَهم ورتَّبَهم فقالَ تعالى : { فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ } ؛ وهو الذي ماتَ على كِبْرِه ولم يَتُبْ عنها ، { وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ } ؛ وهو الذي لَمْ يُصِبْ كبيرةً ، { وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ } ؛ يعني المقرَّبين الذين سبَقُوا إلى أعمالٍ ، وقال الحسنُ : (الظَّالِمُ : الَّذِي تَرَجَّحَ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ ، وَالْمُقْتَصِدُ : الَّذِي اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ سَيِّئَاتُهُ ، وَالسَّابِقُ : مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ).
وعن عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قالَ : " سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " سَابِقُنا سَابِقٌ " أي إلى الجنَّة أو إلى رحمةِ الله تعالى بالخيراتِ ؛ أي بالأعمال الصالحة ، { بِإِذْنِ اللَّهِ } ؛ أي بإرادةِ الله ، { ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } ؛ معناهُ : إيراثُهم الكتابَ هو الفضلُ الكبير ، وسُمي إعطاءُ الكتاب إيْرَاثاً لأنَّهم أُعْطُوهُ بغيرِ مسألةٍ ولا اكتساب.
وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّهُمْ قَالُواْ : " السَّابِقُونَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَالْمُقْتَصِدُونَ يُحَاسَبُونَ حِسَاباً يَسِيراً ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَالظَّالِمُونَ يُحَاسَبُو مَا شَاءَ اللهُ أنْ يُحَاسَبُواْ ، ثُمَّ يَرْحَمُهُمُ اللهُ

تَعَالَى فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ : الْحَمْدُ للهِ الّذِي أذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ... " إلى آخرِ الآيتَين.

وعن الحسنِ أنه قالَ : (السَّابقُ الَّذِي تَرَكَ الدُّنْيَا ، وَالْمُقْتَصِدُ الَّذِي أخَذ الْحَلاَلَ ، وَالظَّالِمُ الَّذِي لاَ يُبَالِي مِنْ أيْنَ أخَذ). ويقالُ : الظالِمُ صاحبُ الكبائرِ ، والمقتصدُ صاحبُ الصَّغائرِ ، والسَّابقُ الذي اتقى سيئاته.

فإنْ قيلَ ما الحكمةُ في تقديمِ الظالِمِ وتأخيرِ السابق ؟ قِيْلَ : الواوُ لا توجِبُ الترتيبَ كما قالَ تعالى{ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ }[التغابن : ٢]. وَقِيْلَ : قدَّمَ الظالِمَ لئلاَّ ييأسَ من رحمتهِ ، وأخَّرَ السابقَ لئلا يُعجَبَ بنفسهِ. وَقِيْلَ : قدَّمَ الظالِمَ فإذا لَم يكن له شيءٌ يتَّكِلُ عليه إلاَّ رحمةُ الله تعالى ، وثَنَّى بالمقتصدِ لِحُسنِ ظنِّهِ بربه. وَقِيْلَ : لأنه بين الخوفِ والرَّجاءِ ، وأخَّرَ السابقَ لأنه اتَّكَلَ على حسَناتهِ. وَقِيْلَ : لئلا يأمَنَ أحدٌ مَكْرَهُ ، وكلُّهم في الجنَّة بُحرمةِ كلمةِ الإخلاصِ.

وعن عُقبة بن صَهبان قال : (سَأَلْتُ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِهِ : { فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ } فَقَالَتْ : يَا بُنَيَّ كُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ ، وَأمَّا السَّابقُ فَمَنْ مَضَى عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم شَهِدَ لَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالْجَنَّةِ ، وَأمَّا الْمُقْتَصِدُ فَمَنْ تَبِعَ أثَرَهُ مِنْ أصْحَابِهِ حَتَّى لَحِقَ بِهِ ، وَأمَّا الظَّالِمُ فَمِثْلِي وَمِثْلَكَ). وقال سهلُ بن عبدِالله : (السَّابقُ الْعَالِمُ ، وَالْمُقْتَصِدُ الْمُتَعَلِّمُ ، وَالظَّالِمُ الْجَاهِلُ).

وَقِيْلَ : السابقُ الذي اشتغلَ بمَعادهِ ، والمقتصدُ بمعَادهِ ومعاشهِ ، والظالِمُ الذي اشتغلَ بمعاشهِ عن معادهِ. وَقِيْلَ : الظالِمُ طالِبُ الدُّنيا ، والمقتصدُ طالبُ العُقبَى ، والسابقُ طالب المولَى. وَقِيْلَ : الظالِمُ الْمُرائِي في جميعِ أفعالهِ ، والمقتصدُ المرائي في بعضِ أفعالهِ دون بعضٍ ، والسابقُ المخلِصُ في أفعالهِ كلِّها.

(٠/٠)

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا } ؛ يعني الأصنافَ الثلاثةَ : الظالِمُ ؛ والمقتصدُ ؛ والسابقُ. ومعنى الآيةِ : { جَنَّاتُ عَدْنٍ } أي بساتينُ إقامةٍ لا تزولُ, { يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ } ؛ أي يُلبَسُونَ أقْلِبَةً من ذهبٍ وسِوَارُ القُلْبِ. وقولهُ تعالى : { وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } ؛ مَن قرأ بالكسرِ فالمعنى مِن ذهبٍ ومن لؤلؤٍ ، ومَن قرأ بالنصب فمعناهُ : ويحلَّونَ لُؤلُؤاً.

(٠/٠)

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ } ؛ أي يقولون بعدَ دُخولِهم الجنَّةَ : { الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ } أي حَزَنَ الموتِ وأهوالَ يومِ القيامة ، وَقِيْلَ : حَزَنَ المعاشِ وهمومَ الدُّنيا ، فإنَّ الدنيا سجنُ المؤمنِ. وقال عكرمةُ : (حَزَنَ الذُّنُوب وَالسَّيِّئَاتِ) ،
وعن ابنِ عُمر رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " لَيْسَ عَلَى أَهْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْشَةٌ فِي قُبُورِهِمْ ، وَلاَ فِي مَحْشَرِهِمْ ، كَأَنِّي بأَهْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ وَهُمْ يَنْفُضُونَ التُّرَابَ عَنْ رُؤُوسِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ".
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ } ؛ أي متجاوزٌ عن الذنوب ، يقبَلُ اليسيرَ من العملِ ، ويعطِي الجزيلَ من الثواب. قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ } ؛ أي دارَ المقامِ وهي الجنةُ ، { مِن فَضْلِهِ } ، بتفَضُّلِهِ لا بالأعمالِ. وسُمي دارَ المقامةِ لأن مَن دخلَها يخلدُ لا يموت ، ويقيمُ فيها لا يحوَّلُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ } ؛ أي لا يَمسُّنا فيها تعبٌ ؛ { وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ } ؛ أي مشَقَّةٌ وتعبٌ وإعياء وقبورٌ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ } ؛ أي الذين كفَروا بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقُرآنِ لَهم في الآخرةِ نارُ جهنم ، { لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ } ؛ فلا يُقضى عليهم بمَوتٍ فيستريحونَ من العذاب ، { وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا } ؛ من عذاب النار طُرفةَ عَينٍ. قرأ الحسنُ : (فَيَمُوتُونَ) بالنُّون ولا يكون حينئذٍ جَواباً للنفيِّ ، والمعنى : لا يُقضَى عليهم ولا يَموتُونَ كقولهِ{ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ }[المرسلات : ٣٦].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ } ؛ أي هكذا يُجزَى في الآخرةِ كلُّ كفورٍ بنِعَمِ الله تعالى. قرأ العامَّة (نَجْزِي) بالنون ونصب اللام ، وقرأ أبو عمرٍو وحده بضم الياءِ وفتح الزاي على ما لَم يسمَّ فاعلهُ ورفعَ اللامَ.

(٠/٠)

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا } ؛ أي يستَغِيثُونَ في النار وهو افتعالٌ من الصُّراخِ يقولون : { رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا } ؛ من النار ، { نَعْمَلْ صَالِحاً } ؛ أي بقَولُ لا إلهَ إلاَّ اللهُ ، وقولهُ تعالى : { غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ } ؛ أي غيرَ الشِّركِ. فوبَّخهم اللهُ تعالى فقالَ : { أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ } ، معناهُ : أوَلَمْ نُعمِّركُم مقدارَ ما يتَّعِظُ فيه مَن كان يريدُ أن يتَّعظَّ ويؤمِنَ. قال عطاءُ : (يُرِيدُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ سَنَةً) ، وقال الحسنُ : (أَرْبَعِينَ سَنَةً) ، وقال ابنُ عبَّاس : (سِتِّينَ سَنَةً).

قَالَ : (هُوَ الْعُمْرُ الَّذِي أَعْذرَ اللهُ إِلَى ابْنِ آدَمَ ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ عَمَّرَهُ اللهُ تَعَالَى سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذرَ اللهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ "). وعن أبي هُريرةَ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِين ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذلِكَ " قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : " مَنْزِلُ مَنَايَا أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ } ؛ قال جمهورُ المفسِّرين : يريدُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم. ورُوي عن عكرمةَ وسُفيان بن عُيينة : (الْمُرَادُ مِنَ النَّذِيرِ الشَّيْبُ) وَمَعْنَاهُ : أوَلَمْ نُعَمِّركُم حتى شِبتُم؟. وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قَالَ : " مَنْ أنَافَ سِنُّهُ عَلَى أرْبَعِينَ سَنَةً وَلَمْ تَغْلِبْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ فَلْيَتَجَهَّزْ إِلَى النَّار ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ } ؛ أي فذُوقوا العذابَ فما للمُشركين من مانعٍ يَمنعُهم من العذاب.

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } ؛ أي عالِمُ سِرِّ أهلِ السمواتِ والأرض ، إنه عليمٌ بما في القُلوب من الخيرِ والشرِّ.

(٠/٠)

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ } ؛ أي جعلكم خُلفاءَ عن مَن كان قبلَكم أُمَّةً بعد أُمةٍ ، وقَرناً بعد قرنٍ ، { فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً } ؛ أي إلاَّ نَقصاً ، { قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ } ؛ أي خَبرُوني عن شُركائِكم الذين أشرَكتُموهم مع اللهِ في العبادةِ ؛ بأيِّ شيءٍ أوجَبْتُهم لَهم شركاءَ مع اللهِ تعالى ؟ بخلقِ خلَقوهُ من الأرضِ ؛ أم لَهم نصيبٌ في خلقِ السَّمواتِ ؛ أم أعطينَاهم كِتَاباً فيه ما يدَّعُونَهُ فهُم على بيِّنةٍ منه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً } ؛ ولكن ما يَعِدُ الظالمون بعضَهم بعضاً إلاّ خِدَاعاً وأباطيلَ.

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ } ؛ أي مَنَعهما من الزَّوالِ والذهاب ، { وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ } ؛ أي ولَو زالَتا عن أماكنِها لَمْ يُمسِكْهُما أحدٌ غيرُ اللهِ. قَوْلُهُ

تَعَالَى : { إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً } ؛ أي حَليماً عن مقالةِ الكفَّار ، غَفُوراً لِمَن تابَ منهم ، والحكيمُ هو القادرُ الذي لا يعجِّلُ بالعقوبةِ ، والغفورُ كثيرُ الغُفرانِ.

(٠/٠)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } ؛ أي حَلَفَ كفارُ مكَّة باللهِ غايةَ أيْمانِهم قبلَ أنْ يأتيهم مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم ، { لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ } ؛ أي رسولٌ ، { لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ } ؛ أي ليكونُنَّ أسرعَ إجابةً وأصوبَ دِيناً من إحدَى الأُمم ، اليهودُ والنصارَى والصَّابئين وغيرهم ، { فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ } ؛ يعني مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم ، { مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً } ؛ عن الحقِّ وتباعداً عن الهدى ، وقولهُ تعالى : { اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ } ؛ منصوبٌ على أنه مفعولٌ له (أيْ مَا زَادَهُمْ إلاَّ نُفُوراً). الاستكبارُ في الأرضِ عُتُوّاً على اللهِ وتكَبُّراً عن الإيمانِ ، وَقِيْلَ : على البدلِ مِن قوله (نُفُوراً). وَقِيْلَ : على المصدر.

وقولهُ تعالى : { وَمَكْرَ السَّيِّىءِ } ؛ أي القصدَ أي الإضرارَ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابهِ من حيث لا يشعُرون. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ } ؛ أي لا يحيقُ ضرَرُ المكرِ السيِّ إلاَّ بفاعلهِ ، فقُتِلُوا يومَ بدرٍ ، والمكرُ السيِّء هو العملُ القبيح ، وقولهُ تعالى { وَلاَ يَحِيقُ } أي ولا يحِلُّ ولا ينْزِلُ إلاَّ بأهلهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ } ؛ أي ما ينظرُ أهل مكَّة إلا أن ينْزِلَ بهم العذابُ مثلَ ما نزلَ بمَن قبلَهم من الأُمَم السَّالفة المكذِّبة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً } ؛ أي لا يقدرُ أحدٌ أن يُحوِّلَ العذابَ عنهم إلى غيرِهم.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } معناهُ : أوَلَمْ يُسافِروا في الأرضِ فينظُروا كيفَ صارَ آخرُ أمرِ الَّذين من قبلِهم عند تكذيبهم الرسُلَ كيف فعلَ اللهُ بهم ؟ { وَكَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ } ؛ من أهلِ مكَّة ، { قُوَّةً } ؛ ومكَّن لَهم ما لم يُمكِّن لهؤلاء. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ } ؛ أي لن يُعجزَهُ أحدٌ من الخلقِ في السَّموات ولا في الأرض ، { إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً } ؛ أي عَليماً بخلقهِ ، قادراً عليهم.

(٠/٠)

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ } ؛ أي لو يُؤاخِذُهم بما كسَبوا من المعاصِي ما ترك على ظهرِ الأرض من دابَّة ، { وَلَاكِن يُؤَخِّرُهُمْ } ؛ بفضلهِ ، { إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } ؛ إلى وقتٍ معلوم ، { فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ } ؛ فإذا جاءَ ذلك الوقتُ ، { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً } ؛ يفعلُ به ما يستحقُّونَهُ من ثوابٍ وعقابٍ.

(٠/٠)

يس (١)

{ يس } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيدُ : يَا إنْسَان) ، يَعْنِي مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم ، وقال أبو العاليةِ : (يَا رَجُلُ) ، وقال سعيدُ بن جبير : (يَا مُحَمَّدَ صلى الله عليه وسلم) ، قرأ أبُو عمرٍو وحمزةُ وعاصم بإظهار النُّون ، وقرأ عيسَى بن عمر (يس) بالنصب تَشبيهاً بأينَ وكيفَ ، وقرأ ابن أبي إسحق (يس) بكسر النُّون تشبيهاً بأمسِ وحذامِ وقِطَامِ ، وقرأ هَارون الأعور بضمِّ النون تشبيهاً بمُنذُ وحيثُ وقطُّ ، وقرأ الآخرَون بإخفاءِ النُّون.

(٠/٠)

وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ } ؛ أي الْمُحْكَمِ من الباطل ، وَقِيْلَ : أُحكِمَ بالحلالِ والحرام والأمرِ والنهي. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ } وذلك أنَّ كفارَ مكَّة قالوا لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم : لَسْتَ مُرْسَلاً ، فأقسمَ اللهُ تعالى بالقرآنِ الحكيم إنَّكَ مُرسَلٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } ؛ يعني دينِ الإسلامِ وطريقِ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ الذين مَضَوا قبلَكَ.

(٠/٠)

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥)

وقولهُ تعالى : { تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ } ؛ أي هو تنْزِيلُ العزيزِ في مُلكهِ ، الرحيمِ بخلقهِ ، قال مقاتلُ : (مَعْنَاهُ : هَذا الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ). وقولُ ابنِ عامر وأهلِ الكوفة (تَنْزِيلَ) بالنصب على المصدر ، كأنَّهُ قَالَ : ونزَّلَ تَنْزِيلاً.

(٠/٠)

لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦)

وقولهُ تعالى : { لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ } ؛ مُتَّصلٌ بقولهِ { إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ } لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ ؛ أي لتُنذِرَ قَوماً لم يأْتِهم نذيرٌ قبلَكَ ؛ لأنَّهم كانوا في الفَترَةِ وهو معنى قولهِ : { فَهُمْ غَافِلُونَ } ؛ أي عن حُجَجِ التَّوحيدِ وأدلَّةِ البعثِ ، وَقِيْلَ : { فَهُمْ غَافِلُونَ } عن أمرِ الآخرةِ.

(٠/٠)

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } ؛ أي لقد حقَّتْ كلمةُ العذاب على أهلِ مكَّة لكثرة كفرهم فهم لا يُصدِّقون ، وهذا إخبارٌ عن علمِ الله فيهم أنَّهم لا يُؤمنون ، فقُتِلوا يومَ بدرٍ على الكُفرِ.

(٠/٠)

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩)

وقولهُ تعالى : { إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلاَلاً } ؛ أي في أعناقِهم وأيمانِهم أغْلاَلاً ، ولَم يذكُرِ الأَيمانَ في الآيةِ لأنَّ الكلامَ دليلٌ عليهِ ؛ لأن الغُلَّةَ لا يكون في العنُقِ دون اليدِ ، ولا في اليدِ دون العنُقِ ، وإنما تُغَلُّ الأيدي إلَى الأعناقِ. وقولهُ تعالى : { فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ } ؛ كنايةٌ عن الأيدِي دون الأغلالِ ، وقولهُ تعالى : { فَهُم مُّقْمَحُونَ } ؛ أي رَافِعُوا رؤوسِهم ، والْمُقْمَحُ : الرافعُ رأسَهُ الغاضُّ بصرَهُ.
واختلَفُوا فيمَنْ نزلت هذه الآيةُ ، فرُوي عن ابنِ عبَّاس : (أنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ فِيْهِمْ أبُو جَهْلٍ ، تَوَاطَؤُا عَلَى أنْ يَقْتُلُواْ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم إذا رَأوْهُ يُصَلِّي ، وَحَلَفَ أبُو جَهْلٍ أنَّهُ إذا رَآهُ يُصَلِّي لَيَدْمَغَنَّهُ بالْحَجَرِ ، فَأَتَوْهُ يَوْماً وَهُوَ يُصَلِّي ، فَجَاءَهُ أبُو جَهْلٍ وَمَعَهُ الْحَجَرُ ، فَرَفَعَ الْحَجَرَ لِيَدْمَغَنَّ بِهِ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فَيَبسَتْ يَدُهُ إلَى عُنُقِهِ وَالْتَزَقَ الْحَجَرُ إلَى يَدِهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ إلَى أصْحَابِهِ خَلَّصُواْ الْحَجَرَ ، فَأَخْبَرَهُمْ بأَمْرِ الْحَجَرِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي مُغِيرَةَ : أنَا أقْتُلُهُ! وَأخَذ الْحَجَرَ وَدَنَا مِنَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَطَمَسَ اللهُ عَلَى بَصَرِهِ فَلَمْ يَرَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وَكَانَ يَسْمَعُ قِرَاءَتَهُ).
فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ } ؛ أي جعَلنا من بين أيديهم غطاءً وسَدّاً ومِن خلفِهم كذلكَ فأَغْشَينا أبصارَهم حتى لم يَرَوا.
قال الفرَّاءُ : (مَعْنَى أغْشَيْنَا : ألْبَسْنَا أبْصَارَهُمْ غِشْوَةً أيْ عَمًى) ، وعن ابنِ خُثَيم قالَ : (سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ يَقْرَأُ (فَأَعْشَيْنَاهُمْ) بالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ) ، ورُوي ذلك عن ابنِ عبَّاس أيضاً ، وقال الحسنُ : (هَذَا عَلَى طَرِيقِ الْمَثَلِ) وَذلِكَ أنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ أرَادُواْ مِنَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم كَانُوا كَمَنْ

غُلَّتْ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ لاَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَبْسُطَهَا إِلَى شَيْءٍ ، وَهُوَ طَافِحٌ رَأْسُهُ لاَ يُبْصِرُ مَوْضِعَ قَدَمِهِ ، قَدْ سُدَّ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ فِي الذهَاب وَالرُّجُوعِ.

(٠/٠)

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } ؛ أي مَن أضَلَّهُ اللهُ هذا الضلالَ لم ينفعْهُ الإنذارُ ، { إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ } ؛ معناهُ : إنما ينفع الإنذارُ مَن اتَّبعَ القرآنَ ، { وَخشِيَ الرَّحْمانَ بِالْغَيْبِ } ؛ أي وخافَ من اللهِ بحيث لا يراهُ ، { فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ } ؛ لذنوبهِ ، { وَأَجْرٍ كَرِيمٍ } ؛ وثوابٍ حسَنٍ في الجنَّة.

(٠/٠)

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ } ؛ أي ما أسلَفُوا من الخيرِ والشرِّ ، وقولهُ تعالى : { وَآثَارَهُمْ } ؛ أي خُطَاهُم ، فإنَّ كلَّ خُطوَةٍ في الطاعةِ طاعةٌ ، وكلَّ خطوةٍ في المعصيةِ معصيةٌ. وَقِيْلَ : معنى { وَآثَارَهُمْ } أي ما استَنَّ به مَن بعدَهم ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ".
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ } ؛ أي وكلَّ شيءٍ من الأعمالِ أثبتناهُ في اللوحِ المحفوظِ. وَقِيْلَ : أرادَ بالإمامِ المبين : الصحائفَ التي يكتبُها الملائكةُ ، وسُمي الإمامُ مُبيناً لأنه لاَ يَنْدَرسُ أثرُ مكتوبه.

(٠/٠)

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلاً } ؛ أي مثل لأهلِ مكَّة مثل ، { أَصْحَابَ القَرْيَةِ } ؛ يعني إنطاكيَّةَ ؛ { إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ } ، رسُل اللهِ تعالى ، { إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُواْ إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ }.

وذلك أنَّ عيسى عليه السلام أرسَلَ إلى أهلِ إنطاكيَّةَ رسُولَين من الحواريِّين ليدعُوهم إلى عبادةِ الله تعالى. وإنَّما أُضيفَ الإرسالُ في الآيةِ إلى اللهِ تعالى لأنَّ إرسالَهُ كان بأمرِ الله تعالى.

(٠/٠)

قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ الرَّحْمَانُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَآ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ * قَالُوۤاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُواْ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ }

والقصَّةُ : أنَّ عيسَى عليه السلام لَمَّا بعثَ الرسولَين إلى أنطاكيَّة وقَرُبَا من المدينةِ ، وجَدَا شيخاً كَبيراً يرعَى غُنَيمَاتٍ له وهو حبيبُ النجَّار فسَلَّما عليه ، فقالَ لَهما : مَن أنتُما ؟ قالاَ : رسُولاَ عيسَى عليه السلام ندعُوكم إلى عبادةِ الله تعالى ، قالَ : هل معَكُما آيةٌ ؟ قالاَ : نَعَمْ ؛ نَشفِي المريضَ ونُبرِئُ الأَكْمَهَ وَالأبرصَ بإذنِ الله تعالى. فقالَ الشيخُ : إنَّ لِي إبناً مَريضاً صاحبَ فِرَاشٍ منذُ سِنينَ ، قالاَ : فَانطَلِقْ بنا إليهِ.

فانطلقَ بهما إليه ، فمَسَحا ابنَهُ فقامَ من ساعتهِ صَحيحاً بإذنِ الله تعالى. ففشَا الخبرُ في المدينةِ ، وشفَى

اللهُ على أيدِيهما كَثيراً من المرضَى ، وآمَنَ حبيبُ النجَّار ، وجعلَ يعبدُ اللهَ تعالى في غار جَبَلٍ في أبعدِ أطرافِ المدينة.

فسمعَ الملِكُ بخبرِ هذين الرَّسولَين ، وكان يعبدُ الأصنامَ ، فدعَا لَهُما فأتياهُ ، فقالَ لَهما : مَن أنتُما ؟ قالاَ : رسولاَ عيسَى عليه السلام ندعُوكَ إلى عبادةِ الله تعالى ، قال : وما آيتُكما ؟ فقالاَ : نُبرِئُ الأكمَهَ والأبرصَ ، فغَضِبَ الملِكُ وأمرَ بهما فحُبسَا ، وجُلِدَ كلُّ واحدٍ منهما مائةَ جلدةٍ.

فلمَّا كُذِّبَ الرسُولاَنِ ، بعثَ عيسى رسُولاً ثالثاً يقالُ له : شَمعون المصفِّي على إثرِهما لينصُرَهما ، فدخلَ شمعونُ البلدَ متنكِّراً ، وجعلَ يعاشِرُ حاشيتَهُ حتى أفشَوا به ، فرُفِعَ خبرهُ الى الملِكِ فدعاهُ فأكرمَهُ وأنِسَ بهِ. فقالَ له ذاتَ يومٍ : أيُّها الملِكُ ؛ بلَغَني أنَّكَ حبستَ رجُلَين في السِّجن وضَربتَهُما حين دعَياكَ الى دينٍ غيرِ دِينكَ ، فهل كلَّمْتَهما وسمعتَ قولَهما ؟ قالَ : لاَ ، قالَ : فإنْ رأى الملِكُ أن يدعوَهُما ويسمعَ قولهما حتى يطَّلِعَ على ما عندهما.

فدعاهُما الملِكُ ، فقالَ لهما شمعونُ : مَن أرسلَكُما ؟ قالاَ : اللهُ الذي خلقَ كلَّ شيءٍ وليس له شريكٌ. فقالَ لهما شمعون : صِفَاهُ وأوجِزَا ، فقالاَ : إنه يفعلُ ما يشاءُ ويحكمُ ما يريد. قال شمعونُ : وما آيَتُكما ؟ قَالاَ : ما تَتمَنَّاهُ.

فأمرَ الملِكُ حتى جَاؤُا بغُلامٍ مطمُوسِ العَينَين ، موضعُ العينين كلٌّ لجِهَةٍ ، فمَا زالاَ يدعُوَان اللهَ حتى انشقَّ موضعُ البصرِ ، ثم أخذا بَندُوقَتَيْنِ فوُضِعَتا في الحدَقَتَين ، فصارَتا مُقْلَتَيْنِ يبصرُ بهما ، فعَجِبَ الملِكُ من ذلك.

فقال شمعونُ للملِك : إنْ سألتَ إلَهكَ أن يصنعَ مثل هذا ، فصَنَعَهُ كان لكَ ولآلهتكَ الشرفُ. فقال الملِكُ : ليس لِي عَنْكَ سِرُّ أُسِرُّه إليك : إنَّ إلَهنا الذي نعبده لا يسمعُ ولا يبصر ولا ينفعُ.

ثم قالَ للمرسُولِين : إنَّ هنا مَيِّتاً ماتَ منذُ سبعةِ أيَّام ، فلم أدفِنْهُ وأخَّرتُه حتى يرجعَ أبوهُ ، وكان أبوهُ غائباً ، فإن قَدِرَ إلَهُكما على إحيائهِ آمنتُ بهِ.

(٠/٠)

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ } ؛ وذلكَ أنَّهم لَمَّا قتلوهُ وغَضِبَ اللهُ عليهم وعجَّلَ لهم العذابَ ، ومعنَى الآية : وما أنزَلنا على قومِ حبيب بإهلاكِهم من جُندٍ من السَّماء يعني الملائكةَ ؛ أي لَم تنتَصِرْ منهم بجُندٍ من السَّماء ، { وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ } ولا كُنَّا نُنَزِّلُ

ذلك بمَن قبلَهم من الأُمَم إذا أهلكنَاهم.
ثم بيَّن اللهُ تعالى كيف كانت عقوبتُهم وعذابُهم فقالَ تعالى : { إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ } ؛ أي ميِّتون لا يتحرَّكُ منهم أحدٌ. قال المفسِّرون : أخذ جبريلُ بعضادتي باب المدينةِ وصاحَ بهم صيحةً واحدةً ، فتطايرَت قلوبُهم فإذا هم ميِّتون ، ولم يُسمَعْ لهم حِسٌّ ، كالنار إذا طُفِئَتْ.

(٠/٠)

يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } ؛ قال مقاتلُ : (يَا نَدَامَةً عَلَيْهِمْ فِي الآخِرَةِ باسْتِهْزَائِهِمْ بالرُّسُلِ فِي الدُّنْيَا). وَالْحَسْرَةُ : أن يركبَ الإنسانُ مِن شدَّةِ اللَّومِ ما لا نِهايةَ بعدَهُ حتى يبقَى قلبُه حَسِيراً ، والعربُ إذا دعَتْ نكرةً موصولةً بشيء آثرَتِ النصبَ ، تقولُ : يا رجلاً كريماً أقْبِلْ. ثُم بيَّن اللهُ تعالى سببَ الحسرةِ فقالَ : { مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ }.

(٠/٠)

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ } ؛ معناهُ : أَلَمْ يَرَ أهلُ مكَّة كم أهلَكنا قبلَهم من الأُمَمِ الماضيةِ فخَافُوا أن يُعجَّلَ لهم في الدُّنيا مثلُ ما عُجِّلَ لغيرِهم وهم يعلمون أنَّهم لا يُعادون إلى الدُّنيا أبَداً.

(٠/٠)

وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ } ؛ أي وما كلٌّ منهم إلاَّ لدنيا مُحضَرُونَ في أرضِ الْمَحشَرِ للحساب والجزاء ، هذا على قراءةُ مَن قرأ (لَمَّا جَمِيعاً) بالتشديدِ, وهي قراءةُ ابنِ عامر وعاصمٍ وحمزة ، وأما على قراءةِ مَن قرأ بالتخفيفِ فإن (مَا) صلةٌ مؤكِّدة ، فإن (إنْ) للإثباتِ كأنه قالَ : وإنْ كلٌّ لَجميعٌ لدَينا مُحضَرون.

ثم وعظَ اللهُ كفارَ مكَّة ليعتَبروا فقالَ تعالى : { وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا } ؛ أي وعلامةٌ لَهم تدلُّهم على التوحيدِ والبعث ، الأرضُ الْمَيْتَةُ اليابسةُ التي لا نباتَ فيها ولا شجرَ { أَحْيَيْنَاهَا } بإخراجِ الأشجار والزُّروعِ ، { وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ } ، ما يُقْتَاتُ من الحبوب جمعِ الحب ، { وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ } ؛ أي في الأرضِ بساتين ، { مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ } ؛ أي من عُيونِ الماءِ.

(٠/٠)

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ } ؛ أي من ثَمر النخيلِ والأعناب على اختلاف طُعومِها وألوانِها ، فيستدِلُّوا بذلك على قُدرةِ الله تعالى. قرأ الأعمشُ (ثُمْرِهِ) بضمِّ الثاء وسُكونِ الميمِ, وقرأ طلحةُ ويحيى وحمزة والكسائي وخلف (ثُمُرِهِ) بضمِّ الثاء والميمِ ، وقرأ الباقون بفتحِهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ } ؛ أي وما عملَتْ أيديهم شَيئاً مما ذكرناهُ ، وإنما هو مِن فعلِنا ، { أَفَلاَ يَشْكُرُونَ } ؛ نِعَمَ اللهِ ، ويجوزُ أن يكون معناهُ : ليأكلُوا من ثَمَرِهِ ومِن ثَمَرِ ما عملَتْ أيديهم ، يعني الغرُوسَ والحرْثَ.

قرأ أهلُ الكوفة (وَمَا عَمِلَتْ) بغير هاءٍ ، ويجوزُ في (مَا) ثلاثةُ أوجهٍ : النفيُ بمعنى ولَمْ تعمَلْ أيديهم ؛ أي وجدُوها معمولةً فلا صُنْعَ لَهم فيها ، وهذا قولُ الضَّحاك ومقاتل. والثاني : أن يكون بمعنَى المصدر ؛ أي ومِنْ عَمَلِ أيدِيهم. والثالث : بمعنى (الَّذِي) أي ومِن الذي عمِلت أيديهم من الغَرْسِ والحرثِ.

ومَن قرأ (عَمِلَتْهُ) بالهاءِ ، فالهاءُ عائدةٌ على (مَا) التي بمعنى الذي.

(٠/٠)

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ أي سُبحان الذي خلقَ الأصنافَ كلَّها من أجناسِ الفواكهِ والحبوب ، وأصنافِ ما تُنبتُ الأرضُ من الحلوِ والحامض والأبيضِ والأحمر وغيرِ ذلك من الطُّعوم والألوانِ. وقولهُ تعالى : { وَمِنْ أَنفُسِهِمْ } أي وخلَقَ من أنفُسِهم الذُّكرَانَ والإناثَ. وقوله تعالى : { وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ } أي وخلقَ في البرِّ والبحرِ وأجوافِ السَّموات والأرضِ من جميع الأنواعِ والأشياء.

(٠/٠)

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ } ؛ أي وعلامةٌ لَهم أُخرى تدلُّ على قُدرَتِنا ، الليلُ المظلم يُنْزَعُ منه النهارُ فإذا هم داخِلون في الظَّلام ، وذلك أنَّ الأصلَ هو الظُّلمةُ ، والنهارُ داخلٌ عليها لأنَّ الله خلقَ الدُّنيا مظلمةً ، فإذا طلَعتِ الشمسُ صارت الدُّنيا مضيئةً تشبهُ ضوءَ النهار باللِّباس ، فإذا ذهبَ الضوءُ بغُروب الشمسِ كان ذهابُ ذلك بمنْزِلة سَلْخِ جلدِ الشَّاة عن الشاةِ ، وسلخِ الثوب الرجُل عن الرجلِ ، والمعنى : إذا غربَتِ الشمسُ سُلِخَ النهارُ من الليلِ أن كشفَها فأُزيلَ فتظهرُ الظُّلمة.

(٠/٠)

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا } ؛ معناهُ : وآيةٌ لهم { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا } أي إلى مُستَقَرٍّ لها وهو آخرُ مدَّة الدنيا ثم تجرِي بعدها ، ويقالُ : مستقرُّها منازلُها إذا انتهت الى أقصَى منازلها التي لا تجاوزُها في الصيفِ رجَعت ، ويقالُ : سمعت منازلَها مستقرَّها ، كما يقالُ في منْزِل الرجلِ : هو مُستَقَرُّهُ ، وإن تصَرَّفَ فيه وتحرَّكَ.

وعن أبي ذرٍّ قال : " سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا } قالَ : " مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ " قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } ؛ أي ذلك الذي سبَقَ ذِكرهُ تقديرُ العزيزِ في مُلكهِ ، العليمُ الذي لا يخفَى عليه شيءٌ. وفي قراءةِ ابن عبَّاس : (تَجْرِي لاَ مُسْتَقَرَّ لَهَا) أي لا قرارَ لها فهي جاريةٌ أبداً ما دامت الدُّنيا.

(٠/٠)

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ } ؛ قرأ نافعُ وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (وَالْقَمَرُ) بالرفعِ عطفاً على قولهِ{ وَالشَّمْسُ تَجْرِي }[يس : ٣٨] ، وَقِيْلَ : على الابتداءِ ، وقرأ الباقون بالنصب على معنى وقدَّرناهُ القمرَ وقدَّرنا منازلَ ، كما تقولُ : زيداً ضربتهُ.
والمعنى : قدَّرنا له منازلَ ينْزِلُ في كلِّ ليلة منْزِلَةً ، وجملةُ منازلِ ثمانيةٌ وعشرون ، فإذا صارَ إلى آخرِ منْزِله وهي ليلةُ ثَمانٍ وعشرين ، { حَتَّى عَادَ كَالعُرجُونِ الْقَدِيمِ } ؛ وهو عذْقُ النخلةِ الذي فيه الشَّماريخُ إذا يَبسَ ، ولأن العُذْقَ إذا مضَت عليه الأيامُ جفَّ وتقوَّسَ ويَبسَ ودقَّ واصفرَّ وصار شبهَ الأشياءِ بالقمر في أوَّل الشهرِ ، وآخره ، لا يقدرُ على ذلك إلاَّ اللهُ تعالى.

(٠/٠)

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القَمَرَ } ؛ يعني أنَّ الشمسَ أبطأُ مَسِيراً من القمرِ فلا تدركهُ ، وذلك أنَّ الشمسَ تقطعُ منازلَها في سنةٍ ، والقمرَ يقطعُ منازلَهُ في شهرٍ ، وهما مسخَّران مقهوران على ما ذكرَهُما اللهُ تعالى.
ويقالُ معنى قولهُ : { لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القَمَرَ } أي لا يدخلُ النَّهارُ على الليلِ قبلَ انقضائهِ ، ولا يدخلُ الليلُ على النهار قبلَ انقضائهِ ، كلاهُما يَسِيران دائِبَين ، ولكلٍّ حدٌّ لا يعدوهُ ولا يقصُر دونَهُ ، فإذا جاءَ سُلطان هذا ذهبَ ذلك ، فإذا جاءَ سلطانُ ذلك ذهبَ هذا ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ الَّيلُ سَابِقُ النَّهَارِ } ؛ أي لا تتأخَّرُ الشمسُ عن مجرَاها ، فتسبقُ ظلمةُ الليلِ في وقتِ النَّهار.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } ؛ أي كلٌّ مِن الشمسِ والقمرِ والنُّجومِ الغَاربَةِ والطَّالعةِ في فَلَكٍ يَسِيرُونَ ويَجْرُونَ بالأبْسَاطِ. والفلَكُ : هو مواضعُ النجومِ من الهواءِ ؛ أي الذي يجرِي فيه ، سُمِّي بهذا الاسمِ لأنه يدورُ بالنجومِ ، ومنه فُلْكَةُ الْمِغْزَلِ لأنَّها تدورُ بالمغزلِ.

(٠/٠)

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ } ؛ معناهُ : وآيةٌ لَهم أُخرى يعني أهلَ مكَّة تدلُّهم على توحيدِ الله تعالى : أنَّا حَمَلنا ذُرِّيَتَهُمْ في السَّفينةِ المملوءةِ ، وهي سفينةُ نُوحٍ عليه السلام ، وذريَّتهُ في كلامِ العرب : الآباءُ والأبناء والأجدادُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } ؛ أي وخلَقنا لهم مثلَ سفينةِ نُوحٍ عليه السلام ما يركَبُون فيه على البحرِ ، يعني السُّفنَ التي عُملت بعدَ سفينةِ نوحٍ عليه السلام على هيأَتِها وصُورَتِها.

(٠/٠)

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ } ؛ أي أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكَرَ تفَضُّلَهُ أنَّهُ يحفَظُهم ، ولو شاءَ أغرقَهم فلم يُغنِهم أحدٌ ولم يُنقِذْهُم من الغرقِ ، ومعنى قولهِ تعالى : { فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ } أي فلا مُغِيثَ لَهم ، { وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ } ؛ من المكروهِ والغرَقِ.
والصَّرِيخُ : بمعنى الصَّارخِ لهم بالاستغاثةِ. وَقِيْلَ : الصَّرِيخُ الْمُعِينُ على الصُّراخ ، كأنه قالَ : فلا مُعينَ لَهم { وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ } أي ولا هم يُخَلَّصُون من الغرقِ ، { إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ } ، إلاّ أنْ تدارَكَهم رحمةُ اللهِ فتنقذهم إلى حين آجالِهم.

(٠/٠)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ } ؛ أي وإذا قِيْلَ لهؤلاءِ الكفار اتَّقُوا ما بين أيدِيكم من أمرِ الآخرةِ فاعملُوا لها ، وما خلفَكم من أمرِ الدُّنيا. فاحذرُوهم ولا تغترُّوا بها ، { لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ؛ أي لتكونُوا على رَجَاءِ الرحمةِ من اللهِ تعالى ، وجوابُ (إذا) محذوفٌ تقديرهُ : إذا قيلَ لهم هذا أعرَضُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ } ؛ من عِبرَةٍ ودلالةٍ تدلُّ على صدقِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم { إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ }.

(٠/٠)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ } ؛ قال مقاتلُ : (وَذلِكَ أنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا لِكُفَّار قُرَيشٍ : أنْفِقُواْ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِين مَا زَعَمْتُمْ مِنْ أمْوَالِكُمْ أنَّهُ للهِ ، وَهُوَ مَا جَعَلُوهُ مِن حُرُوثِهِم وَأنْعَامِهِمْ للهِ ، فَقَالَ الْكُفَّارُ : أنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أطْعَمَهُ وَرَزَقَهُ).

قال الحسنُ : (كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ أهْلَ إجْبَارٍ ، فَقَالَُواْ : لَمْ يَشَأ اللهُ أنْ نُطْعِمَهُ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَطْعَمْنَاهُ). ويقال لهم : ظَنُّوا بجهلِهم أنه تعالَى إذا كان قَادراً على أن يُطعِمَهم فُيغنِيَهُم عن إنفاقِ الناسِ ، وهذا القولُ منهم خطأٌ ؛ لأنَّ الله تعالى أغنَى بعضَ الخلقِ وأفقرَ بعضَهم لِيَبلِيَ الغنيَّ بالفقيرِ فيما فرضَ له في مالِهِ من الزَّكاة ، والمؤمنُ لا يَعترِضُ على المشيئةِ ، وإنما يوافقُ الأمرَ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } ؛ هذا من قولِ الكفَّار للمؤمنين ، يقولون لَهم : إنْ أنتم في اتِّباعِكم مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم وتركِ دِيننا إلاَّ في خطأ بيِّنٍ.

(٠/٠)

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } ؛ أي يقولُ كفار مكَّة : متى هذا الوعدُ الذي تُعِدُنا يا مُحَمَّدُ صلى الله عليه وسلم من القيامِ إنْ كنتم صادقِين أنتَ وأصحابُكَ أنَّا نُبعَثُ بعدَ الموتِ فأَرُونِي ذلكَ.

(٠/٠)

مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩)

يقولُ الله تعالى : { مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ } قالَ ابنُ عبَّاس : (يَعْنِي النَّفْخَةَ الَّتِي تَفْجُرُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فِي أمْرِ الدُّنْيَا وَفِي مُصْرِفَاتِهِمْ) ، والمعنى : تأخذُهم الصيحةُ وهم يختَصِمون في البيعِ والشِّراء ويتكلَّمون في الأسواقِ والمجالسِ ، وهي نفخةُ إسرافيلَ.
قِيْلَ : قرأ ابنُ كثير وورش (يَخَصَّمُونَ) بفتح الخاء وتشديد الصاد ، وقرأ نافعُ غير ورشٍ ساكنة الخاء مشدَّدة الصادِ ، وقرأ أبو عمرٍو بالإخفاءِ ، وقرأ حمزةُ ساكنةَ الخاء مخفَّفة ؛ أي فغلبَ بعضُهم بعضاً بالخِصَامِ ، وأجودُ القراءةِ فتحُ الخاءِ مع تشديد الصادِ ، ولأن الأصلَ يختَصِمون فأُلقِيَت حركةُ ألفِ المدغَمِ على الساكنِ الذي قبلَهُ وهو الخاءُ ، وقرأ الباقون بكسرِ الخاء وتشديدِ الصاد.

(٠/٠)

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠)

وقولهُ تعالى : { فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً } ؛ أي فلا يستطيعُ أحدٌ أن يوصِيَ في شيءٍ من أمرِهِ ، { وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ } ؛ أي ولا يلبثُ أحدٌ أن يصيرَ إلى منْزِله وأهلِهِ ؛ لأنَّها تأخذُهم بغتةً فيمُوتون في مكانِهم وفي أسواقِهم.
قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَنِ ثَوْباً جَدِيداً يُرِيدُ أَحَدُهُمَا أنْ يَدْفَعَهُ إِلَى صَاحِبه فَيَحُولُ قِيَامُ السَّاعَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَسْلِيمِهِ إِلَى صَاحِبِهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ أهوَى الرَّجُلُ بِلُقْمَةٍ لِيَضَعَهَا فِي فِيْهِ فَيَحُولُ قِيَامُ السَّاعَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وُصُولِهَا إِلَى فِيْهِ ".

(٠/٠)

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١)

وقولهُ تعالى : { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ } ؛ أي ونُفِخَ في الصور نفخةَ البعثِ ، فإذا هُم من القبور الى عرَصَاتِ القيامةِ يخرُجون مُسرِعين ، والنَّسَلاَنُ مقاربَةُ الخطوِ مع الإسراعِ ، ومنه نَسَلاَنُ الذِّئب وهو هَروَلَتُهُ وخببه ، والأجداثُ هو القبورُ.

(٠/٠)

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢)

وقوله تعالى : { قَالُواْ ياوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا } ؛ قال المفسِّرون : إنَّما يقولُون هذا ؛ لأنَّ الله يرفعُ عنهم العذابَ فيما بين النَّفخَتين فيرقُدون ، فلما بُعِثُوا في النفخةِ الآخرةِ وعَايَنُوا القيامةَ ودَعوا بالويلِ والثُّبور ، فقالوا : يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ فيقولُ الملائكة : { هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ } ؛ على ألْسِنَةِ الرُّسل يبعثُكم بعد الموتِ في موعدِ البعثِ.
وقال قتادةُ : (أوَّلُ الآيَةِ لِلْكَافِرِينَ وَآخِرُهَا لِلمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ الْكَافِرُ : يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ، وَقَالَ الْمُسْلِمُ : هَذا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ). ويجوزُ أن يكون قولهُ هذا من نعتِ الْمَرْقَدِ ، كأنَّهم يقولون : مَن بعثَنا من مرقدِنا هذا الذي كُنَّا راقدين فيهِ ؟ فيقالُ لَهم : ما وعدَ الرحمنُ الذي بعثَكم.
ويجوزُ أن يكون ما وعدَ الرحمنُ على هذا القولِ خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرهُ : حقٌّ ما وعدَ الرحمنُ ، وهذا ما وعدَ الرحمنُ.

(٠/٠)

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ } ؛ هذا في النفخةِ الثانية ؛ أي ما كانت نفخةُ البعثِ إلاّ صيحةً واحدةً لا تُثَنَّى ، فإذا هم الأوَّلُون والآخرون في عرَصَات القيامةِ مُحضرَون ، فإهلاكُهم كان صيحةً واحدة ، وبعثُ الخلائقِ كلّهم كان صيحةً واحدة.

(٠/٠)

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً } ؛ أي لا ينقَصُ من حسناتِ أحدٍ ولا يُزادُ على سيِّئات أحدٍ ، { وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، ولا يُجزَى كلُّ عاملٍ إلاَّ ما عَمِلَ من خيرٍ أو شرٍّ.

(٠/٠)

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ } ؛ معناهُ : إن أصحابَ الجنَّة في الآخرةِ في شُغُلٍ فَاكِهُونَ. قرأ ابنُ كثير ونافعُ وأبو عمرٍو بجزمِ الغَينِ ، وقرأ الباقون (فِي شُغُلٍ) بضمِّ الغينِ ، وهما لُغتان مثلُ : السُّحُتِ وَالسُّحْتِ.
واختلفَ المفسّرون في شُغلِهم ، قال مقاتلُ : (شُغِلُوا بافْتِضَاضِ الْعَذارَى عَنْ أَهْلِ النَّار فَلاَ يَذْكُرُونَهُمْ وَلاَ يَهْتَمُّونَ بِهِمْ). وقال الحسنُ : (شُغِلُوا بمَا فِي الْجَنَّةِ مِنَ النِّعَمِ عَنْ مَا فِيْهِ أَهْلُ النَّار مِنَ الْعَذاب).
وعن أبي سعيد الخدريِّ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " إنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا جَامَعُوا نِسَاءَهُمْ عُدْنَ أَبْكَاراً " قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاكِهُونَ } أي أصحابُ فاكهةٍ ، كما يقالُ : شَاحِمٍ لاَحِمٍ ؛ أي ذُو شحمٍ ولحم ، وعاسِلٍ ذو عَسلٍ ، وقرأ أبو جعفر (فَكِهُونَ) بغيرِ ألفٍ ، والفَكَهُ : الفرِحُ الضَّحُوكُ ، الطيِّبُ النفسِ ، ويقالُ : فَاكِهٌ وَفَكِهٌ كحَاذِرٍ وَحَذِرٍ.

(٠/٠)

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ } ؛ أي هُم وحَلائِلُهم في ظِلاَلِ أشجار الجنَّة ، { عَلَى الأَرَآئِكِ مُتَّكِئُونَ } ، على السُّرُر في الحجَالِ جالسُون بالاتِّكَاءِ جلسة الْمُلوكِ. والأرائِكُ : هي السُّرُرُ عليها الحجَالُ ، وقولهُ تعالى : { لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ } ؛ أي لَهم في الجنَّة ألوانُ الفواكهِ ، { وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ } ؛ أي ولَهم ما يتمنُّون ويسأَلُون ، وقال مقاتلُ : (مَعْنَاهُ : وَلَهُمْ مَا يُرِيدُونَ). وَقِيْلَ : معناهُ : مَن ادَّعى شيئاً فهو لهُ يحكمُ الله عَزَّ وَجَلَّ لأنَّهم ما يدَّعون إلاَّ ما يحسنُ.

(٠/٠)

سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨)

وقوله تعالى : { سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ } ؛ أي لهم سَلامٌ يسمعونَهُ من اللهِ ، ويُعلِمُهم بدوامِ الأمنِ والسلامة مع سُبوغِ النعمة والكرامةِ. ويقالُ : تُحَيِّيهم الملائكةُ عن اللهِ تعالى ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم }[الرعد : ٢٣-٢٤].
وعن جابرِ بن عبدِالله قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " بَيْنَمَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إذا سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ ، فَيَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ ، فإذا الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ، فَقَالَ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ } فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَلاَ يَلْتَفِتُواْ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يُحْجَبَ عَنْهُمْ ، فَيَبْقَى نُورُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ فِي دِيَارِهِمْ ".

(٠/٠)

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَامْتَازُواْ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ } ؛ عناهُ : تفرَّقُوا ، وقال السديُّ : معناهُ : (كُونُوا عَلَى حِدَةٍ) ، ومقاتلُ : (مَعْنَاهُ : اعْتَزِلُواْ الْيَوْمَ يَعْنِي فِي الآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِين). وقال الزجَّاجُ : (مَعْنَاهُ : تَفَرَّدُواْ

عَنِ الْمُؤْمِنِينَ). ومعنى الآيةِ : أنه يقالُ للمُجرِمين : تَمَيَّزُوا عنِ المؤمنين ، وذلك أنَّ الخلقَ كلَّهم يُحشَرون مختلطِين.

(٠/٠)

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يابَنِي ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشَّيطَانَ } ؛ أي أَلَمْ آمُرْكُم وأُوصِ إليكم ، وقال الزجَّاجُ : (مَعْنَاهُ : أَلَمْ أُقَدِّمْ لَكُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُواْ الشَّيْطَانَ ، أيْ لاَ تُطِيعُواْ الشَّيْطَانَ ، وَمَنْ أطَاعَ شَيْئاً فَقَدْ عَبَدَهُ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } ؛ أي عدوٌّ ظاهرُ العداوةِ ، أخرجَ أبوَيكم من الجنَّة ، { وَأَنِ اعْبُدُونِي } ؛ أي أطِيعُونِي ووحِّدونِي ، { هَاذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } ؛ أي طريقٌ مستقيم قائمٌ ، يعني دينَ الإسلامِ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً } ؛ أي ولقد أضَلَّ الشيطانُ منكم أُمَماً كثيرةً ، وَقِيْلَ : خَلْقاً كثيراً.
قرأ عليٌّ رضي الله عنه (جِبْلاً كَثِيراً) بسكون الباءِ مخفَّفاً ، وقرأ عاصمُ ونافع وأيوب : (جِبلاًّ) بكسرِ الجيم والباءِ وتشديد اللامِ. وقرأ يعقوبُ بضمِّ الجيمِ والباء وتشديدِ اللام ، وقرأ ابنُ عامرٍ وأبو عمرو : (جُبْلاً) بضمِّ الجيمِ وسكون الباء مخفَّفاً ، وقرأ الباقون بضمِّ الجيمِ والباء وتخفيفِ اللام. وكلُّها لغاتٌ ، ومعناها الخلقُ والجماعةُ.
وقولهُ تعالى : { أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ } ؛ أي أفَلَم تعقِلُوا ما رأيتُم من الأُمَم إذ أطَاعُوا إبليسَ وعَصَوا الرَّسُولَ فأهلَكُواْ.

(٠/٠)

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَاذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ } ؛ أي يقالُ لَهم حين دَنَوا من النار : { هَاذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ } بها في الدُّنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ } ؛ أي إلزَمُوها اليومَ بكُفرِكم ، وقَاسُوا حرَّها ، وقولهُ تعالى { الْيَوْمَ } يعني يومَ القيامةِ.

(٠/٠)

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)

وقولهُ تعالى { الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ } ؛ وذلك أنَّهم يُنكِرُون الشِّركَ فيقولون : واللهِ ربنا ما كُنَّا مُشرِكين ، فيختِمُ اللهُ على أفواهِهم ، { وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ } ؛ وتكلَّمت جوارحُهم فشَهِدَتْ عليهم بما عَمِلوا ، وقولهُ تعالى : { وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } ؛ قال عقبةُ بن عامرٍ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " أوَّلُ عَظْمٍ يَنْطِقُ مِنَ الإنْسَانِ فَخِذُهُ مِنْ رجْلِهِ الشِّمَالِ " ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قالَ : " أوَّلُ مَا تَكَلَّمَ مِنَ الإنْسَانِ فَخِذُهُ وَكَفُّهُ ".

(٠/٠)

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦)

وقولهُ تعالى : { وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ } ؛ أي ولو نشاءُ ذهَبنا أعيُنَهم وجعلنَاها بحيث لا يبدُو لها شِقّاً ولا جِفْناً ، والمعنى : ولو نشاءُ لأعمَيناهُم في أسواقِهم ومجالسِهم بتكذيبهم إيَّاكَ يا مُحَمَّدُ كما فعَلنَا بقومِ لُوطٍ حين رَاوَدُوهُ عن ضَيفِهِ. وقولهُ تعالى : { فَاسْتَبَقُواْ الصِّرَاطَ } ؛ فغَلَبُوا السَّبقَ وتبادَرُوا إلى الطريقِ إلى منازلهم ، { فَأَنَّى يُبْصِرُونَ } ؛ لو فعَلنا ذلك بهم.

(٠/٠)

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧)

وقولهُ تعالى : { وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ } ؛ أي في منازلهم فصيَّرناهم قردةً وخنازيرَ وحجارةً ليس فيها روحٌ ، { فَمَا اسْتَطَاعُواْ مُضِيّاً وَلاَ يَرْجِعُونَ } ؛ أي لا يقدِرُون على ذهابٍ ومجيءٍ ، والْمَسْخُ في اللغة نِهَايَةُ التبديل.

(٠/٠)

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)

قولهُ : { وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ } ؛ أي ومَن نُطوِّلُ عُمرَهُ في الدُّنيا نردهُ إلى الحالةِ الأُولى من الضَّعفِ ، قال الزجَّاجُ : (مَعْنَاهُ : مَنْ أَطَلْنَا عُمُرَهُ نَكَّسْنَا خَلْقَهُ ، فَصَارَ بَدَلُ الْقُوَّةِ ضَعْفاً ، وَبَدَلُ الشَّبَاب هَرَماً) { أَفَلاَ يَعْقِلُونَ } ؛ أي القادرَ على ردِّ البشرِ من حالة القوَّة والكمالِ ؛ أي حالِ الضَّعفِ وزوالِ العقل ، قادرٌ على إعادةِ الخلقِ بعد الموت.
ومَن قرأ (تَعْقِلُونَ) بالتاءِ فهو على مُخاطَبة الكفارِ. قرأ عاصمٌ وحمزة والأعمش : (نُنَكِّسْهُ) بالتشديدِ ، وقرأ غيرُهم بالتخفيفِ وفتح النونِ.

(٠/٠)

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ } ؛ إن كفارَ مكَّة قالُوا للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : إنه شاعرٌ ، وإنَّ القرآنَ شِعرٌ ، فأكذبَهم اللهُ بقولهِ تعالى { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ } أي وما يتسهلُ

له ذلك ، وما كان يتَّزِنُ له بيتُ شِعرٍ جرَى على لسانهِ مُنكِراً.
قال الحكيمُ : (كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَتَمَثَّلُ بقَوْلِ الْعَبَّاسِ بْنِ مَرْدَاسَ : أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُب دِ بَيْنَ الأَقْرَعِ وَعُيَيْنَةَقَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِنَّمَا هُوَ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ ، فَقَامَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ وَقَبَّلَ رَأسَهُ وَقَالَ : صَدَقَ اللهُ { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ }.
وعن الحسنِ رضي الله عنه : " أَنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَتَمَثَّلُ بهَذا الْبَيْتِ : "كَفَى بالإِسْلاَمِ وَالشَّيْب نَاهِياً " فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِنَّمَا قَالَ الشَّاعِرُ (كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلاَمُ لِلْمَرْءِ نَاهِياً) فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ } ".
وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ؛ " أَنَّهَا سُئِلَتْ هَلْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَتَمَثَّلُ بشَيْءٍ مِنَ الْشِّعْرِ ؟ فَقَالَتْ : كَانَ الشِّعْرُ أَبْغَضَ الْحَدِيثِ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَتَمَثَّلْ بَيْتاً مِنَ الشِّعْرِ إِلاَّ بَيْتَ طَرْفَةَ : " سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّد بالأَخْبَار ". فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَيْسَ هَذا هَكَذا يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّمَا هُوَ : وَيَأْتِيكَ بالأَخْبَار مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ ، فَقَالَ : " إِنِّي لَسْتُ بشَاعِرٍ وَمَا يَنْبَغِي لِيَ الشِّعْرُ " ".
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ } ؛ أي ما القرآنُ إلاَّ ذكرٌ وموعظة ، فيه الفرائضُ والحدود والأحكامُ ، { لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً } ؛ قرأ نافعُ وابن عامر بالتاءِ ، والخطابُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقرأ الباقون بالياءِ ، يعني ليُنذِرَ القرآنُ مَن كان حيّاً ، يعني مُؤمِناً حيَّ القلب ، لأن الكافرَ كالميِّتِ في أنه لا يتدبَّرُ ولا يتفكَّرُ ، { وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ } ؛ أي وتجبُ الحجَّةُ بالقرآنِ على الكافرين.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ } ؛ معناهُ : أوَلَم يُشاهِدوا أنَّا خلَقْنا لَهم مما تولَّينا خلقَهُ بإيداعِنا وإنشائنا ؟ لم يُشاركنا في خلقِ ذلك شريكٌ ولا مُعِينٌ.
وذكرُ الأيدِي هَهُنا يدلُ على انفرادهِ بما خلقَ ، والمعنى أوَلَمْ يرَوا أنَّا خلَقْنا لَهم مما عمِلناهُ بقدرَتِنا ؟ لا مما عملتْهُ أيدي مالكِيها أنعاماً وهو الإبلُ والبقر والغنم لها مالِكون وضابطون ، قاهرون لها يصرِّفونَها كيف يشاؤُون ، واليدُ تُذكَرُ ويرادُ بها القدرةُ وإظهار صُنعهِ.

(٠/٠)

وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ } ؛ أي لَم يخلُقِ الأنعامَ نافرةً من بني آدمَ ولا يقدِرون على ضَبطِها ، بل هي مسخَّرةٌ لهم ، والمعنى : وسخَّرنَاها لهم مع قوَّتِها وضعفِهم ، { فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ } ؛ أي مَركُوبُهم ، { وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ } ؛ من لحومِها ، فقولهُ { فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ } يعني الإبلَ ، قال عروةُ : (فِي مُصْحَفِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا (رُكُوبَتُهُمْ)) والرَكُوبُ والرَكُوبةُ واحدٌ ، مثل الحمُولِ والحمولَةِ ، يقالُ : هذه الجِمَالُ ركوبةُ القومِ وركوبتهم ، وهذه النُّوقُ حلوبةُ القومِ وحلوبُهم.

(٠/٠)

وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ } ؛ أي مِن أصوافِها وأوبارها وأشعارها ونسلِها ومشارب من ألبانِها ، { أَفَلاَ يَشْكُرُونَ } ؛ ربَّ هذه النعمةِ فيُوحِّدونَهُ جميعهم وأفرادهم.
فقالَ : { وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ } ؛ أي عَبَدوا من دونِ الله أصناماً رجاءَ أن يَنصرُونَهم ويشفَعُوا لهم ، كما قالُوا : ما نعبدُهم إلاَّ لِيُقرِّبُونا إلى اللهِ زُلفَى ، فنفَى اللهُ نصرَهم بقولهِ : { لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ } ؛ أي لا تقدرُ آلِهتُهم أن تَمنعَهم من العذاب ، { وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ } ؛ أي لهم الأصنامُ كالعبيدِ للأرباب قيامٌ بين أيدِيهم ينتصرون بهم ، والأصنامُ لا تقدرُ على نصرِهم ولا نصرِ أنفسهم. ويجوزُ أن يكون معناهُ : والمشرِكون مُحضَرون من الأصنامِ في النار توبيخاً لَهم وتعذيباً للذين كانوا يَعبُدونَهم. وَقِيْلَ : معناهُ : إن المشركين ينصُرون الأصنامَ وهي لاَ تستطيع نصرَهم.

(٠/٠)

فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ } ؛ أي لا يُحزِنُكَ يا مُحَمَّدُ قولَ كفَّار مكَّة في تكذيبهم إياكَ وقولِهم

إنكَ شاعرٌ ، { إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ } ؛ في نُفوسِهم من تكذيبهم ومَكرِهم وخيانتِهم ، { وَمَا يُعْلِنُونَ } ؛ لكَ من العداوةِ بألسِنَتهم. والمعنى : إنا نُثَبتُكَ ونُجازيهم.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ } ؛ يعني " أُبيَّ بن خلَفٍ الجمحيِّ خاصمَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في إنكار البعث ، وأتاهُ بعظمٍ قد بَلِيَ وجعلَ يُفَتِّتُهُ ويُذرِّيهِ في الريَّاحِ ، ويقولُ في أصحابِهِ : أيُحيي اللهُ هذا العظمَ بعد ما رمَّ! وبقولِهم : إنَّ مُحَمَّداً يقولُ إذا مِتْنا وصِرْنا تُراباً نُعَادُ ، وتُنفَخُ فينا الروحُ ؛ إنَّ هذا الشيءَ عجيبٌ! مَن يقدرُ أن يُحيي العظامَ وهي رميمٌ؟! ، فقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم : " يُحيي اللهُ هَذا وَيُمِيتُكَ وَيُدْخِلُكَ النَّارَ " فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ.
والمعنى : أوَلَمْ يرَ الإنسانُ أنَّا خلقناهُ مع الحياةِ والعقلِ والحواسِّ من نطفةٍ فبلَّغنَاهُ ؛ أي أن صارَ خَصْماً جَدِلاً ظاهرَ الخصومةِ ، وهذا تعجيبٌ من جهلِهِ وإنكارٌ عليه خصومتَهُ ؛ أي لا يتفكَّرُ بدءَ خلقِهِ.

(٠/٠)

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)

وقولهُ تعالى : { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ } ؛ أي ضربَ المثلَ في إنكار البعث بالعظمِ البالي يفته بيدهِ ، ونَسِيَ خَلقَنا إياهُ وبعدَ أن لَم يكن شيئاً حتى صارَ مُخاصِماً فـ { قَالَ مَن يُحيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } ؛ أي شيءٌ بالٍ قَاسٍ ، قدَّرَ اللهَ تعالى بقُدرةِ الخلقِ ، فأنكرَ إحياءَ العظم البالي ما لم يكن ذلك في مقدور البشر.

(٠/٠)

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّد : الذي خلقَ من العدمِ إلى الوجودِ قادرٌ على الإعادةِ بعد المماتِ ، وهو عليمُ بالخلقِ بعد أنْ خلَقَهم.

(٠/٠)

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَآ أَنتُم مِّنْه تُوقِدُونَ } ؛ في هذه الآيةِ زيادةُ بيانٍ عن عجيب صُنعهِ ، ومعنى ذلك الزُّنُودُ التي كانت العربُ يُوَرُّونَ منها النارَ ، كانوا إذا احتَاجُوا إلى النارِ أخَذُوا غُصناً من شجرِ الْمَرْخِ وغُصناً من شجرِ العَفَار وهو الأدينُ ، فضَرَبُوا أحدَهما بالآخرِ فخرجت النارُ ، فقيلَ لَهم : إنَّ الذي جمعَ بين الماءِ والنار في الشَّجرِ الأخضرِ قادرٌ على تضادِّهما ، لا يطفئُ الماءُ النارَ ، ولا تحرقُ النارُ الشجرَ ، قادرٌ على أن يبعثَكم ويرُدَّ أرواحَكم إلى أجسادِكم. ويقالُ : ما مِن شجرةٍ إلاَّ وفيها نارٌ غيرَ شجرة العِنَّاب ، ولذلك يختارُها القصَّارون لدقِّ الثياب عليها.
ثُم ذكرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : { أَوَلَيْسَ الَذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ } ، ما هو أعظمُ خَلقاً من الإنسانِ فقال : { بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم } ؛ معناهُ : إن الذي قَدِرَ على خلقِ السَّموات والأرضِ في عِظَمِهما وعجائبهما يقدرُ على إعادةِ خلقِ البشرِ ؛ لأن خلقَ السَّموات والأرضِ وما فيهما أبلغُ في القدرةِ من إحياءِ الموتَى ، أفَليسَ القادرُ عليهما قادرٌ على الإعادةِ ؟ { بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ } ، يخلقُ خَلقاً بعد خلقٍ ، { الْعَلِيمُ } ، بجميعِ ما خلقَ.

(٠/٠)

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } ؛ معناهُ : إنما أمرهُ إذا أرادَ شيئاً من البعثِ وغيرِهِ أن يقولَ له : كُنْ بغيرِ واسطةٍ. فإن قِيْلَ : لِمَ لا ينصبُ قوله تعالى (فَيَكُونُ) على جواب

الأمر كما يقالُ : آتِني فأُكرِمَكَ ، قُلنا : ذاك مستقبلٌ مستحبٌّ ، الثاني : بوجوب الأدنَى ، وهذا كائنٌ مع إرادةِ الله تعالى ، فالفعلُ واجبٌ.

(٠/٠)

فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ } ؛ نَزَّهَ اللهُ تعالى أنْ يوصفَ بغيرِ القدرةِ ؛ أي تنْزِيهاً للَّذي له القدرةُ على كلِّ شيءٍ مِن أن يوصفَ بغيرِ القدرة ، وَ { مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ } أي مَلِكُ كلِّ شيءٍ ، والقدرةُ على كلِّ شيء ، { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ؛ في الآخرةِ بعدَ الموتِ فيجزِيَكم بأعمالِكم.

(٠/٠)

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢)

{ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا } ؛ يعني صُفوفَ الملائكةِ في السَّماءِ كصُفوفِ الخلقِ في الدُّنيا للصَّلاةِ ، وهذا قَسَمٌ أقسمَ اللهُ تعالى بالملائكةِ التي تَصُفُّ أنفُسَها في السَّماء ، قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيدُ الْمَلاَئِكَةَ صُفُوفاً لاَ يُعْرَفُ كُلُّ مَلَكٍ مِنْهُمْ مِنْ إلى جَانِبه ، لَمْ يَلْتَفِتْ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ). وَقِيْلَ : اقسمَ اللهُ بصُفوفِ الملائكةِ تَصُفُّ أجنحتَها في الهواءِ واقفةً فيه حتى يأمُرَ اللهُ بما يريدُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً } ؛ أرادَ به الملائكةَ الذين يَزجُرون السَّحابَ فيسُوقُونَهُ إلى الموضعِ الذي أُمِرُوا به ويُؤَلِّفُونَهُ ، وقال قتادةُ : (يَعْنِي زَوَاجِرَ الْقُرْآنِ) وَهُوَ كُلُّ مَا يَنْهَى وَيَزْجُرُ عَنِ الْقَبِيحِ.

(٠/٠)

فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً } ؛ يعني جبريلَ والملائكةَ يَتْلُونَ كتابَ اللهِ وذكره ، وقولهُ تعالى : { إِنَّ

إِلَاهَكُمْ لَوَاحِدٌ } ؛ جوابُ القسمِ ، وإنما وقعَ القسَمُ بهذه الملائكةِ ؛ لأن في تعظيمِها تَعظِيماً للهِ ، وَقِيْلَ : هذا أقسمَ باللهِ تعالى على تقديرِ : ورب الصافَّات ، إلاَّ أنه حُذفَ لما يقتضِي من التعظيمِ ، وكذلك{ وَالذَّارِيَاتِ }[الذاريات : ١]{ وَالطُّورِ }[الطور : ١]{ وَالنَّجْمِ }[النجم : ١] وغيرِ ذلكَ.

وقد تضمَّنت الآيةُ تشريفَ الملائكةِ وتعظيمَ الاصطفافِ في الصَّلاة ، وفي الحديثِ : " إنَّهُمْ يَصْطَفُّونَ فِي صَلاَتِهِمْ فِي السَّمَاءِ وَيُسَبحُونَ اللهَ تَعَالَى وَيَذْكُرُونَهُ ، وَيَرْفَعُونَ أصْوَاتَهُمْ بقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الصَّلاَةِ كَمَا يَصْطَفُّ النَّاسُ فِي صَلاَتِهِمْ " قال مقاتلُ : (وَذَلِكَ أنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالُواْ : أجَعَلَ الآلِهَةَ إلَهاً وَاحِداً ، فَأَقْسَمَ اللهُ بهَؤُلاَءِ أنَّ إلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ لَيْسَ لَهُ شَرِيْكٌ).

(٠/٠)

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا } ؛ أي خالقهما ومشيَتِهما وتدبُّرِ ما بينهما ، { وَرَبُّ الْمَشَارِقِ } ، مالِكُ المشارقِ ، وإنما قالَ هَهُنا : (رَبُّ الْمَشَارِقِ) لأن للشمسِ ثلاثُمائة وستِّين مَشرِقاً ، تطلعُ كلَّ يومٍ من مشرقٍ ، وتغربُ في مغربٍ ، فإذا تحوَّلت السَّنةُ عادت إلى المشرقِ والمغرب ، فإنما أرادَ جانبَ المشرقِ وجانبَ المغرب. وَقِيْلَ : أرادَ به الجنسَ ، وَقِيْلَ : أرادَ به مشرِقَها ومغربَها في يومٍ واحد. وأما قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ }[الرحمن : ١٧] فقيل : إنما أرادَ به مشرقَ الشمسِ ومشرقَ القمرِ. وَقِيْلَ : أرادَ بذلك مشرقَ الشتاءِ والصيفِ ومغرِبَهَا. وشروقُ الشمسِ : طلُوعُها ، يقال : شَرَقَتْ إذا طَلَعَتْ ، وَأشرَقَت اذا أضاءَتْ.

(٠/٠)

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ } ؛ أي زيَّنا السماءَ التي هي أدنَى إليكم مِن سائرِ السَّموات بضوءِ الكوَاكب ونُورها ، قرأ أبو بكر (بزِينَةٍ) بالتنوينِ ونصبَ (الْكَوَاكِبَ) عمل الزِّينة في الكواكب ؛ أي بأنْ زيَّنا الكواكبَ فيها ، وقرأ حمزةُ وحفص (بزِينَةِ) بالتنوينِ وخفضِ (الْكَوَاكِب) على البدلِ ؛ أي بزينةٍ بالكواكب ، وقرأ البافون بالإضافة.

(٠/٠)

وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ } ؛ أي جَعَلَ الكواكبَ حِفْظاً من كلِّ شيطان متجرِّدٍ للشرِّ ، يُقذفون بها إذا استَرَقوا السمعَ ، والمارِدُ : الخبيثُ الْخَالِي من الخيرِ ، والْمَارِدُ : هو الْمُتَمَرِّدُ ، قال الحسنُ : (وَهَذا دَلِيلٌ أَنَّهُ إِنَّمَا يُرْجَمُ بالْكَوَاكِب بَعْضُ الشَّيَاطِينِ وَهُمُ الْمَرَدَةُ).

(٠/٠)

لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى } ؛ كأَنَّهُ قالَ : (لاَ يَسْمَعُونَ) أي لا يسمعُ مَرَدَةُ الشياطين غلى الملائكةِ ولا إلى كلامِهم ، قال الكلبيُّ : (مَعْنَى الآيَةِ : لِكَيْلاَ يَسْمَعُوا إِلَى الْكَتَبَةِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ). والملأُ الأعلى : همُ الملائكةُ ؛ لأنَّهم في السَّماءِ ، قرأ أهلُ الكوفةِ (يَسَّمَّعُونَ) بالتشديدِ أي يسمَعُون. وقولهُ تعالى : { وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ } ؛ أي يُرمَون من كلِّ جانبٍ بالشُّهُب ، يعني أنَّ الشياطين يُرمَون بالشُّهب عندَ دُنُوِّهِمْ من السَّماء لاستماعِ كلامِ الملائكة في تدبُّر أمُور الدُّنيا. يُرمَون بالشُّهب من نواحِي السَّماء وأطرافِها.

(٠/٠)

دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩)

وقولهُ تعالى : { دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ } ؛ أي طَرْداً وإبْعَاداً ، يقال : دَحَرَهُ دَحْراً ودُحُوراً ؛ إذا طَرَدَهُ وأبعدَهُ ، ولهم مع ذلك في الآخرةِ عذابٌ وَاصِبٌ أي دائمٌ لا ينقطعُ ، وَقِيْلَ : معنى الواصِب

الموجِعِ ، من الوَصَب وهو الوجَعُ ، وَقِيْلَ : الوجَعُ : معنى الآية : أنَّهم يُدحَرُونَ ويُبعَدُون عن تلك المجالسِ التي يسترِقُون السمعَ { وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ } أي دائمٌ إلى النفخةِ الأُولى.

(٠/٠)

إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ } ؛ أي إلاَّ منِ اختلسَ الكلمةَ من كلامِ الملائكة مُسَارَقةً ، { فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ } ؛ أي لَحِقَهُ وأصابَهُ نارٌ مضيئة تُحرِقهُ ، والثاقبُ : النَّيِّرُ المضيءُ ، وهذا قولهُ إلاَّ مَنِ استرقَ السمعَ مُختَلِساً. والْخَطْفُ : أخذُ الشيءِ بسرعة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ } أي نجمٌ وهَّاجٌ متوقِّد مضيٌ.

(٠/٠)

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ } ؛ قبلَهم من الأُمم الماضيةِ ، كانت الأُمم الماضية أشدُّ منهم قوَّةً وآثاراً في الأرضِ ، فأهلكناهم بكُفرِهم وتكذيبهم ، فكيف يأمَنُ هؤلاءِ الهلاكَ مع إصرارهم على الكفر وهم أضعفُ مِمَّن قبلَهم.
ثم ذكرَ خلقَ الإنسان فقال : { إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ } ؛ أي خلَقنا أصلَهم وهو أبُو البشرِ آدمَ من طينٍ لاَزِبٍ لاصِقٍ ثابت ، يقالُ : له ضربَةُ لاَزِبٍ ، وضربَةُ لازِمٍ ، وإذا خلَقَ أصلَهم من طينٍ لازِمٍ فكيف لا يُقِرُّونَ بقدرةِ الله تعالى على البَعثِ.

(٠/٠)

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ } ؛ أي بل عَجِبتَ يا مُحَمَّد من إنكارهم للبعث مع ظُهور ما وَجَبَ من الحجَّة والأدلة ، ويقالُ : بل عَجِبَ من جهلِهم حيث اختارُوا ما تجبُ به النارُ لهم وتركوا ما يجب لهم به الجنَّة ، وهم يسخَرون من بعثَتِكَ ، ويستهزِئون بكلامِكَ بالقرآنِ.

وقرأ حمزةُ والكسائي وخلَف بضمِّ التاء ، وهي قراءةُ ابنِ مسعود على معنى أنَّهم قد حَلُّوا محلَّ مَن تعجَّبَ منهم ، وقال الحسنُ بن الفضل : (الْعَجَبُ مِنَ اللهِ عَلَى خِلاَفِ الْعَجَب مِنَ الآدَمِيِّينَ ، وَإِنَّمَا مَعْنَى الْعَجَب هَهُنَا هُوَ الإِنْكَارُ وَالتَّعْظِيمُ ، وَقَدْ جَاءَ الْخَبَرُ : " أنَّ اللهَ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّاب لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ ").

وَقِيْلَ : إن الجنيدَ سُئِلَ عن هذه الآيةِ فقال : (اللهُ لاَ يَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ ، وَلَكِنَّ اللهَ وَافَقَ رَسُولَهُ لَمَّا عَجِبَ رَسُولُهُ فَقَالَ : { وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ }[الرعد : ٥] أيْ هُوَ كَمَا تَقُولُهُ) قال شُرَيحُ : (إنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ لاَ يُعْلَمُ ، وَاللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ عِلْمُ كُلِّ شَيْءٍ).

وقرأ الباقونَ (بَلْ عَجِبْتَ) بفتحِ التاء على خطاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم. و(بَلْ) معناه : تركُ الكلامِ الأوَّلِ والآخرِ في كلامِ آخر ، كأنَّهُ قال : دَعْ يا مُحَمَّد ما مضَى عجيبٌ من كفار مكَّة حين أوحيَ إليك القرآنُ ولَم يؤمنوا بهِ.

وقولهُ تعالى { وَيَسْخَرُونَ } لأنَّ سُخريَتَهم بالقرآنِ تركُ الإيمانِ به ، قال قتادةُ : (عَجِبَ نَبيُّ اللهِ مِنْ هَذا الْقُرْآنِ حِينَ نَزَلَ عَلَيْهِ ، وَظَنَّ أنَّ كُلَّ مَنْ سَمِعَهُ آمَنَ بهِ ، فَلَمَّا سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ وَلَمْ يُؤْمِنُواْ بهِ وَسَخِرُواْ مِنْهُ ، عَجِبَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مِنْ ذلِكَ ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : عَجِبْتَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ عَلَيْكَ وَتَرْكِهِمُ الإِيْمَانَ).

(٠/٠)

وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا ذُكِّرُواْ لاَ يَذْكُرُونَ } ؛ وإذا وُعِظُوا بالقرآنِ لا يتَّعظون ، { وَإِذَا رَأَوْاْ آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ } ؛ إذا رأوا معجزةَ مثلَ انشقاقِ القَمَرِ وغيره اتَّخذوهُ سُخريَةً ، ونسَبُوا ما دلَّهم على توحيدِ الله تعالى إلى السِّحرِ ، { وَقَالُواْ إِن هَاذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ }. وقالوا أيضاً على وجهِ الإنكار : { أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا } ؛ صِرْنا

؛ { تُرَاباً وَعِظَاماً } ؛ بَالِيَةً ، { أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } ؛ أي أنُبعَثُ بعدَ الموتِ ، { أَوَ آبَآؤُنَا الأَوَّلُونَ } ؛ الذين مضَوا قبلَنا ، { قُلْ } ؛ لَهم يا مُحَمَّد : { نَعَمْ } ؛ تُبعَثون { وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ } ؛ أنتُم وآباؤُكم ؛ أي وأنتم أذلاَّءُ صاغِرُون ، والدُّخُورُ أشَدُّ الذُّلِّ.

ثم ذَكَرَ أنَّ بعثَهم يقعُ بزَجرَةٍ واحدةٍ ؛ أي بصَيحَةٍ واحدةٍ ، فإذا هم قيامٌ ينظُرون ماذا يُؤمَرون به ، وقولهُ تعالى : { فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ } ؛ أي فإنَّما قضيةُ البعثِ صيحةٌ واحدة من إسرافيلَ ، يعني نفخةَ البعثِ ، { فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ } ؛ أي بُعِثَ الذي كذبوا به.

فلما عايَنُوا البعثَ ذكَرُوا قولَ الرسُلِ في الدُّنيا أنَّ البعثَ حقٌّ ، فدَعَوا بالويلِ ، { وَقَالُواْ ياوَيْلَنَا } ؛ من العذاب ، { هَاذَا يَوْمُ الدِّينِ } ؛ أي هذا يومُ الحساب والجزاء نُجازَى فيه بأعمالِنا. فقالت الملائكةُ : { هَاذَا يَوْمُ الْفَصْلِ } ؛ يومُ القضاءِ ، { الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } ؛ يُفْصَلُ به بين الْمُسِيءِ والْمُحْسِنِ ، والْمُحِقِّ والْمُبْطِلِ ، وهو اليومُ الذي كنتم به تكذِّبون في الدُّنيا.

(٠/٠)

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { احْشُرُواْ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ } ؛ أي فيقالُ لِخَزَنَةِ جهنَّم : اجْمَعُوا الذين ظلَمُوا وقُرنَاءَهم من الشَّياطين الذين قبَضُوا لضَلالَتِهم ، ويقالُ : أرادَ بالأزواجِ نُظَراءَهُمْ وأشكالَهم من الأتباعِ ، والزَّوجُ في اللغة : النظيرُ ، ومن ذلك : زوجَانِ من الْخُفِّ. ويقالُ : أرادَ بالأزواجِ نِساءَهُم ، سواءاً أكانت امرأةُ الكافرِ كافرةً أو منافقةً ، والمعنى : اجمعوا الذين ظلَمُوا من حيث هم إلى الوقفِ للجزاء والحساب ، والمرادُ بالذين ظلَمُوا المشركينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ } ؛ يعني اجْمَعُوا المشركين وأتباعَهم وأوثانَهم وطواغيتَهم وأصنامهم التي كانوا يعبدُونَها من دون اللهِ ، قال مقاتلُ : (يَعْنِي إبْلِيسَ وَجُنُودَهُ) فَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشَّيطَانَ }[يس : ٦٠]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ } ؛ أي سُوقُوهم واذهَبُوا بهم إلى فريقِ الجحيم.

فلما انطُلِقَ بهم إلى جهنَّم أرسلَ مَلَكٌ يقولُ لِخَزَنَةِ جهنَّم : { وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ } ؛ أي اسألُهم في موضعِ الحساب ، يُسأَلُوا ويعرفوا أعمالَهم ، وهذا سؤالُ توبيخٍ لا سؤالُ استفهامٍ ، قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ عَنْ أعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَأقَاوِيلِهِمْ) ، وقال مقاتلُ : (تَسْأَلُهُمْ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ، أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ).

ويجوزُ أن يكون هذا السؤالُ ما ذُكِرَ بعدُ ، وهو قولهُ : { مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ } ؛ أي يقالُ لَهم على سبيلِ التوبيخِ : ما لكم لا ينصرُ بعضُكم بعضاً كما كنتم في الدُّنيا.

وذلك أنَّ أبا جهلٍ لَعَنَهُ اللهُ قالَ يومَ بدرٍ : نحنُ جميعٌ منتصر ، فقيلَ لهم ذلكَ اليومِ : ما لَكم غير متناصِرين ، وأنتم زعَمتُم في الدُّنيا أنكم تَنَاصَرون ، فاللهُ تعالى قال : { بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ } ؛ أي مُنقَادُون خاضِعون لِمَا يرادُ بهم ، والمعنى : هم اليومَ أذِلاَّءُ منقادون ، لا حيلةَ لهم ، فالعابدُ منهم والمعبودُ لا يحمِلُ عن أحدِهم أحداً ولا يمنعُ أحدٌ عن أحدٍ.

(٠/٠)

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ } ؛ أي أقبلَ الشياطين والمشركون يسألُ بعضُهم بعضاً سؤالَ توبيخٍ ، { قَالُواْ } ، فيقولُ المشركون للشياطين : { إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ } ؛ فتُزَيِّنوا لنا الضَّلالةَ ، وتَردُّوننا عن الخيرِ ، { قَالُوا } ، فيقولُ لهم الشياطين : { بَلْ لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } ؛ إنما كان الكفرُ مِن قِبَلِكم ، { وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ } ؛ أي من قوَّةٍ فنُجبرَكم على الكفرِ ، { بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ } ؛ أي مُتجاوزين ضَالِّين.

وقال الحسنُ فِي مَعْنَى الآيَةِ : (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ؛ أيْ أقْبَلَ التَّابعُونَ عَلَى الْمَتْبُوعِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ ، فَيَقُولُونَ : لَوْلاَ أنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ، فَيَقُولُ لَهُمُ الرُّؤَسَاءُ : مَا أجْبَرْنَاكُمْ عَلَى الْكُفْرِ بَلْ كَفَرْتُمْ بسُوءِ اخْتِيَارِكُمْ ، فَيَقُولُ لَهُمُ التَّابعُونَ : إنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ؛ أيْ مِنْ أقْوَى الْجِهَاتِ ، وَذلِكَ أنَّ جِهَةَ الْيَمِينِ أقْوَى مِنْ جِهَةِ الشِّمَالِ ، كَمَا أنَّ الْيَمِينَ أقْوَى مِنَ الشِّمَالِ) وتقديرهُ : خدَعتُمونا بأقوَى الوجُوهِ ، واليمينُ هي القوَّة ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ }[الصافات : ٩٣] أي بالقوَّة.

وقال قتادةُ : (مَعْنَى : إنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ؛ أيْ تَمْنَعُونَنَا عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى) فَيَقُولُ الرُّؤَسَاءُ : لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ فِي الأَصْلِ ، إذا لَمْ تَكُونُوا تُرِيدُونَهُ ، فَكَيْفَ إجْبَارُكُمْ عَلَيْهِ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سَلْطَنَةِ الإجْبَار عَلَى الْكُفْرِ ، { فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ } ؛ أي فوجبَ علينا جَميعاً كلمةُ ربنا بالعذاب والسُّخط ، وهي قَوْلُهُ تَعَالَى : { لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ }[الأعراف : ١٨].

وقوله : { إِنَّا لَذَآئِقُونَ } ؛ أي لذائِقُوا العذاب ، فالضَّالُّ والْمُضِلُّ في النار ، وقولهُ تعالى : { فَأَغْوَيْنَاكُمْ } ؛ أي أضْلَلْنَاكم عن الهدَى ودعوناكم إلى الغِوَايَةِ ، { إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ } ، بأنفُسِنا.

(٠/٠)

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)

يقولُ الله تعالى : { فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ } ؛ أي لا ينفَعُهم التنازعُ والتخاصمُ ، وكِلاَ الفريقين مشتركون في العذاب ، { إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ } ؛ أي هكَذا نُعاقِبُ المشركين.
وقولهُ تعالى : { إِنَّهُمْ كَانُواْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ } ؛ أي إنَّهم كانوا يستَكبرون عن كلمةِ التوحيد ، { وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُواْ آلِهَتِنَا } ؛ أنَترِكُ آلِهَتنا وعِبادتَها ، { لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ } ؛ يَعنُونَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم نَسَبوهُ إلى الشِّعرِ والجنون.
فأكذبَهم اللهُ تعالى بقولهِ : { بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ } ؛ أي ما هو يقولِ شاعر وما صَاحِبُكم بمجنون { بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ } أي بالقُرآن والتوحيدِ ، { وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ } الذين كانوا قبلَهُ ؛ أي أتَى بما أتَوا بهِ من الأيمانِ وقول الحقِّ.

(٠/٠)

إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّكُمْ لَذَآئِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ } ؛ أي يقالُ لَهم : إنَّكم أيها المشركون لذائِقُوا العذاب الأليمِ على شِرْكِكُم ونِسبَتِكُم النبيَّ صلى الله عليه وسلم إلى الشِّعر والجنونِ ، { وَمَا تُجْزَوْنَ } ؛ في الآخرةِ ، { إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ في الدُّنيا من الشِّرك.
ثُم استثنَى فقال : { إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } ؛ أي لكن عباد الله الموحِّدين ، فإنَّهم لا يُعذبون ، { أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ } ؛ أي يُجزَون بالبرِّ ما يستحقُّون ، وَقِيْلَ : لَهم رزقُهم فيها بُكرةً وعَشِيّاً.
وَقِيْلَ : الرزقُ المعلوم هو ما ذكرَهُ بعدَ هذا في قولهِ تعالى { فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ } ؛ والفَوَاكِهُ جَمعُ

فَاكِهَةٍ ، وعلى الثِّمار كُلِّها رَطِبها ويابسِها ، وهم مُكرَمون بثواب الله تعالى على السُّرُر ، { فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ } ؛ لا يرَى بعضُهم قَفَا بعضٍ ، { يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ } ؛ أي بآنِيَةٍ مملوءة من الشَّراب ، ولا تُسمَّى الآنيةُ كاساً إلاَّ إذا كان فيها الشرابُ ، والْمَعِينُ ههنا الخمرُ ، سُمِّيت مَعِيناً لأنَّها تجرِي هناكَ على وجهِ الأرضِ من العُيونِ كما تجرِي الماءُ فيها في غيرِ الأُخدُودِ.

(٠/٠)

بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦)

وقولهُ تعالى : { بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ } ؛ قال الحسنُ : (خَمْرُ الْجَنَّةِ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ ، لَيْسَتْ هِيَ عَلَى لَوْنِ خَمْرِ الدُّنْيَا ، وَلَكِنَّهَا بَيْضَاءُ لِرِقَّتِهَا وَنُورِهَا وَرَوْنَقِهَا وَصِفَائِهَا). وقولهُ تعالى { لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ } أي لذيذةٌ أو ذاتُ لذةٍ ، يقالُ شَرب لذ ولذيذٌ.

(٠/٠)

لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ فِيهَا غَوْلٌ } ؛ أي ليس في شُربها صُدَاعٌ ولا وجعُ بطنٍ ولا أذَى ، ولا تَغتَالُ عقولَهم فتذهبُ بها. ويقالُ للوجَعِ غَوْلٌ لأنه يؤدِّي إلى الهلاكِ ، وقولهُ تعالى : { وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ } ؛ أي ولا هُم يَسكَرُونَ ، يقالُ : نَزَفَ الرجلُ فهو مَنْزُوفٌ ونَزِيفٌ إذا سَكِرَ ، وقال الكلبيُّ : (يَعْنِي لاَ فِيهَا غَوْلٌ أيْ إثْمٌ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ }[الطور : ٢٣]). وقال ابنُ كَسيَان : (الْغَوْلُ الْمَعْصِرُ).

وقال أهلُ المعانِي : الغَوْلُ فسادٌ يلحَقُ في خفاءٍ ، يقالُ : اغتَالَهُ اغْتِيَالاً إذا فَسَدَ عليه أمرٌ فَسَدَ في خِفيَةٍ. وقولهُ تعالى { وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ } ، قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف بكسرِ الزاي ههنا ، وفي الواقعةِ ، ومعناهُ : لاَ ينفَدُ شرابُهم بل هو دائمٌ لَهم أبداً ، يقالُ : نَزَفَ الرجلُ إذا نَفَد شرابهُ ، ومَن قرأ بفتحِ الزاي فمعناهُ : لا يَسكَرُونَ منها ، يقالُ : نَزَفَ الرجلُ فهو مَنْزُوفٌ ونَزِيفٌ ؛ إذا سَكِرَ وزالَ عقلهُ.

(٠/٠)

وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ } ؛ أي يُعقَدُ لَهم مجلسُ الشَّراب ، ويُسقَوْنَ هذه الكؤوسَ اللَّذيذةَ ، وتحضرُهم حُورُ عِينٍ قاصِراتُ الطَّرْفِ ، قصرت أطرافُهن على أزواجهنَّ لا يبتغين بهم بَدَلاً ، لا ينظُرون إلى غيرِ أزواجهن ، والعِينُ جمعُ العين وهُنَّ كبارُ الأعيُن وحِسَانُها ، وقال الحسنُ : (اللاَّتِي بَيَاضُ عَيْنِهِنَّ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ ، وَسَوَادُهَا فِي غَايَةِ السَّوَادِ).
ومعنى الآيةِ : وعندَهم حَابسَاتُ أعيُنهن الأعين غاضَّات الجفُونِ قصرنَ أعيُنهن عن غيرِ أزواجهن ، فلا ينظُرن إلاَّ إلى أزواجهنَّ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { عِينٌ } أي كبارُ الأعيُن حسانُها ، واحدتُها عَيناءُ يقال : رجلٌ أعيَنُ ، وامرأةٌ عَيْنَاءُ ، ونساءٌ عِيْنٌ. وقولهُ تعالى : { عِينٌ } وامرأةٌ عَيْنَاءُ ونساءٌ عِينٌ.
وقولهُ تعالى { كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ } أي مستورٌ مَصُونٌ ، والبيضُ مُخُّ البيضةِ ، قال الحسنُ : (يُشْبِهْنَ بَيْضَ النَّعَامِ يَكِنُّهَا الرِّيشُ مِنَ الرِّيحِ) وهذا مِن تشبيهات العرب في وَصفِ النِّساء بالبيضِ ، فشَبَّهَ الأبياض أبدانَهن ببياضِ البَيض المكنون ، ويقالُ : أراد بالبيضِ المكنون ههنا البياضَ الذي في داخلِ القشرِ الخارج.

(٠/٠)

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ } ؛ أي يتحدَّثون في الجنةِ عن أمُور الدُّنيا ، { قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ } ؛ في جواب ما يسألُ عنه : { إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ } ؛ أي كان لِي صاحبٌ في الدُّنيا يقولُ لِي حين صدَّقتُ وهو منكِرٌ للبعثِ ، { يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ } ؛ بالبعثِ ، { أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً } ؛ باليةً ، { أَءِنَّا لَمَدِينُونَ } ؛ أي لَمَجزِيُّون محاسَبون ؟ وهذا استفهامُ إنكار ، والدِّينُ :

الحسابُ والجزاء ، كأنه يقول : إنَّ هذا الأمر ليس بكائنٍ. { قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ } ، قال قائل من أهل الجنة لأصحابه : هل تطَّلِعون على النار وعلى أهلِها فتنظُرون إلى هذا الذي كان قَريناً لِي وتعرِفُون حالَهُ ، فاطَّلَعَ هو بنفسهِ على النار وأهلِها فرأى قَرِينَهُ في وسَطِ الجحيمِ يُعذبُ بألوانِ العذاب. قال ابنُ عبَّاس : (وَذَلِكَ أنَّ فِي الْجَنَّةِ كُوَّةٌ يُنْظَرُ مِنْهَا إلَى أهْلِ النَّار) ، { فَاطَّلَعَ } ، هذا المؤمنُ ، { فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ } ؛ أي في وسطِ النار يُعذب.

فـ { قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ } ؛ أي أرَدتَ أنْ تُهلِكَني كهلاكِ الْمُتَرَدِّ من الشَّاهقِ ، وقال مقاتلُ : (مَعْنَاهُ : لَقَدْ كِدْتَ أنْ تُغْوِيَنِي فَأَنْزِلَ مَنْزِلَكَ) ، والإرْدَاءُ الإهْلاَكُ ، ومَن أغوَى إنساناً فقد أهلكَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي } ؛ أي لولاَ إنعامهُ علَيَّ بالإسلامِ ، { لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } ؛ معكَ في النار.

وقال الكلبيُّ : (ثُمَّ يُؤْتَى بالْمَوْتِ فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّار ، وَيُنَادِي مُنَادٍ بأَهْلِ الْجَنَّةِ : خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ ، وَبأَهْلِ النَّار : خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ) فيقولُ هذا القائلُ لأصحابهِ على جهة السُّرور : { أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ } ؛ في هذه الجنَّة أبداً ، { إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى } ؛ التي كانت في الدُّنيا ، { وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } ؛ أبداً. فيقالُ لَهم : لاَ ، فيقولون : { إِنَّ هَاذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } ؛ فُزْنَا بالجنَّة ونَعِيمها ، ونَجَونا من النار وجحيمِها. فهذه قصةُ الأخَوَين ذكرَهما اللهُ في سورةِ الكهف بقوله تعالى{ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ }[الكهف : ٣٢].

(٠/٠)

لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِمِثْلِ هَاذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ } ؛ أي لمثلِ هذا النَّعيمِ الْمُقيمِ ، والْمُلكِ العظيمِ فليعملِ العاملون في الدُّنيا ، يعني بالنعيمِ ما ذكرَهُ اللهُ من قوله{ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ... }[الصافات : ٤١-٤٣] إلى قولهِ{ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ }[الصافات : ٤٩].

(٠/٠)

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢)

وقولهُ تعالى : { أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ } ؛ معناهُ : أذلكَ الفوزُ الذي سبقَ ذِكرهُ لأهلِ الجنَّة خيرٌ مما يُهَيَّأُ من الإنزالِ أم نُزُلُ أهلِ النار ؟ وقولهُ تعالى : { أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ } لأهلِ النار في النار ، والزَّقُّومُ : هو ما يُكرَهُ تناولهُ ، والذي أرادَهُ اللهُ شيء مُرٌّ كريهٌ تناولهُ ، وأهل النار يُكرَهون على تناوُلِهِ ، فهم يتَزقَّونَهُ على أشدِّ كراهةٍ ، تقولُ : تَزَقَّمْ هذا العظامَ ؛ أي تناولْهُ على نَكَدٍ ومشقَّةٍ شديدةٍ.

(٠/٠)

إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ } ؛ رُوي سببُ نزولِ هذه الآيةِ : أنه لَمَّا نزلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ }[الصافات : ٦٢] كانوا يقولون لا ندري ما الزقومُ ؟ فكانوا يتذاكَرون هذا الحديثَ إذ جاءَهم عبدُالله بن الزبعرَى السهمي فذكَرُوا له ، فقالَ : أكثرَ اللهُ في بيوتِكم منها ، إن أهلَ اليمنِ يدعُوا الزُّبدَ والتمرَ الزقُّوم ، فقالَ أبو جهلٍ لجاريتهِ : زَقِّمِينَا يا جاريةُ ، فَأَتَتْهُ بزُبدٍ وتَمرٍ ، فقال : تَزَقَّمُوا فإنَّ هذا الذي يُخوِّفُكم به مُحَمَّدٌ ، فشاعَ في أهلِ مكَّة أن مُحَمَّداً يُخوِّفُ أصحابَهُ بالزُّبد والتمرِ ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ { إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ } أي عَذاباً بالكافرين ، والفتنةُ : هي العذابُ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ }[الذاريات : ١٣-١٤] أي عذابَكم فأنزلَ الله تعالى{ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ }[الدخان : ٤٣-٤٤].

ويجوزُ أن يكون معنى الفتنةِ في هذه الْمِحْنَةَ والبليَّةَ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : هذه الشجرةُ افتتنَ بها الظَّلَمةُ. قالوا : كيف يكون في النار شجرةٌ وهي تأكلُها ؛ لأن النارَ تأكلُ الشجرَ ، فأنزل اللهُ تعالى { إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ } أي خِبرةً لهم افتَتنوا بها وكذبوا بكونِها.

وبيَّنَ اللهُ تعالى : { إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ } ؛ أي تنبتُ في قعرِ الجحيم ، قال الحسنُ : (أصْلُهَا فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ ، وَأَصْلُهَا فِي دَرَكَاتِهَا ، بالنَّار غُذِّيَتْ وَمِنْهَا خُلِقَتْ بلَهَب النَّار ، كَمَا يَنْمُو شَجَرٌ بالْمَاءِ ، كُلَّمَا ازْدَادَتِ النَّارُ الْتِهَاباً ازْدَادَتْ تِلْكَ الشَّجَرَةُ نُمُوّاً وَارْتِفَاعاً ، وَإِنَّ أَهْلَ النَّار لَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَلْبَسُونَ النَّارَ ، وَيَتَقَلَّبُونَ فِي النَّار ، وَإِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّار عَذاباً رَجُلٌ يَكُونُ لَهُ نَعْلاَنِ يَغْلِي مِنْ حَرِّهِمَا دِمَاغُهُ).

(٠/٠)

طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ } ؛ أي ثَمَرُها كريهٌ مرٌّ هائلُ المنظرِ كأنه حيَّاتٌ هائلاتُ الرُّؤوسِ تكون في طريقِ اليمَنِ ، تسمِّي العربُ تلك الحيَّات رؤوسَ الشَّياطين لقُبحِها. وقال بعضُهم : أُريدَ به الشياطينَ المعروفةَ ، وقد اعتقدَ الناسُ قُبحَهم وقبحَ رُؤوسِهم ، وإن لم يُشاهِدُوهم ، ولذلك يشبهون الشيءَ القبيحَ بالشياطينِ ، يقولُ الرجل : رأيتُ فلاناً كأنَّهُ شياطينُ ، ورؤوسهُ رأسُ الشيطانِ ، فالشياطينُ موصوفةٌ بالقُبحِ وإنْ كانت لا تُرَى.

(٠/٠)

فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا } ؛ أي من ثَمرِها ، { فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ } ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى يُلقِي من أهلِ النار من شدَّة الجوعِ ما يُلجِؤُهم الى أكلِها بما هي عليه من الحرارةِ والمرَارةِ والخشونة ، فيبتَلعُونَها على جهدٍ حتى يختَنِقوا بها وتَمتليءَ بطونُهم منها ، ويكون حالُهم في الأكلِ منها أضرَّ كحالهم في الأكلِ منها أولاً.

(٠/٠)

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧)

وقولهُ تعالى : { ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ } ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى يُلقِي عليهم عطشاً بعد ذلك حتى يشرَبُوا من الحميمِ ، وهو الماءُ الحارُّ الذي قد انتهَى حرُّه ، والشَّوبُ كما هو خلطُ الشيءِ بما ليس منه ، بما هو شَرٌّ منه ، يقالُ له شَابَهُ الشيءُ إذا خالطَهُ ، فشَوبُ الجحيمِ في بطونِهم الزقومُ فيصير شَوباً له.

(٠/٠)

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ } ؛ معناهُ : إن مَرجِعَهم بعد شُرب الجحيم وأكلِ الزقوم الى الجحيمِ ، وذلك أنَّهم يورَدُون الحميمَ من شُربِهِ وهو خارجٌ من الجحيمِ كما تُورَدُ الإبلُ الماءَ ، ثم يُرَدُّونَ إلى الجحيمِ ، فيتجرَّعونَهُ ويُصَبُّ على رُؤوسِهم ، ومرَّةً يُردُّون إلى النار الموقَدة ، وهذا عذابُهم أبداً. وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ اللهَ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، فَلَوْ أنَّ قَطْرَةً قَطَرَتْ مِنَ الزَّقُّومِ مِنَ الأَرْضِ لأَمَرَّتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنيا مَعِيشَتَهُمْ ، فَكَيْفَ بمَنْ هُوَ طَعَامُهُ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ غَيْرُهُ ".

(٠/٠)

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ آبَآءَهُمْ ضَآلِّينَ } ؛ معناهُ : إنَّهم وجَدُوا آباءَهم في الدُّنيا ضالِّين عن الحقِّ والدِّين ، فَ ، كانوا ، { فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ } ؛ أي يَمْضُوا مُسرِعين كأنَّهم يُزعَجون من الإسراعِ الى اتِّباع آبائِهم ، يقالُ : هَرَعَ وأهْرَعَ إذا أسرعَ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ } ؛ أي ولقد ضلَّ قبلَ هؤلاء المشركين أكثرُ الأوَّلين من الأُمم الخاليةِ ، كما ضَلَّ قومُكَ ، { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنذِرِينَ } ؛ أي رُسلاً يُنذِرونَهم العذابَ ؛ أي يخوِّفونَهم بالعذاب على تركِ الإيمان ، { فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ } ؛ الذي أُنذِرُوا فكذبوا

الرسُلَ ، كيف أهلكَهم اللهُ تعالى ، وقولهُ تعالى : { إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } ؛ يعني إلاّ عبادَ الله الموحِّدين الذين لم يكَذِّبوا ، فإنَّهم نَجَو من العذاب ولم يهلَكُوا.

(٠/٠)

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ } ؛ أي ولقد دعَانا نوحُ على قومهِ بالإهلاكِ حين يَئِسَ من إيمانِهم ، وأُذِنَ له في الدُّعاء ، وقال{ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ }[القمر : ١٠] ، وقال{ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً }[نوح : ٢٦] ، وقوله { فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ } أي نِعْمَ الْمُجِيبُونَ فأجَبناهُ وأهلكنا قومَهُ الكافرين ، { وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ } ؛ ومَن آمَنَ به ، { مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ } ؛ وهو الغرقُ.

(٠/٠)

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ } ؛ وذلك مَن كان معه من المؤمنين في السَّفينة انقرَضُوا من غير عَقِبٍ ، وكان نسلُ نوحٍ عليه السلام من أولادهِ الثلاثة : سام وحامُ ويافث ، فأما سامُ فأبو العرب وفارسَ والرُّوم ، وحامُ أبو الحبَشِ وجميع السُّودان والسِّند والهند والبربَرِ ، ويافثُ أبو التُّرك ويَأْجُوجَ ومأْجُوجَ وما هنالك من باقِي الناس. قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا خَرَجَ نُوحُ عليه السلام مِنَ السَّفِينَةِ مَاتَ مَنْ مَعَهُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إلاَّ وَلَدَهُ الثَّلاَثَةُ وَنِسَاءَهُمْ) فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُمُ الْبَاقِينَ }

(٠/٠)

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢)

وقولهُ تعالى : { وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ } ؛ أي تركنا على نوحٍ الذِّكرَ الجميلَ في الباقين بعده ، وذلك الذكرُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ } ؛ أي يُصَلَّى عليه إلى يومِ القيامة ، قال الزجَّاجُ : (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : { وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ } أيْ وَأبْقَيْنَاهُ ذِكْراً حَسَناً وَثَنَاءً جَمِيلاً فِيمَنْ بَعْدَهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) { إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } ؛ أي كما جَزَينا نُوحاً وأنعَمْنا عليه ، فكذلكَ نجزِي الْمُحسِنين في القولِ والعملِ ، { إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ } ؛ وَقِيْلَ : (معناهُ : تَرَكنا على نوحٍ في الآخِرين أن يُصَلَّى عليه إلى يومِ القيامة) ، { ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ }.

(٠/٠)

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ } ؛ معناهُ : وإنَّ مِنْ أهلِ ملَّةِ نوحٍ عليه السلام والمتمسِّكين بدينهِ لإبراهيم ، { إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } ؛ أي إذْ أقبَلَ إلى طاعةِ ربهِ بقلبٍ سَليمٍ من الكُفرِ والمعاصِي ومن كلِّ عيبٍ. والشِّيعَةُ : هي الجماعةُ التَّابعَةُ لِذي رأي لَهم.

(٠/٠)

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ } ؛ هذا إنكارٌ من إبراهيمَ على قولهِ ، كالرجُل ينظرُ غيرَهُ على قبيحٍ من الأمر ، فيقولُ له : ما هذا الذي تفعلُ؟

(٠/٠)

أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ } ؛ معناهُ : أَتَتَّخذُ آلهةً تريدون عبادتَها على وجهِ الكذب.
وَقِيْلَ : معناهُ : أَتَأْفِكُونَ إِفْكاً هو أسوأُ الكذبُ ، وتعبدون آلهةً سوَى اللهِ ، { فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ إذا لقيتموهُ وقد عبدتُّم غيرَهُ ، أي فما ظنُّكم أنه يصنعُ بكم.

(٠/٠)

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ } ؛ قال بعضُهم : إنَّما نظرَ إلى النُّجوم نظرَ تدبُّر واعتبارٍ ، وليستدلَّ بها على وقتِ الحمَّى كانت تأتيهِ ، فلما عرفَ بذلك وقت حماه قال إنِّي سقيمٌ ؛ أي جاءَ وقتُ سقَمي ومرَضي.
ويقالُ : أوهَمهم بهذا القول أن به مرضاً فتركوهُ ، وكان يريدُ بهذا القولِ في نفسه : إنِّي سقيمُ القلب بما أرَى من أحوالِكم القبيحة في عبادةِ غيرِ الله ، وذلك أنه أرادَ أن يُكايدَهم في أصنامِهم لِيُلزمَهم الحجَّةَ في أنَّها غيرُ معبودةٍ ، وكان لَهم عيدٌ يخرجون إليه ، فكلَّفوهُ الخروجَ معهم إلى عيدِهم ؛ فنظرَ في النُّجوم يُرِيَهم أنه مستدلٌّ بها على حالهِ ، فقالَ : إنِّي سقيمٌ ، { فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ } ؛ فتركوهُ وذهبوا إلى عِيدهم.

(٠/٠)

فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢)

وقولهُ تعالى : { فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ } ؛ أي مَالَ إلى أصنامِهم مَيلةً في خِفيةٍ سِرّاً لَمَّا أدبَرُوا عنه فوجدَ بين أيدِيهم طعاماً كانوا قد وضعوهُ قبلَ خروجِهم إلى عيدِهم ، وزعَمُوا بجهلِهم أن أصنامَهم تباركُ لهم فيه ، فإذا رجَعُوا من عيدِهم أكلوهُ. قال مقاتلُ : (كَانَتْ أَصْنَامُهُمْ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ صَنَماً مِنْ خَشَبٍ وَحَدِيدٍ وَرَصَاصٍ وَذهَبٍ وَفِضَّةٍ ، وَكَانَ أَكْبَرُهُمْ مِنْ ذهَبٍ وَعَيْنَاهُ يَاقُوتَتَانِ ، فَلَمَّا رَآهُمْ إِبْرَاهِيمُ كَذلِكَ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمُ الطَّعَامُ ، قَالَ : أَلاَ تَأْكُلُونَ مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الأَطْعِمَةِ ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ أَكْلٌ وَلاَ جَوَابٌ قَالَ لَهُمْ : أَلاَ تَنْطِقُونَ إِنْ كُنْتُمْ آلِهَةً).

(٠/٠)

فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ } ؛ أي مَالَ عليهم بالضَّرب بيدهِ اليُمنَى وبالقوَّة ، ويقالُ : برَّ يَمِينَهُ التي كان حلفَ باللهِ لأكِيدَنَّ أصنامَكم ، فجعلَ يضربُهم بالفأسِ حتى جعلَهم جُذاذاً ، ثم جعلَ الفأسَ على عاتقِ كبيرِ الأصنام ، والرَّوَغَانُ في اللغة : هو الْمَيْلُ على وجهِ الاضطراب.

(٠/٠)

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَقْبَلُواْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ } ؛ أي أقبلَ المشركون إليه بعدَ رجُوعِهم من عيدِهم يُسرِعون في المشي ، كأنَّهم أُخبرُوا بصُنعهِ فقصدوهُ. والزَّفِيفُ : هو الْمَشْيُ السَّريعُ ، ومن ذلكَ زَفِيفُ النَّعَامِ وهو خَبَبُهُ الذي يكون بين المشي والعَدْو ، ومنه الآزِفَةُ لسُرعةِ مجيئها وهو القيامةُ.
وقرأ حمزةُ (يُزِفُّونَ) بضمِّ الياءِ ؛ أي يَحمِلُونَ دوابَّهم وظُهورَهم على الإسراعِ في المشي ، وذلك أنَّهم أُخبرُوا بصُنعِ إبراهيمَ بآلهتِهم ، وأسرَعُوا ليأخذوهُ ، فلما انتهَى إليه ؛ { قَالَ } لَهم محتجّاً عليهم : { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } ؛ بأيدِيكم من الأصنامِ ، أي تعبدُون ما تَنحِتُونَهُ من الخشب والحجرِ أمواتاً لا تنطقُ ولا تسمعُ ولا تَنصُر ولا تعقلُ.

(٠/٠)

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } ؛ تَنحِتُونَ بأيديكم ؛ أي خلَقَكم ومعمُولكم وهو منحوتُهم الذي نَحتوهُ ، والمعنى : خلَقَكم وعمَلَكم ، وهذا مذهبُ أهلِ السُّنة ؛ لأنَّهم يعتقدون أنَّ اللهَ خلَقَهم

وعمَلَهم ، والقدريَّةُ تُنكِرُ خلقَ الأعمالِ.
فلمَّا ألزمَهم إبراهيمُ عليه السلام الحجَّةَ ، { قَالُواْ ابْنُواْ لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ } ؛ أي قالوا : ابنُوا له حَائِطاً من حجارةٍ طولهُ في السَّماء ثلاثون ذِرَاعاً ، وعرضهُ عشرون ذراعاً ، ومَلَؤُوهُ نَاراً ، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ } وهي النارُ العظيمة ، فبَنَوا له ذلك وجَمعُوا فيه الحطبَ ، وأرسَلُوا فيه النارَ حتى صارَ جَحيماً ، ثم رمَوهُ بالمنجنيقِ.
فنجَّاهُ اللهُ تعالى ، وجعلَ النارَ عليه بَرْداً وسَلاماً لم يُؤذِهِ منها شيءٌ ولا أحرقَتْ شيئاً من ثيابِهِ ، وذلك لإخلاصِهِ وقوَّةِ دِينهِ وصدقِ توكُّلِهِ ويقينهِ ، كما رُوي أنه عليه السلام لما انفصلَ من المنجنيقِ أتاهُ جبريل في الهواءِ ، فقالَ هل لكَ من حاجةٍ ؟ فقال : وأمَّا إليكَ فلاَ.

(٠/٠)

فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً } ؛ أي أرَادُوا به شَرّاً ، وهو أن يحرِقوهُ بالنار ، { فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ } ، لأن إبراهيمَ علاَهُم بالحجَّة حين سَلَّمَهُ اللهُ تعالى وردَّ كيدَهم عنه ، ولم يلبَثُوا إلاَّ يَسِيراً حتى أهلكَهم اللهُ تعالى ، وجعلَهم في نارٍ أعظمَ وأسفلَ مما ألقَوهُ فيها.

(٠/٠)

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ } ؛ أي قالَ إبراهيمُ : إنِّي ذاهبٌ إلى مرضاتِ ربي سيَهدِينِي لِمَا فيه رُشدِي وصَلاحِي ، وأرادَ بهذا الذهابَ إلى الأرضِ المقدَّسة ، وَقِيْلَ : إلى أرضِ الشَّام ، قال مقاتلُ : (فَلَمَّا قَدِمَ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ سَأَلَ رَبَّهُ الْوَلَدَ) فقال : { رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ } ؛ أي ولَداً صَالحاً.
واستجابَ اللهُ دعاءَهُ بقولهِ : { فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ } ؛ قال الزجَّاجُ : (هَذِهِ الْبشَارَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُبَشَّرٌ

بابْنٍ ذكَرٍ ، وَأَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى يَنْتَهِي فِي السِّنِّ ، وَيُوصَفُ فِي الْحِلْمِ) ، قال الحسنُ : (وَهُوَ إِسْحَاقُ عليه السلام). وقال الكلبيُّ : (هُوَ إِسْمَاعِيلُ ، وَكَانَ أَكْبَرَ مِنْ إِسْحَقَ بِثَلاَثَةَ عَشَرَ سَنَةً).

(٠/٠)

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ } ؛ أي فلمَّا بلغَ ذلك الغلامُ معه حالةَ السَّعيِ في طاعةِ الله تعالى ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ }[البقرة : ١٢٧] ، وَقِيْلَ : معناهُ : فلما بلغَ أن يمشِي معه ، وقال مجاهدُ : (لَمَّا شَبَّ حَتَّى بَلَغَ أَنْ يَتَصَرَّفَ مَعَهُ وَيُعِينَهُ ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ ابْنَ ثَلاَثَةَ عَشَرَ سَنَةً). وَقِيْلَ : أرادَ بالسَّعي في الوقتِ الذي ينتفعُ الوالدُ بالولدِ في قضاءِ حوائجه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ يابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ } ؛ أي رأيتُ في المنامِ رُؤيا تأويلُها أنِّي أذبَحُكَ ، وَقِيْلَ : رأيتُ في المنامِ أنِّي أذبَحُكَ ، قال مقاتلُ : (رَأى إِبْرَاهِيمُ ذلِكَ فِي الْمَنَامِ ثَلاَثَ لَيَالٍ مُتَوَالِيَاتٍ) ، قال ابنُ جبير : (رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ) ، وقال قتادةُ : (رُؤَى الأَنْبِيَاءِ حَقٌّ ، إذا رَأَوا شَيْئاً فَعَلُوهُ).

وقولهُ تعالى : { فَانظُرْ مَاذَا تَرَى } ؛ أي مِن الرأيِ فيما ألقيتُ إليكَ ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ : (مَاذا تُرِي) بضمِّ التاء وكسرِ الراء ، ومعناهُ : ماذا تُشِيرُ وماذا تُرِيني صَبرِكَ أو جَزَعِكَ ؟ { قَالَ ياأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ } ؛ به من ذبحِي ، { سَتَجِدُنِي إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } ؛ على بَلائِهِ ، وإنما قالَ له إبراهيمُ هذا القولَ مع كونهِ مأمُوراً بذبحهِ ؛ لأنه أحبَّ أن يعلمَ صبرَهُ وعزيمتَهُ على أمرِ الله وطاعته.

وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّ إبراهيمَ كان مأمُوراً بذبحِ ولَدِهِ ، لأن رُؤيَا الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ وَحْيٌ بمنْزِلة الوحيِ إليهم في اليقظَةِ ، ولذلك قالَ الابنُ : (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) ولَم يقل : افعل ما رأيتَ في المنامِ.

واختلَفُوا في الذبيحِ مَن هو ؟ فذهبَ الأكثَرون إلى أنه إسحقُ ، وإليه ذهبَ من الصَّحابة عمرُ بن الخطَّاب وعليُّ بن أبي طالبٍ وعبدُالله بن مسعودٍ وعبَّاسُ بن عبدِالمطَّلب ، ومِن التابعين كعبُ الأحبار وسعيدُ بن جبير وقتادةُ ومسروق وعكرمة وعطاءُ ومقاتل والزهريُّ والسدي.

وقال آخرُونَ : هو إسماعيلُ ، وهو قولُ ابنِ عمر وابنِ عبَّاس وسعيدِ بن المسيَّب والشعبيِّ والحسن ومجاهدٍ والكلبيِّ والربيع بن أنسٍ ومحمَّد بن كعب القُرَظِيِّ. ورُوِي عن أبي إسحق الزجَّاج أنه قال : (اللهُ أعْلَمُ أيُّهُمَا الذبيحُ).

وسياقُ الآيةِ يدلُّ على أنه إسحق ؛ لأنه تعالَى قال{ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ }[الصافات : ١٠١] ولا خلافَ أنه إسحقَ ، ثم قالَ : فلما بلغَ معه السعيَ ، فعطفَ بقصَّة الذبحِ مع ذكر اسحق ، وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم القولانِ ، ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الَّذِي أرَادَ إبْرَاهِيمُ ذبْحَهُ هُوَ إسْحَقُ ".

وعن معاويةَ رضي الله عنه أنه قالَ : كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ عُدَّ عَلَيَّ مِمَّا أفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ الذبيحَيْنِ ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَسَأَلَ مُعَاوِيَةُ وَمَنِ الذبيحَانِ ؟ فَقَالَ : [إنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِب لَمَّا حَفَرَ زَمْزَمَ نَذرَ للهِ تَعَالَى لَئِنْ سَهَّلَ اللهُ أمْرَهُ لَيَذْبَحَنَّ أحَدَ وَلَدِهِ ، فَخَرَجَ السَّهْمُ عَلَى عَبْدِاللهِ ، فَمَنَعَهُ أخْوَالُهُ وَقَالُواْ : إفْدِ ابْنَكَ بِمِائَةٍ مِنَ الإبِلِ ، فَفَدَاهُ بِمِائَةٍ مِنَ الإبِلِ ، وَالذبيحُ الثَّانِي إسْمَاعِيلُ] ، ويدلُّ على صحَّة هذا قولهُ عليه السلام :

(٠/٠)

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } ؛ أي فلمَّا انقادَا وخضعا لأمرِ الله تعالى ورَضِيَا به ، وقرأ ابنُ مسعود : (فَلَمَّا سَلَّمَا) أي فَوَّضَا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } أي صَرَعَهُ وأضجعَهُ وكَبَّهُ على وجههِ للذبحِ ، وَقِيْلَ : طرحَهُ على الأرضِ على أحدِ جَنبَيْهِ كما يُفعَلُ بالكبشِ حين يُذبَحُ ، نادته الملائكةُ من الجبلِ بإذن الله : { وَنَادَيْنَاهُ أَن ياإِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَآ } ؛ أي وَفَّيْتَ الرُّؤيا حقَّها ؛ أي وفَّيتَ بما أُمِرتَ به في المنامِ ، دَعِ ابنكَ وخُذِ الكبشَ الذي ينحدرُ إليكَ من الجبلِ المشرفِ على مسجدِ مِنَى.

وقولهُ تعالى { قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَآ } أي نُودِيَ من الجبلِ أن يا إبراهيمُ قد صدَّقتَ الرُّؤيا لأنَّ الله تعالى قد عرَفَ منهُما الصدقَ حين قصدَ إبراهيمُ الذبحَ بما أمكنَهُ وطاوعَ الابنُ بالتمكينِ من الذبحِ ، ففَعلَ كلُّ واحدٍ منهما ما أمكنَهُ وإن لم يحقِّقوا الذبحَ ، وكان قد رأى في المنامِ معالجةَ الذبحِ ولم يُرَقِ الدمُ ، ففعلَ في اليقظةِ ما رأى في المنامِ ، فلذلكَ قيل له : { قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَآ } وتَمَّ الكلامُ. ثم قال { إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } ؛ أي هكذا نُجزِي كلَّ مُحسِنٍ ممن سلكَ طريقَهما في الانقيادِ لأمر الله ، وجميلِ الصبر على ابتلائِهِ.

(٠/٠)

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ هَاذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ } ؛ أي لَهُوَ الاختيارُ البيِّنُ فيما يوجبُ النعمةَ والنقمةَ ، وأيُّ اختبارٍ أعظمُ من أن يؤمرَ الشيخُ الكبير بذبحِ الولد العزيزِ بيده. وقولهُ تعالى : { وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ } ، أي بكبشٍ عظيم ؛ أي أقَمنَا الذبحَ مقامَهُ وجعلناهُ بَدَلاً عنه.

وعن عطاءِ بن يسار قال : (لَمَّا بَلَغَ إسْمَاعِيلُ سَبْعَ سِنِينَ رَأى إبْرَاهِيمُ عليه السلام أنّهُ يَذْبَحُ ، فَأَخَذ بيَدِهِ وَمَضَى بِهِ إلَى حَيْثُ أُمِرَ حَتَّى انْتَهَى إلَى مَنْحَرِ الْبُدْنِ الْيَوْمَ ، فَقَالَ : يَا بُنَيَّ إنَّ اللهَ أمَرَنِي بذبْحِكَ ، قَالَ إسْمَاعِيلُ : فَأَطِعْ رَبَّكَ.

فَفَعَلَ إبْرَاهِيمُ ، فَجَعَلَ يَنْحَرُهُ فِي حَلْقِهِ ، نَحَرَ فِي فَأْسٍ لَمْ تُؤَثِّرْ فِيْهِ الشَّفْرَةُ ، فَشَحَذَهَا مَرَّتَيْنِ أوْ ثَلاَثاً بالْحَجَرِ ، وَفِي كُلٍّ لاَ يَسْتَطِيعُ ، فَرَفَعَ رَأسَهُ فَإذا هُوَ بكَبْشٍ قَدْ رَعَى فِي الْجَنَّةِ أرْبَعِينَ خَرِيفاً).

قال الحسنُ بن الفضل : (مَا فُدِيَ إلاَّ بتَيْسٍ هَبَطَ عَلَيْهِ مِنْ ثَبير فَذبَحَهُ إبْرَاهِيمُ فِدَاءً عَنِ ابْنِهِ). وَقِيْلَ : كان الفداءُ وَعْلاً من الأوْعَالِ الجبليَّة.

وأما قولهُ { بِذِبْحٍ عَظِيمٍ } قال سعيدُ بن جبير : (حَقٌّ عَلَيْهِ أنْ يَكُونَ عَظِيماً ، وَقَدْ رَعَى فِي الْجَنَّةِ أرْبَعِينَ خَرِيفاً). وقال مجاهد : (سُمِّيَ لأَنَّهُ مُتَقَبَّلٌ) ، وقال الحسنُ ابن الفضل : (لأَنَّهُ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى) ، وقال أبو بكرٍ الورَّاقُ : (لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَنْ نَسْلٍ وَإنَّمَا كَانَ بالتَّكْوِينِ).

(٠/٠)

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ } ؛ أي تركنا على إبراهيم في العالَمين أنْ يُقالَ : { سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ } ، ويصلَّى عليه إلى يومِ القيامةِ ، { كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } ، وبقينا عليها حُسنا ، { إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ }.

(٠/٠)

وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ } ؛ مَن جعلَ الذبيحَ إسماعيلَ قال : بشَّرَ اللهُ إبراهيمَ بولدٍ بعدَ هذه القصَّة جزاءً لطاعتهِ ، ومَن جعلَ الذبيحَ إسحق قالَ : بُشِّرَ إبراهيمُ بنبوَّةِ إسحق ، وأُثيبَ إسحقُ بصبرهِ بالنبوَّة.

(٠/٠)

وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ } ؛ أي وبارَكنا على إبراهيمَ وعلى إسحقَ ، وَقِيْلَ : على إسماعيلَ وعلى إسحقَ ، وقولهُ تعالى : { وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ } ؛ الْمُحسِنُ هو المؤمنُ ، والظالِمُ المبينُ هو الكافرُ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ } ؛ أي أنعَمنا عليهما بالنبوَّة والرسالةِ وغير ذلك من أنواعِ النعيمِ ، والْمَنُّ قطعُ كلِّ أذِيَّةٍ ، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ }[الانشقاق : ٢٥] أي غيرُ مقطوعٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ } ؛ أي وخلَعناهما من الخزيِ القطيعِ من استعبادِ فرعون إيَّاهم ، ومن ذبحِ الأبناء ، وتسخيرِ الرجُلِ في الأمور الشاقَّة ، { وَنَصَرْنَاهُمْ } ، على فرعونَ وقومهِ ، { فَكَانُواْ هُمُ الْغَالِبِينَ } ؛ بعدَ ما كانوا مغلُوبين ، { وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ } ؛ أي أعطيناهُما الكتابَ البيِّنَ وهو التوراةُ ، { وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } ؛ وهو دينُ الاسلامِ ، { وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ * سَلاَمٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ }.

(٠/٠)

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (هُوَ عَمُّ الْيَسَعَ ، وَهُوَ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَارُونَ بْنِ عِمْرَانَ ، وَهَارُونُ هُوَ جَدُّ أبيهِ). وقال ابنُ إسحق : (إلْيَاسُ هُوَ يُوشُعُ بْنُ نُونٍ).
ويقالُ : إلياس والخضِرُ في الأحياءِ ، فإلياسُ صاحب البراري ، والخضِرُ صاحبُ الجزائرِ ، ويجتمعان في كلِّ سنةٍ مرَّة بعرفات!
وعن أنسٍ رضي الله عنه قال : " غزَونا مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنَّا نفحَ الناقةِ إذ نحن بصَوتٍ يقولُ : اللَّهم اجعلني من أُمة مُحَمَّد المرحومةِ المغفور لها المثوب عليها المستجاب لها ، فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " يَا أنَسُ انْظُرْ هَذا " فدخلتُ الجبلَ فاذا أنا برجُلٍ أبيضَ الرأسِ واللحيَةِ ، عليه ثيابٌ بيض طولهُ أكثرَ من ثلاثمائة ذراعٍ ، فلما نظرَ إليَّ قال : أنتَ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلتُ : نعم ، قال : ارجِعْ إليه فأقرئْهُ منِّي السَّلامَ ، وقل له : أخوكَ إلياسُ يريدُ لقاءكَ ، فجاءَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأنا معه ، حتى إذا كُنَّا قريباً منه ، تقدَّمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وتأخرتُ ، فتحادثَا طويلاً ، فنَزل عليهما من السَّماء شبه السُّفْرَةِ ، فدعَونِي أكلتُ معهما ، فإذا فيها كمأةٌ ورمَّان وكرفس ، فلما أكلتُ قمت فتنحيتُ ، فجاءت سحابةٌ فاحتملَتْهُ وأنا أنظرُ إلى بياضِ ثوبه ، فهوَت به قبَل الشَّام ".

(٠/٠)

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ } ؛ عقابَ اللهِ بعبادة غيرِ الله ، وقولهُ تعالى : { أَتَدْعُونَ بَعْلاً } ؛ أي أتَدَّعون بالإلهيَّة بَعْلاً صَنَماً ، { وَتَذَرُونَ } ، وتتركون عبادةَ ، { أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ } ؛ وكان قومهُ يعبدون صَنماً لهم من ذهب يقال له بَعْلٌ ، وكان طولهُ عشرين ذراعاً ، وكان له أربعةُ وجوهٍ ، فجعلَ إلياسُ يدعوهم إلى عبادةِ الله وهم في ذلك لا يسمَعون منه شيئاً.

(٠/٠)

اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦)

وقولهُ تعالى : { اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَآئِكُمُ الأَوَّلِينَ } ؛ أي خالقُكم وخالقُ آبائكم ، ومَن قرأ (رَبَّكُمْ) بالنصب فعلى صفة (أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ).

(٠/٠)

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨)

وقولهُ تعالى : { فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } ؛ أي لِمُحضَرون في النار والعذاب بتكذِيبهم ، { إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } ؛ أي لكن عبادَ الله المخلَصين مبعَدُون من الموضعِ الذي فيه المشرِكون.

(٠/٠)

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ } ، يريدُ إلياسَ ومَن آمنَ معه ، { سَلاَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ } ؛ قال أبو علي الفارسي : (تَقْدِيرُهُ : اليَاسِيِّينَ) إلاَّ أنَّ اليَائَيْنِ لِلنِّسْبَةِ حُذِفَتَا ، كَمَا حُذِفَتَا فِي الأَشْعَرِيِّينَ وَالأَعْجَمِينَ ، وقرأ نافعُ (اليَاسِينَ) أي سلامٌ على أهلِ كلام الله وآل مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم ، فإن يس مِن كلامِ الله تعالى في القرآنِ.

(٠/٠)

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ } ؛ أي من جُملة المرسَلين ، { إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ } ؛ يعني امرأتَهُ المنافقةَ تخلَّفت في موضعِ العذاب في جُملة الباقين ، { ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ } ؛ أي أهلَكنَاهم بعذاب الاستئصال.

(٠/٠)

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وَبِالَّيلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } ؛ هذا خطابٌ لِمُشركي العرب ، كانوا يَعْدُونَ على قرياتِ قوم لوطٍ فلم يعتَبروا.

(٠/٠)

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ } ؛ أي هربَ من قومِهِ إلى السفينةِ المملوءَةِ بالناسِ والدواب ، وإنما هربَ لأن الله كان أوعدَهم بالعذاب إنْ لم يؤمِنُوا فلم يؤمنوا ، وعلِمَ أنَّ العذابَ نازلٌ بهم ، فخرجَ من بينِهم من غيرِ أن يأمرَهُ اللهُ تعالى بالخروجِ ، فكان ذلك ديناً منه وكان قصدهُ حين خرجَ منهم للمبالغةِ في تحذيرِهم وإنذارهم ، فكان بذهابِهِ كالفارِّ من مولاهُ ، فوُصِفَ بالأبَاقِ.

وقولهُ تعالى : { فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ } ؛ وذلكَ أنه لَمَّا رَكِبَ السفينةَ ، وقفَتِ السفينةُ ولم تَسِرْ بأهلِها ، فقالَ الملاَّحون : ههُنا عبدٌ آبقٌ من سيِّدهِ ، وهذا رسمُ السفينة إذا كان فيها عبدٌ آبقٌ لا تجرِي ، واقترَعُوا فوقعتِ القُرعَةُ على يونسَ فقال : أنا الآبقُ ، { فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ }.

قال سعيدُ بن جبير : (لَمَّا اسْتَهَمُوا جَاءَ حُوتٌ إِلَى السَّفِينَةِ فَاغِراً فَاهُ يَنْتَظِرُ أَمْرَ رَبِهِ ، كَأَنَّهُ يَطْلُبُ وَاحِداً مِنْ أَهْلِهَا ، فَقَالَ يُونُسُ : يَا أَهْلَ السَّفِينَةِ أَنَا الْمَطْلُوبُ مِنْ بَيْنِكُمْ ، فَقَالُواْ : أَنْتَ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ أَنْ يَبْتَلِيكَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ ، فَقَالَ لَهُمْ : اقْتَرِعُوا فَمَنْ خَرَجَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى اسْمِهِ أُلْقِيَ إِلَى الْحُوتِ ، وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْعَةَ تَخْرُجُ عَلَيْهِ ، إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَبْدَأْ بِإِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَى الْحُوتِ مَخَافَةَ أَنْ تَلْحَقَهُ سِمَةُ الْجُنُونِ ، فَسَاهَمَ فَوَقَعَ السَّهْمُ عَلَيْهِ فَكَانَ مِنَ الْمَسْهُومِينَ).

وَالْمُدْحَضُ في اللغة : هو المغلوبُ في الحجَّة ، وأصلهُ من دَحَضَ الرجلُ إذا نزلَ مِن مكانهِ ، فلما أُلقِيَ عليه السُّلَّمُ في البحرِ ابتلعَهُ الحوتُ ابتلاعَ اللُّقمَةِ.

وقولهُ تعالى : { وَهُوَ مُلِيمٌ } ؛ أي أتَى بما يستحقُّ عليه اللّومَ ، والْمَلِيمُ : الآتِي بما يُلائِمُ على مثلهِ ، وسببُ استحقاقهِ اللَّومَ خروجهُ من بين قومهِ قبل ورُودِ الإذنِ عليه مِن اللهِ تعالى.

(٠/٠)

فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ } ، أي لولاَ أنه كان قبلَ أن يلتقمَهُ الحوتُ من المصَلِّين للهِ تعالى ، { لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } ؛ لَمَكَثَ في بطنِ الحوتِ إلى يوم البعثِ والنُّشور. قال الحسنُ : (مَا كَانَتْ لَهُ صَلاَةٌ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ، وَلَكِنَّهُ قَدَّمَ عَمَلاً صَالِحاً قَبْلَ ذلِكَ).

ويقالُ : إن المرادَ بالتسبيحِ في هذه الآيةِ قولهُ في الحوتِ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. قال السديُّ : (لَبِثَ يُونُسُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ أَرْبَعِيْنَ يَوْماً) ، وقال الضحَّاكُ : (عِشْرِينَ يَوْماً) ، وقال عطاءُ : (تِسْعَةَ أَيَّامٍ) ، وقال مقاتلُ : (ثلاَثَةَ أَيَّامٍ).

(٠/٠)

فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧)

وقولهُ تعالى : { فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ } ؛ اي ألْهَمنَا الحوتَ أن يطرحَهُ على فضاءٍ من الأرضِ ، والعَرَاءُ هو المكانُ الخالِي من الشَّجر والبناءِ ، قال مقاتلُ : (مَعْنَى : {

فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَآءِ } يَعْنِي وَجْهَ الأَرْضِ وَهُوَ سَقِيمٌ قَدْ بَلِيَ لَحْمُهُ مِثْلَ الصَّبِيِّ الْمَوْلُودِ) ، قال ابنُ مسعودٍ : (كَهَيْئَةِ الْفَرْخِ الَّذِي لَيْسَ عَلَيْهِ ريشٌ).

وَقِيْلَ : معنى { وَهُوَ سَقِيمٌ } أي وهو مَرِيضٌ ، وذلك لما أصابَهُ في بطنِ الحوت من الشدَّةِ والضَّغطَةِ والبُعدِ من الهواءِ والغذاء ، حتى ضعُفَ جسمهُ ورقَّ جلده ولم يبقَ ظُفْرٌ ولا شعرٌ كالولدِ أوَّلَ ما يخرجُ من بطنِ أُمِّه.

فلما أُلقِيَ على وجهِ الأرض كان يتأذى بحرِّ الشمس ، فأنبتَ اللهُ تعالى عليه شجرةً من يَقْطِينٍ ، قال الكلبيُّ : (هِيَ الْقَرْعُ) ، وهي شجرةُ الدُّبَّاءِ العربي ، وكلُّ شجرةٍ لا تقومُ على ساقٍ وتمتدُّ على وجهِ الأرضِ مثل القَرْعِ والبطِّيخ ونحوِها فهو يقينٌ ، واشتقاقهُ من قَطَنَ من المكانِ إذا اقامَ به ، فهذا الشَّجرُ يكون ورقهُ وساقهُ على وجهِ الأرض ، فلذلك قِيْلَ : يَقْطِين ، ومن خصائصِ شجرةِ القَرْعِ أنَّها لا يقربُها ذبابٌ ، قالوا : فكان يستظلُّ بها من الشَّمسِ ، وسخَّرَ اللهُ له وَعْلَةً بُكرَةً وَعَشِيّاً تختلفُ إليه ، فكان يشربُ من لبَنِها حتى اشتدَّ ونبتَ شعرهُ.

ثم أرسلَهُ اللهُ بعدَ ذلك وهو قولهُ : { وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ } ؛ وقال الحسنُ : (مَعْنَاهُ : بَلْ يَزِيدُونَ) ، وقال الكلبيُّ : (مَعْنَاهُ : وَيَزِيدُونَ) ، وكان الذين أُرسِلَ إليهم أهلُ نِينَوَى ، كأنَّهُ أُرسِلَ قبلَ ما الْتَقَمَهُ الحوتُ إلى قومٍ ، وبعدَ ما نبذهُ الحوتُ إلى قومٍ آخَرين.

(٠/٠)

فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨)

قولهُ : { فَآمَنُواْ } ؛ أي فآمَنَ مَن أُرسِلَ إليهم يونسُ عليه السلام بما جاءَهم به من عندِ الله تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ } ؛ أي إلى حين آجالِهم. واختلَفُوا في الزيادةِ على مائة ألفٍ ، قال مقاتلُ : (كَانَتِ الزِّيَادَةُ عِشْرِينَ أَلْفاً) ، وقال الحسنُ : (بضْعاً وَثَلاَثِينَ أَلْفاً) ، وقال سعيدُ بن جبير : (سَبْعِينَ أَلْفاً).

(٠/٠)

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاَئِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠)

وقولهُ تعالى : { فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ } ؛ أي سلهُم – يا مُحَمَّدُ – أهلَ مكَّة سؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ (أَلِرَبكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونُ) ؟ وذلك أنَّ قُريشاً وقبائلَ من العرب منهم خُزاعَةُ وجُهَيْنَةُ وبنو سُليم كانوا يقولُون : إنَّ الملائكةَ بناتُ الله ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبيراً. وقولهُ تعالى : { أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاَئِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ } ؛ أي حَاضِرُوا خَلقِنا إيَّاهم ، فكيفَ جعَلوهم إنَاثاً ولم يشهَدُوا خَلقَهم كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ }[الزخرف : ١٩].

(٠/٠)

أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } ؛ في إضافةِ الأولادِ إلى اللهِ تعالى حين زعَمُوا أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ ، تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبيراً ، { أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ } ؛ القراءة المعروفةُ المشهودة بفتحِ الألِفِ على الاستفهامِ الذي فيه التوبيخُ ، والمعنى : سَلْهُمْ أصْطَفَى البناتِ ، إلاَّ أنه حذفَ ألِفَ الوصلِ وبقيت ألِفُ الاستفهامِ مفتوحةً مقطوعة على حالِها مثل أستَكبَرتَ وأستغفرتَ ، وأذهَبتُم ونحوها. وقرأ نافعُ برواية وَرْشٍ (اصْطَفَى) موصولةً على الخبرِ والحكاية عن قولِ المشركين ، تقديرهُ : ليَقولُون ولدَ اللهُ ويقولون اصْطَفَى البناتِ.

(٠/٠)

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧)

وقولهُ تعالى : { مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } ؛ هذا توبيخٌ لَهم ؛ أي كيف ترضُون لله ما لا ترضون لأنفُسِكم ، { أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } ، أفلاَ تتَّعظُون فتمتَنعون عن مقالِتكم ، { أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ } ؛ أم لكم حجَّةٌ بيِّنةٌ على صحَّة دعواكم هذهِ ، { فَأْتُواْ بِكِتَابِكُمْ } ؛ وحجَّتِكم ، { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } فيما تدَّعون.

(٠/٠)

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً } ؛ أي جعلَ هؤلاءِ بينَ اللهِ وبينَ الملائكةِ الذين يشاهدونَهم نسَباً ، وسُميت الملائكة جِنَّةً في هذا لاستتارهم عن أعيُن الناسِ كاستتار الجنِّ ، وقولهُ تعالى : { وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } ؛ أي علِمَت الملائكةُ أنَّ الكفارَ الذين عبَدُوهم لَمُحضَرون في العذاب لدُعائِهم إلى هذا القولِ.
ثم نَزَّهَ اللهُ تعالى نفسَهُ فقالَ : { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } ؛ أي عمَّا يصِفُونَهُ ويُضِيفُونَهُ إليه ، { إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } ؛ لكنَّ عبادَ اللهِ المخلَصين من الجنِّ والإنسِ لا يُحضَرون هذا العذابَ.

(٠/٠)

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ } ؛ هذا خطابٌ لأهلِ مكَّة ، معناهُ : فإنَّكم أيُّها المشركون وما تعبدونَهُ من دونِ الله الأصنامُ ، { مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ } ؛ أي ما أنتم على ذلك بمُضِلِّين أحَداً ، { إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ } ، إلاَّ مَن كان في علمِ الله أنه يَصْلَى الجحيمَ ، وفي هذا بيانٌ على أنَّهم يُفسِدون أحَداً إلاَّ مَن كان في معلومِ الله أنه سيَكفُر ، يعني أن قضاءَ اللهِ سبَقَ في قومٍ بالشَّقاوة ، فإنَّهم يَصْلُونَ النارَ ، فهُم الذين يُضِلُّونَ في الدِّينِ ويعبدون الأصنامَ.

(٠/٠)

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ } ؛ هذا من قولُ جِبرِيلَ عليه السلام للنبيِّ صلى الله عليه وسلم يقولُ : ليس منَّا معشرُ الملائكةِ ملَكٌ في السَّمواتِ والأرضِ إلاَّ له موضعٌ معلوم يَعبُدُ اللهَ فيه ، لا يتجاوزُ ما أُمِرَ به ، { وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ } ؛ أي الْمُصْطَفُّونَ في الصَّلاة كصُفوفِ المؤمنين. وَقِيْلَ : صافُّون حولَ العرشِ ينتظرون الأمرَ والنهيَ من اللهِ تعالى ، { وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ } ؛ أي الْمُصَلُّونَ للهِ ، المنَزِّهُون له عن السُّوءِ ، وعن جميعِ ما لا يَليقُ بصفاتهِ.

(٠/٠)

وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ } ، أي وقد كان كفارُ مكَّة يقولون : { لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأَوَّلِينَ } ، لو جاءَنا ذِكرٌ كما جاءَ غيرَنا من الأوَّلين من الكتُب ، { لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } ؛ لأخلَصْنا العبادةَ لله ، فلمَّا جاءَهم الرسولُ والكتاب كما قالُوا وطلبوا ؛ { فَكَفَرُواْ بِهِ } ، كفَرُوا بذلكَ ، { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } ، ماذا ينْزِلُ بهم ، وهذا كما قالُوا : لو أنَّا أُنزِلَ علينا الكتاب لكُنَّا أهدَى منكم.

(٠/٠)

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ } ؛ معناهُ : لقد تقدَّمَ وعدُنا بالنصرِ والظَّفر لعبادِنا المرسَلين ، { إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ } ، يعني بالكلمةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي }[المجادلة : ٢١] فهذه الكلمةُ التي قد سبقَت ، فاللهُ تعالى لم يفرِضَ على نبيٍّ الجهادَ إلاّ ونصرَهُ وجعلَ العاقبةَ له ، قال الحسنُ : (مَا غُلِبَ نَبِيٌّ فِي حَرْبٍ وَلاَ قُتِلَ فِيْهِ قَطٌّ).

(٠/٠)

وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ } ؛ أي جندُ اللهِ لهم الغلبَةُ بالحجَّة والنصرِ في الدُّنيا ، وينتقمُ الله من أعدائهِ في الآخرة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ } ؛ أي أعْرِضْ عنهم حتى تنقضِيَ المدَّةُ التي أُمهِلوا فيها ، { وَأَبْصِرْهُمْ } ، في عذاب الآخرة ، { فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ } ؛ ما وُعدوا من العذاب. وَقِيْلَ : معناهُ : أعرِضْ عنهم حتى نأْمُرَكَ بقتالهم ، وأبصِرهُم بقلبكَ فسوف يُبصِرُونَ العذابَ بأعيُنهم.
فقالوا للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : متى ينْزلُ بنا العذابُ الذي تعِدُنا به ؟ فقالَ اللهُ تعالى : { أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ } ؛ أي يطلبُون تعجيلَ عذابنا لجهلِهم ، { فَإِذَا نَزَلَ } ؛ العذابُ ، { بِسَاحَتِهِمْ } ؛ أي بفَنَاءِ دارهم وموضعِ منازلهم ، { فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ } ؛ أي فبئسَ صباحُ قومٍ أنذرَهم الرسلُ فلم يؤمنوا.
وعن أنسٍ رضي الله عنه قال : " لَمَّا أتَى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم خَيبَرَ ، قالَ : " اللهُ أكْبَرُ ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ إنَّا إذا نَزَلْنَا سَاحَةَ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذرينَ " ".

(٠/٠)

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩)

وقولهُ تعالى : { وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ } ؛ إنما ذكرَهُ ثانياً تأكيداً لوعدِ العذاب ، وقولهُ تعالى : { وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ } ؛ ليس هذا بتكرار ؛ لأنَّهما عذابَان ، أرادَ بالأولِ عذابَ الآخرةِ ، وبالثاني عذابَ الدُّنيا يومَ بدرٍ.

(٠/٠)

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠)

قَوْلُهُ تَعَلَى : { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ } ؛ أي تنْزيهاً لربكَ رب القُدرَةِ والمنَعَة والغلبَةِ عمَّا يقولون من الكذب بالأوثان آلهةً ، وأنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ.

(٠/٠)

وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١)

وقولهُ تعالى : { وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ } ؛ الذين بلَّغُوا عن اللهِ التوحيدَ والشرائعَ. قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : " إذا سَلَّمْتُمْ عَلَيَّ فَسَلِّمُواْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، فَإِنَّمَا أنَا رَسُولٌ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ".

(٠/٠)

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ أي الشُّكْرُ للهِ رب الخلائقِ على إهلاكِ الأعداء وإعزاز الأولياء. وَقِيْلَ : معناهُ : والحمدُ للهِ رب العالَمين على إهلاكِ المشركين ونُصرَةِ الأنبياءِ.
وعن عليٍّ رضي الله عنه أنه قالَ : (مَنْ أحَبَّ أنْ يَكْتَالَ بالْمِكْيَالِ الأَوْفَى مِنَ الأَجْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلْيَكُنْ آخِرُ كَلاَمِهِ مِنْ مَجْلِسِهِ : سُبْحَانَ رَبكَ رَب الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ...) إلى آخرِ السُّورة.

(٠/٠)

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١)

{ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ } ؛ اختلَفُوا في قولهِ (ص) قَالَ : (صَدَقَ اللهُ) وهو قول الضحَّاكُ ، وقال عطاءُ : (صَدَقَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم) ، وقال محمَّدُ بن كعبٍ القرظي : هُوَ مِفْتَاحُ اسْمِ اللهِ صَمَدٌ وَصَانِعُ الْمَصْنُوعَاتِ وَصَادِقُ الْوَعْدِ). وَقِيْلَ : هو من فَواتِحِ السُّوَر. قال ابنُ عبَّاس : (هُوَ قَسَمٌ أقْسَمَ اللهُ

بِهِ) ، وقال سعيدُ بن جُبير : (هُوَ بَحْرٌ يُحْيِي اللهُ بِهِ الْمَوْتَى بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ). وَقِيْلَ : هو إشارةٌ إلى صُدودِ الكفَّار عنِ القُرْآنِ والْهُدَى.

قال الكلبيُّ : (مَعْنَاهُ : أعْرَضَ عَنِ الْهُدَى) كَأَنَّهُ ذهَبَ إلَى أنَّهُ كَانَ فِي الأصْلِ صَدٌّ ؛ أي صَدَّ أبُو جَهْلٍ أوْ صَدَّ أهْلُ مَكَّةَ عَنِ الْحَقِّ ، فَأُبدِلَتِ إحْدَى الدَّالَينِ ألِفاً).

وقرأ عِيسَى بن عُمر : (صَادَ) بفتحِ الدَّال ، ومثلُ قاف ونون ، لاجتماعِ السَّاكِنَين وحرَّكَها بأخَفِّ الحركَاتِ. ومعناهُ : صَادَ مُحَمَّدٌ قلوبَ الرِّجالِ واستَمالَها حتى آمَنُوا به. وقرأ الحسنُ : (صَادِ) بكسرِ الدَّال من الْمُضَادَّاتِ التي هي مِن المقابلَةِ والمعارضةِ ؛ أي عارضْ عملَكَ بالقُرْآنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ } أي ذِي البيَانِ الْهَادِي إلى الحقِّ. وَقِيْلَ : معناهُ : ذِي الشَّرَفِ ، كما في قَوْلِهِ تَعَالَى : { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ }[الزخرف : ٤٤] والمعنَى : أقْسَمَ اللهُ تعالى بالقُرْآنِ أنَّ مُحَمَّداً صادقٌ ، وجوابُ قَسَمٍ محذوف تقديرهُ : والقُرْآنِ ذِي الذِّكرِ ما الأمرُ كما يقولُ الكفَّار.

(٠/٠)

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ } ؛ يعني : كفَّارَ مكَّة في مَنَعَةٍ وحَمِيَّةٍ وتكبُّرٍ عن الحقِّ ، { وَشِقَاقٍ } أي خِلاَفٍ وعدَاوةٍ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ } ؛ أي مِن أُمَمٍ بتكذِيبهم الرُّسُلَ ، { فَنَادَواْ } ؛ عند وُقوعِ الهلاكِ بهم بالاستغاثةِ ، { وَّلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ } ؛ أي وليسَ الحينُ حينَ نَزْوٍ ولاَ قَرارٍ ، قال وهبُ : (لاَتَ باللُّغَةِ السِّرْيَانِيَّةِ : وَلَيْسَ ، وذلك أنَّ السِّريانِيَّ إذا أرَادَ أن يَقُولَ وَلَيْسَ يَقُولُ : وَلاَتَ) وقال أئِمَّةُ اللُّغَةِ : (أصْلُهَا (لاَ) زِيْدَتْ فِيْهَا التَّاءُ ، كَمَا زِيْدَتْ فِي ثَمَّتَ وَرُبَّتَ). وقال قومٌ : إنَّ التاءَ زيدَتْ في (حِينَ) كما زيدَتْ في قولِ الشَّاعرِ : الْعَاطِفُونَ تَحِينَ مَا مِنْ عَاطِفٍ وَالْمُطْعِمُونَ زَمَانَ أيْنَ الْمُطْعِمُ؟والمرادُ بتَحِينَ : حِينَ. فمَن قالَ : إنَّ التاء مع لاَ ، فالوقفُ عليه بالتاءِ. ورُوي عن الكسائيِّ (وَلاَه) بالهاءِ في الوقفِ ، ومثلهُ روى قنبلُ عن ابنِ كثير. ومَن قالَ : إن التاءَ مع حينَ لاَ ، فالوقفُ عليهِ ، (ولا) ثُم تبتدئ : تحين مناص.

قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ كُفَّارُ مَكَّةَ إذا قَاتَلُواْ فَاضْطَرَبُواْ فِي الْحَرْب ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَنَاصٍ ؛ أيْ اهْرُبُواْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ، فَلَمَّا نَزَلَ بِهِمُ الْعَذابُ ببَدْرٍ قَالُواْ : مَنَاصٍ ، عَلَى عَادَتِهِمْ ، فَأَجَابَتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ : وَلاَتَ حِيْنَ مَنَاصٍ ؛ أيْ لَيْسَ هَذا حِيْنَ مَنْجَى).

وَقِيْلَ : معناهُ : { وَّلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ } أي ليسَ هذا حينُ نُزْوٍ ولا حينَ فِرَار ، والمناصُ مصدرٍ من

النَّوْصِ ، يقالُ : نَاصَهُ يَنُوصُهُ إذا فَاتَهُ ، ويكون النَّوْصُ بمعنى التأخُّرِ ؛ أي ليس هذا حينَ التأَخُّرِ ، والنَّوْصُ هو الْفَوْتُ والتأخُّر.

(٠/٠)

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَجِبُواْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ } ؛ أي وعَجِبَ المشركونَ أنْ جاءَهم نَبيٌّ منهم يخوِّفُهم من عذاب الله ، { وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَاذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ } ؛ يعنونَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم.

(٠/٠)

أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَـاهاً وَاحِداً } ؛ أي قالُوا لفَرْطِ جَهلِهم على وجهِ الإنكار : أجعَلَ مُحَمَّدٌ الآلِهَةَ إلَهاً واحداً ؟ { إِنَّ هَاذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } ؛ أمّـا هذا الذي يقولُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم من ردِّ الحوائجِ إلى إلَهٍ واحدٍ ، إلاَّ شيء مُفْرِطٌ في العَجَب.
والعُجَابُ : ما يكون في غايَةِ العَجَب ، يقالُ : رجلٌ طُوَالٌ ، وأمْرٌ كُبَارٌ ، وسيفٌ قُطَاعٌ ، وسَيلٌ جُحَافٌ ، ويرادُ بذلك كلَّ مبالغةٍ.
" وذلك أنَّ عُمرَ بنَ الخطَّاب لَمَّا أسلمَ شَقَّ على قُريشٍ ، فقال الوليدُ بن المغيرةِ للمَلأ مِن قريشٍ وهم الرُّؤساءُ والصَّناديدُ والأشرافُ ، وكانوا خَمسةً وعشرين رَجُلاً ، منهم الوليدُ بن المغيرة وهو أكبَرُهم سِنّاً ، وأبو جهلٍ ، وأُبَيُّ بن خلَفٍ ، وأبو البحتري بن هِشَام ، وعُتبة وشيبَةُ ابنَا ربيعةَ ، والعاصُ بن وائلٍ ، والنضِرُ بن الحارثِ ، ومَخرَمَةُ بن نوفلٍ ، وزمعَةُ بن الأسودِ ، والأحنَفُ بن شُريقٍ ، وغيرُهم.
قال لَهم الوليدُ بن المغيرة : امْشُوا إلَى أبي طَالِبٍ وَقُولُواْ لَهُ : أنْتَ شَيْخُنَا وَكَبيرُنَا ، وَإنَّا أتَيْنَاكَ لِتَقْضِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ابْنِ أخِيْكَ. فَمَشُواْ إلَيْهِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مَرِيضٌ مَرَضَ الْمَوْتِ ، فَشَكُواْ إلَيْهِ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ لَهُ : يَا ابْنَ أخِي مَا تُرِيْدُ مِنْ قَوْمِكَ ؟ قَالَ : " أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً إذا قَالُوهَا مَلَكُواْ الْعَرَبَ وَدَانَتْ لَهُمْ الْعَجَمُ " فَقَالُواْ : وَمَا هِيَ؟! قَالَ : " قُولُواْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ " فَنَفَرُواْ مِنْ ذلِكَ ؛ وَقَالُواْ :

أنَجْعَلُ آلِهَةً إلَهاً وَاحِداً؟! "
وَقِيْلَ : " إنَّ أبا طالبٍ لَمَّا دعَا النبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ : با ابنَ أخِي ؛ هؤلاءِ قومُكَ يسألونكَ السَّواءَ ، فلا تَمِلْ كلَّ الميلِ عليهم ، فقال : " وَمَاذا يَسْأَلُونَنِي ؟ " قال : ترفضُ ذكرَ آلهتهم ويدَعُونَكَ وإلَهَكَ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : " إنِّي أدْعُوهُمْ إلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ " قَالُوا : وما هي ؟ قَالَ : " لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ " ".
فنَفَرُوا من ذلكَ ، وقال : { أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَاهاً وَاحِداً } ، فاغتاظوا مِن ذلكَ وخرَجُوا من عندِ أبي طالبٍ يقولُ بعضهم لبعضٍ : أمشُوا واصبروا على آلهتِكُم. فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ } ؛ أي انطلقَ مِن مجلسهم وهم يقولون الذي كانوا فيه عندَ أبي طالب ، وهم يقولون : اثبتُوا على عبادةِ آلهتِكُم واصبروا ، { أَنِ امْشُواْ وَاْصْبِرُواْ عَلَى آلِهَتِكُمْ } ؛ على دِينكم ، { إِنَّ هَاذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ } ؛ أي هذا الشيءُ يريده مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ولا يتمُّ له ذلك.

(٠/٠)

مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)

قولهُ تعالى : { مَا سَمِعْنَا بِهَاذَا فِى الْمِلَّةِ الآخِرَةِ } ؛ أي قالُوا : ما سَمِعْنَا بهذا الذي يقولهُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم من التَّوحيدِ في الملَّة الآخرةِ ، يعنونَ النَّصرانية ؛ لأنَّها آخِرُ الْمِلَلِ ، والنصارَى لاَ تُوَحِّدُ بأنَّهم يقولون : ثالثُ ثلاثةٍ. { إِنْ هَاذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ } ؛ أي قَالُوا : ما هذا الذي يقولهُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم إلاَّ كذبٌ اختَلَقَهُ من تلقَاءِ نفسهِ ، يعنونَ الذي جاءَ به من التوحيدِ والقُرآن.

(٠/٠)

أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا } ؛ أي قالَ المشركون : اخْتُصَّ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم بالنُّبوة والكتاب من بيننا ، ونحن أكبرُ منه سنّاً وأعظمُ شرَفاً! والمعنى بالذِّكْرِ القرآنُ.
يقول اللهُ تعالى : { بَلْ هُمْ فَي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي } ؛ أي يقولون ما يعتقدونَهُ إلاّ شاكِّين ، { بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ

عَذَابِ } ؛ الاستئصالِ ، وهذا تَهديدٌ لهم ، أي أنَّهم سيذُوقوا العذابَ ثم لا ينتَفِعون بزوالِ الشَّكِّ في ذلكَ الوقتِ.

(٠/٠)

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ } ؛ معناهُ : عندَهم خزائنُ رحْمَة ربكَ ؛ أي بأيدِيهم مفاتيحُ النُّبوة والرِّسالة فيضعونَها حيث شاؤُا. وَقِيْلَ : معناهُ : عندَهم خزائنُ رحمة ربكَ فيمنعونَكَ ما مَنَّ الله به عليكَ من الكرامةِ وفضَّلَكَ به من الرِّسالةِ. ومعنى الآيةِ : ليس ذلكَ بأيدِيهم ولكنه بيَدِ العزيزِ في مُلكهِ ، الوَّهاب الذي وَهَبَ النبوَّة لكَ.

(٠/٠)

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأَسْبَابِ } ؛ وذلكَ أنَّهم كانوا يَحْسِدُونَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم على ما خُصَّ به من النبوَّةِ والوَحْيِ ، فقالَ اللهُ تعالى : { أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } فيُنازعُوا خالِقَهم ، وينَزِّلُ الوحيَ على من يختارُ ، فقال لَهم : { فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأَسْبَابِ } أي فَلْيَصْعَدْ في طُرُقِ السَّموات مِن سماءٍ إلى سماء ، فليَمْنَعِ الوحيَ عنكَ إنْ كان لهم مَقْدِرَةٌ على ذلكَ.

(٠/٠)

جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّن الأَحْزَابِ } ؛ أخبرَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ أنه سيُهزَمُ جندُ المشركين

بِبَدْرٍ ، و(جُنْدٌ) خبرُ مبتدأ محذوفٍ ؛ أي هُمْ جُنْدٌ ، و(مَا) زائدةٌ ، و(هُنَالِكَ) إشارةٌ إلى بدلِ ومَصَارعُهم بها و(الأَحْزَاب) سائرُ مَن تقدَّمَهم من الكفَّار الذين تجرَّؤوا على الأنبياءِ عليهم السلام.

(٠/٠)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ } ، أي كذبَتْ قبلَ قومِكَ قومُ نوحٍ ، { وَعَادٌ } ، هوداً ، وَكذب ، { وفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ } ، وموسى عليه السلام ، { وَثَمُودُ } ؛ صالحاً ، { وَقَوْمُ لُوطٍ } ، لوطاً ، { وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ } ؛ شعَيباً ، كَذبَ هؤلاءِ أنبياءَهم فحلَّ بهم عذابُ الاستئصالِ ، وكذلكَ { أُوْلَئِكَ } ؛ أي أُوْلَئِكَ ، { الأَحْزَابُ } ، والأحزابُ الجماعةُ الكثيرة القويَّة ، { إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ } ، كلُّهم كذبُوا الرُّسُلَ رسلهم ، { فَحَقَّ عِقَابِ } ، فحَقَّ عليهِم عقابي وعذابي ، وكذلك يحقُّ على قومِكَ.
وسُمِّيَ فرعونُ ذُو الأوتادِ ؛ لأنه كان يَمُدُّ بين الأوتادِ فيُرسِلُ عليهم الحيَّات والعقارب. وَقِيْلَ : إنه كان إذا غَضِبَ على الإنسانِ وَاتَدَ يَدَيْهِ ورجْلَيْهِ ورأسَهُ على الأرضِ ، قال عطيَّة : (ذُو الأوتادِ ؛ أي ذُو الجنودِ والْجُمُوعِ الكثيرةِ) يعني أنَّهم كانوا يُقَوُّنَ أمرَهُ ويشددون مُلكَهُ كما يُقَوِّي الوتدُ الشيءَ. وَقِيْلَ : الأوتادُ الأَبْنِيَةُ الْمَشِيدَةُ ، سُمِّيت بذلك لارتفاعِها كما سُميت الجبالُ أوتَاداً.

(٠/٠)

وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يَنظُرُ هَاؤُلآءِ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً } ؛ أي ما ينظر أهلُ مكَّة لوقوعِ العذاب بهم إلاَّ صيحةً واحدةً وهي نفخةُ البعثِ ، وذلك أنَّ العقوبةَ في قومِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم مُؤَخَّرَةٌ إلى يومِ البعثِ ، وعقوبةُ الأممِ الماضية كانت مُعَجَّلَةً في الدُّنيا ومُؤجَّلةً في الآخرةِ ، ألاَ ترَى أنَّ الله تعالى ذكَرَ عقوبةَ الاستئصالِ في الدُّنيا من الأُمم الماضيةِ ، وقالَ في هذهِ الأُمَّة{ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ }[القمر : ٤٦].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ } ؛ أي ما لِتِلْكَ الصَّيحةِ مِن رجعةٍ إلى الدُّنيا ، والفَوَاقُ بضَمِّ الفاءِ

وفتحِها بمعنىً واحدٍ وهو رجوعٌ ، ومن ذلكَ قولُهم : أفَاقَ فلانٌ من الْجُنُونِ ومِن المرضِ ؛ إذا رَجَعَ إلى الصِّحة. والفُوَاقُ بضَمِّ الفاءِ ما بين حَلْبَتَي النَّاقَةِ ؛ لأن اللَّبن رجوعهُ إلى الضَّرعِ بينَ الحلبَتين. والمعنى : ما ينظرُ هؤلاء إلاّ صيحةً واحدة ما لَها من رُجوعٍ. وَقِيْلَ : يرَدَّدُ لكَ الصوتُ فيكون له رجوعٌ.

(٠/٠)

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ } ؛ أي قالَهُ المشركون عَجِّلْ لنا صَحِيفَتَنا قبلَ الحساب حتى نَعلمَ ما فيها ، قال الكلبيُّ : (لَمَّا نَزَلَ فِي الْحَاقَّةِ : { فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ }[الحاقة : ١٩] و{ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ }[الحاقة : ٢٥] قالُوا على جهةِ الاستِهْزاء : رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا فِي الدُّنْيَا ، فقيل : يومُ الحساب أعجِلْ لنا كتابَنا ، قالُوا ذلك تَكذِيباً واستهزاءً).
والقِطُّ : الصَّحِيفَةُ التي أحْصَتْ كلَّ شيءٍ. وَقِيْلَ : القِطُّ : النَّصيبُ ، وسُميت كتبُ الجوائزِ قُطُوطاً لأنَّهم كانوا يكتُبون الأنصِبَاءَ من العطَايَا في الصَّحائفِ ، يقالُ : أخَذ فلانٌ قِطَّهُ ؛ إذا أخذ كتابَهُ الذي كُتِبَ له بجائزتِهِ وصِلَتِهِ.
وقال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَى قَوْلُهُ { قِطَّنَا } أيْ حَظَّنَا مِنَ الْعَذاب وَالْعُقُوبَةِ). قال قتادةُ : (نَصِيبَنَا مِنَ الْعَذاب). قال مجاهدُ : (عُقُوبَتَنَا). وقال عطاءُ : (هُوَ يَقُولُهُ النَّضِرُ بْنُ الْحَارِثِ : اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أو ائْتِنَا بعَذابٍ أليمٍ).

(٠/٠)

اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اصْبِر عَلَى مَا يَقُولُونَ } ؛ اصْبرْ يَا مُحَمَّدُ على ما يقولون مِن تكذِيبكَ وعلى قولِهم إنَّكَ ساحرٌ وشاعر ومجنونٌ وكاهن ، وانتظِرْ ما وعَدَكَ اللهُ من النصرِ عليهم والانتقامِ منهم ، { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ } ؛ أي ذِي القوَّة في العبادةِ وذا النِّعَمِ الكثيرةِ ، كيف صَبَرَ على أذى قومِهِ ، { إِنَّهُ أَوَّابٌ } ؛ أي مُطِيعٌ للهِ ، مُقبلٌ على طاعتِهِ. والأَوَّابُ : كثيرُ الأَوْب الى اللهِ تعالى. قال الزجَّاجُ : (كَانَتْ قُوَّةُ

دَاوُدَ عَلَى الْعِبَادَةِ أَتَمَّ قُوَّةٍ ، كَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً ، وَذلِكَ أَشَدُّ الصَّوْمِ ، وَكَانَ يُصَلِّي نِصْفَ اللَّيْلِ).

(٠/٠)

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ } ؛ معناهُ : إنَّ الجبالَ كَانَتْ تُسَبحُ معَهُ غُدوةً وعشِيَّة. والإشراقُ طُلُوعُ الشَّمسِ وإضاءَتُها ، يقالُ : شَرَقَتْ إذا طلَعَتْ ، وأشْرَقَتْ في الآية بصلاة الضُّحى ، وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنه : " كُنْتُ أقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ لاَ أدْري مَا هِيَ ، حَتَّى حَدَّثَتْنِي أُمُّ هَانِيءٍ فِي بَيْتِ أبي طَالِبٍ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ عَلَيْهَا فَدَعَا بوُضُوءٍ ، فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى الضُّحَى ، وَقَالَ : " يَا أُمَّ هَانِيءٍ هَذِهِ صَلاَةُ الإشْرَاقِ " ".

(٠/٠)

وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ } ؛ أي وسخَّرنا له الطَّيرَ مجموعةً إليه تُسبحُ اللهَ معه غُدوةً وعشياً ، { كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ } أي كلٌّ للهِ تعالى مُسَبحٌ ومطيعٌ يرجع التسبيحَ مع داودَ كلما سبَّحَ. وَقِيْلَ : معناهُ : كلٌّ له رجَّاعٌ إلى طاعتهِ وأمره.

(٠/٠)

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ } ؛ أي قوَّينا مُلكَهُ وثبَّتناهُ بالهيبَةِ ، ويقالُ بالحرَسِ ، كان يحرسُ محرابَهُ كلَّ ليلةٍ ثلاثةٌ وثلاثون ألفَ رجُلٍ ، كان فيهم أبناءُ الأنبياءِ لم يطمَعْ في مُلكهِ أحدٌ. قرأ الحسنُ :

(وَشَدَّدْنَا) بالتشديد. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه : (الْحِكْمَةُ هِيَ النُّبُوَّةُ وَالْمَعُونَةُ بكُلِّ مَا حَكَمَ). فقال مقاتلُ : (الْحِكْمَةُ الْفَهْمُ وَالْعِلْمُ). وَقِيْلَ : الحكمةُ كلُّ كلامٍ حسَنٍ يدعُو إلى الهدى وينهَى عن الرَّدَى.

وأما { فَصْلَ الْخِطَابِ } فهو فصلُ القضَاءِ بين الحقِّ والباطلِ فيما بين الخصُومِ ، لا يُتَعْتِعُ في قضائهِ.

وَقِيْلَ : فصلُ الخطاب وهو الحكمُ بالبيِّنة واليمينِ. وَقِيْلَ : هو قولهُ : أمَّا بعدُ ، وهو أوَّل مَن قال : أمَّا بعدُ ، ومعناهُ أما بعدَ حمدِ الله فقد بلغتُ كذا وسمعتُ كذا.

(٠/٠)

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُاْ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابَ } ؛ اختلَفُوا في خَطِيئَةِ داودَ عليه السلام والذي هو مستفيضٌ بين العوَامِّ ما ذكرَهُ الكلبيُّ : (أن داودَ عليه السلام كان يُصَلِّي ذاتَ يومٍ في محرابه ، والزَّبُورُ منشورٌ بين يدَيهِ ، إذ جاءَهُ إبليسُ في صُورةِ حَمامةٍ من ذهَبٍ فيها كلُّ لونٍ حَسَنٍ ، فوقفت بين يديهِ فمَدَّ يدَهُ ليأخُذها ، فطارَتْ غيرَ بعيدٍ من غيرِ أن توَسِّد من نفسِها ، فامتدَّ إلَيها ليأخُذها فطارت حتى وقعَتْ في الكُوَّة ، فذهبَ ليأخُذها فطارَتْ من الكوَّة ، فجعلَ داودُ عليه السلام ينظر أين تقعُ ، فأبصرَ امرأةً في بُستان تغتسلُ ، وإذا هي من أعجَب النِّساء وأحسَنِهنَّ ، وأعجبتهُ ، فلما حانَتْ منها التفاتةٌ أبصرَتْهُ فأسبَلَتْ شعرَها على جسمِها فغطَّى بدنَها ، فزادَهُ ذلك إعجاباً بها. فسألَ دواد عنها وعن زوجِها ، فقالوا اسمها تشايعُ بنت شائعٍ وزوجُها أوريَّا بن حنانا وهو غائبٌ في غُزَاةٍ بالبلقاء مع أيُّوب بن صوريا ابنِ أُخت داود ، فكتبَ داودُ إلى ابنِ أُخته : اذا أتاكَ كِتَابي هذا فابعَثْ أوريا إلى موضعِ كذا وإلى القلعةِ الفلانيَّة ، ولا يرجِعُوا حتى يفتَحوها أو يُقتلوا. فلما جاءَ الكتابُ نَدَبَهُ وندبَ الناسَ معه ، فأتَوا القلعةَ فلما أتَوْها رمَوهُم بالحجارةِ حتى قَتلُوهم وقُتِلَ أوريا معهم. فلما انقضت عدَّتُها تزوَّجَها داودُ عليه السلام ، فهي أمُّ سليمان.

فلما دخلَ داودُ عليه السلام بها ، فلم يلبَثْ إلاَّ يسِيراً حتى بعثَ عليه مَلَكين في صُورةِ آدَميَّين ، فطلبَا أن يدخُلا عليهِ فوجداهُ في يومِ عبادتهِ ، وكان مِن عادتهِ أنَّهُ جَزَّأ الدهرَ يوماً لعبادتهِ ؛ ويَوماً لنسائهِ ؛ ويوماً للقضاءِ بين النَّاسِ.

فلما جاءَ الملَكان في يومِ عبادته منَعَهُما الحرسُ من الدخولِ عليه ، فتَسوَّرُوا المحرابَ ؛ أي دخَلُوا عليه مِن فوق المحراب ، { إِذْ دَخَلُواْ عَلَى دَاوُودَ } ، فلم يشعُرْ وهو يصلِّي إلاّ وهُما بين يدَيه جالِسَين

، { فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ } ، ففَزِعَ منهما ، فقالا : لا تَخَفْ يا داودُ نحنُ ، { خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ } ؛ أي ولا تَجُرْ ، قال السدِّيُّ : (وَلاَ تُسْرِفْ) ، وقال المؤرِّج : (وَلاَ تُفْرِّطْ).

وقرأ أبو رجَاء (تَشْطُطْ) بفتح التاءِ وضمِّ الطاء الأُولى من الشَّطَطِ ، والإشْطَاطُ مجاوزةُ الحدِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاهْدِنَآ إِلَى سَوَآءِ الصِّرَاطِ } ؛ أي وَأرْشِدْنَا إلى الطريقِ المستقيم.

(٠/٠)

إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ هَذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً } ؛ قال أحدُ الملَكين : إن هذا أخِي ، أي على دِيني لهُ تِسْعٌ وتِسعون امرأةً. والنعجةُ : البقرَةُ الوحشيَّة ، والعربُ تكَنِّي عنِ المرأةِ بها ، وتشَبهُ النساءَ بالنِّعَاجِ من البقرِ ، وإنما يعني بهذا داود ؛ لأنه كان له تسعٌ وتسعون امرأةً ، وهذا من أحسنِ التَّعريضِ ، ويُسمَّى تعريضُ التفهيمِ والتنبيهِ ؛ لأنه لم يكن هناك نعاجٌ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ } ؛ أي امرأةٌ واحدة ، { فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا } ؛ أي ضُمَّها إلَيَّ واجعلني أعُولُها. والمعنى : طلِّقْها حتى أتزوَّجَها ، وقال ابنُ جبير : (مَعْنَى قَوْلِهِ : { أَكْفِلْنِيهَا } أيْ تَحَوَّلْ عَنْهَا) ، { وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ } ؛ أي غلبَني ، وقال الضحَّاك : (أيْ تَكَلَّمْ وَكَانَ أفْصَحَ مِنِّي ، وَإنْ عَادَانِي كَانَ أبْطَشَ مِنِّي) ، وقال عطاءُ : (مَعْنَاهُ أعَزُّ مِنِّي وَأقْوَى عَلَى مُخَاطَبَتِي لأَنَّهُ كَانَ الْمَلِكَ).

(٠/٠)

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ } ؛ أي إنْ كان الأمرُ كما تقولُ فقد ظلمَكَ بما كفَلَكَ من قولهِ عن امرأتِكَ ليتزَوَّجَها هو. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ } ؛ معناهُ : وإنَّ كثيراً من الشُّركاء لَيظلِمُ بعضُهم بعضاً ، ظنَّ داودُ أنَّهما شَريكان. وقولهُ تعالى : {

إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ معناهُ : إلاّ الذين آمَنُوا { وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } ؛ فإنَّهم لا يَظلمُونَ أحَداً ، { وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ } ؛ أي هم قليلٌ ، يعني الذين لاَ يظلِمُون.

قال السديُّ : (لما قال أحدُهما : إنَّ هذا أخِي له تسعٌ وتسعون نعجةً ، قال داودُ عليه السلام للآخر : ما تقولُ ؟ قالَ : نَعَمْ لي تسعٌ وتسعون نعجةً وله نعجةٌ ، وأنا أُريد أنْ آخُذها وأكَمِّل نعاجِي مائةً ، قال داودُ عليه السلام : وهو كارهٌ ؟ قال نعَمْ وهو كارهٌ ، قال : إذاً لا ندعُكَ وإنْ رُمْتَ ذلك ضرَبْنا منكَ هذا ، وهذا يعني طرفَ الأنفِ ، وأصلهُ : الجبهة.

قال : يا داودُ أنتَ أحقُّ أن يُضرب مثلَ هذا ، وهذا يعني طرفَ الأنفِ وأصلهُ ، حيث كان له تسعٌ وتسعون امرأةً ولم يكن لأوريَّا إلاّ امرأةً واحدة ، فلم تزَلْ تُعَرِّضُهُ للقتلِ حتى قُتل وتزوَّجتَ امرأتَهُ. ثم صعدَا إلى السَّماء ، فعَلِمَ داودُ عليه السلام أنَّ الله قد ابتلاهُ وامتحنَهُ ، فخَرَّ راكعاً أي ساجِداً وأنابَ. ورجعَ إلى طاعةِ الله تعالى بالتَّوبةِ والنَّدامَةِ.

ومعنى قولهِ تعالى : { وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ } ؛ أي وعَلِمَ داودُ أنَّا امتحنَّاهُ بما قدَّرنا عليه من نظرهِ إلى المرأةِ وافتتانه بها ، وهذا قولُ بعضِ المفسِّرين ، إلاّ أنَّ هذا قَوْلٌ مَرْدُودٌ ، لاَ يُظَنُّ بدَاوُدَ عليه السلام ضَلاَلَةٌ ، فهو أجَلُّ قدرةً وأعظمُ منْزلَةً ، وكيف يُظنُّ بالأنبياءِ عليهم السَّلام أن يعرِّضَ المسلمينَ للقتلِ لتحصيل نسائهم لأنفُسِهم ، ومَنْ نَسَبَ الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ إِلَى هَذا وَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ مِمَّنْ لاَ يَصْلُحُ لإِيْمَانِهِ بِهِمْ ، وَلَئِنْ يُخْطِئَ الإِنْسَانُ فِي نَفْيِ الْفَوَاحِشِ عَنْهُمْ خَيْرٌ مِمَّنْ يُخْطِئُ فِي إِضَافَتِهَا إِلَيْهِمْ ، وَقَدْ أُمِرْنَا فِي الشَّرِيعَةِ بِحَمْلِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصِّحَّةِ وَالسَّدَادِ مَا أَمْكَنَ.

وعن عبدِالله بن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قالَ : (مَا زَادَ دَاوُدُ عليه السلام عَلَى أنْ قَالَ لِزَوْجِهَا : تَحَوَّلْ لِي عَنْهَا). وعن عليٍّ رضي الله عنه قال : (لَئِنْ سَمِعْتُ أَحَداً يَقُولُ إِنَّ دَاوُدَ عليه السلام قَارَبَ مِنْ تِلْكَ الْمَرَأَةِ سُواءً أَوْ حَدَّثَ بِحَدِيثِ دَاوُدَ عليه السلام عَلَى مَا يَرْوِيهِ الْقُصَّاصُ مُعْتَقِداً صِحَّتَهُ جَلَدْتُهُ مِائَةً وَسِتِّينَ جَلْدَةً) يعني مثلَ حدِّ قذفِ سائرِ الناس.

وَقِيْلَ : إنَّ ذنبَ داودَ عليه السلام أنه تَمَنَّى أن تكون له امرأةُ أوريا حَلاَلاً ، وحدَّثَ نفسَهُ بذلك ، فاتفقَ غزوُ أوريا وتقدمه في الحرب وهلاكهُ ، فلما بلغَهُ قتلهُ لم يَجْزَعْ ولم يتوجَّع عليه كما يجزعُ على غيرهِ من جُندهِ إذا هلكَ ، ثم تزوَّجَ امرأتَهُ فعاتبَهُ اللهُ على ذلكَ ؛ لأن ذنوبَ الأنبياءِ وإن صغُرت فهي عظيمةٌ عند اللهِ.

(٠/٠)

يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ } ؛ أي قال اللهُ له بعدَ المغفرةِ ، { يادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ } أي نَبيّاً مَلِكاً على بني إسرائيلَ ، والخليفةُ هو المدبرُ للأمرِ والمقيم. يا داودُ إنَّا صيَّرناكَ خليفةً في الأرضِ تدبرُ أمورَ العبادِ مِن قِبَلِنَا ، { فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ } ؛ أي العدلِ الذي هو حكمُ الله بين خلقهِ ، { وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى&# } ، في الحكمِ بين النَّاس ، { ١٦٤٨; فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } ، أي فيصرِفُكَ الهوَى عن طاعةِ الله ، { إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } ، أي عن دين الله ، { لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُ } ، في الآخرة ، { بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الْحِسَابِ } أي تركُوا العملَ ليومِ الحساب.

(٠/٠)

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً } ؛ أي ما خلقنَاهُما وما بينَهما من الخلقِ عبَثاً إلاَّ للأمرِ والنَّهي ، وإنَّما خلقنَاهُما للتعبُّدِ ولنجزي الْمُحسِنَ على إحسانهِ ، والمسِيءَ على إساءَتهِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ يعني أهلَ مكَّة الذين ظَنُّوا أنَّهما خُلِقا لغيرِ شيء ، وأنَّهُ لا قيامةَ ولا حسابَ ، { فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ }.
قال مقاتلُ : قَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ : إنَّا نُعْطَى فِي الآخِرَةِ مَا تُعْطَوْنَ فأنزلُ اللهُ تَعَالَى : { أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ } ؛ معناهُ : أنَجْعَلُ المؤمنين المطيعِينَ كالْمُفسِدِينَ في الأرضِ ؟ { أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ } ؟ أي أم نجعلُ الذين يتَّقون الكفرَ والكبائرَ كالفجَّار الذين يرتكبون تلكَ الكبائر ، لا نُسَوِّي بين الفريقينِ ولا نُنْزِلُهما منْزِلةً واحدةً.

(٠/٠)

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ } أي هذا كتابٌ أنزلناهُ إليك مباركٌ فيه بركةٌ لكم ، كثيرٌ خيرهُ

ونفعه يعني القرآنَ ، وقولهُ تعالى : { لِّيَدَّبَّرُواْ آيَاتِهِ } ؛ أي ليتدبَّرِ الناسُ آياتهِ يعني آياتِ الله ، { وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } ؛ أي ليتَّعِظْ ذوي العقولِ من الناس.

(٠/٠)

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ } ؛ أي أعطَينا لداودَ وَلداً وهو سليمانُ ، ثم أثْنَى علَى سليمان فقالَ : { نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } ؛ أي رجَّاعٌ إلى اللهِ ، مُقبلٌ على طاعتهِ.

(٠/٠)

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١)

وقولهُ تعالى : { إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ } ؛ معناهُ : إذ عُرض على سليمان بعدَ العصرِ الخيلُ السَّوابقُ وهي الخيول التي غَنِمَها سليمانُ من أهلِ دمشق وأهل نَصِيبينَ ، كانوا جَمعوا جُموعاً ليقاتلوهُ فهزمَهم وأصابَ منهم ألفَ فَرَسٍ غُرابٍ فعُرِضَتْ ، فجعلَ ينظرُ إليها ويتعجَّبُ من حُسنها حتى شغلَتْهُ عن صلاةِ العصرِ وغربَتِ الشمسُ.
فذكرَ الصلاةَ فغَضِبَ وقالَ : رُدُّوا الخيلَ عَلَيَّ ، فرُدَّت فجعلَ يضربُ سُوقَها وأعناقَها بالسَّيف حتى عَقَرَ منها تِسعمائة فرَسٍ ، وهي التي كانت عُرضت عليه وبقيت مائةٌ لم تُعرض عليه ، فكُلُّ ما في أيدِي الناسِ من الخيلِ العِراب فهي من نَسْلِ تلك المائةِ. هذا ذكرَهُ الكلبيُّ.
وقد اعتُرِضَ على هذا القولِ فقالُوا : كيف يجوزُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم مِن الأنبياءِ أنْ يَغْفَلَ عن الصَّلاةِ المفروضةِ ثم يعمدَ إلى خيلٍ لا ذنبَ لها يعقِرُها؟! ويجابُ عنه : أنْ لم يكن ضربُ سُوقِها وأعناقِها إلاَّ وقد أباحَ اللهُ ذلك وأجزَى بهِ, وليس في الآيةِ ما يقتضِي أنَّ الصلاةَ كانت مفروضةً عليهِ في ذلك الوقتِ. وقد يذكرُ المسحُ ويراد الضربُ ، يقول العربُ : مسحَ علاوته اذا ضرَبها بالسَّيف.
والصَّافِنَاتُ هي الخيلُ التي تقومُ وتكون القائمةُ الرابعة تَصِلُ إلى طرفِ حافرِها بالأرضِ. صَفَنَ الفرَسُ إذا يَصْفِنَّ صُفُوناً إذا قامَ على ثلاثٍ ، وقَلَبَ أحدَ حوافرِهِ. والجيادُ جمعُ جَوَادٍ ، يقال فَرَسٌ جوادٌ اذا "كان سابقاً " بالرَّكضِ.

(٠/٠)

فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي } ؛ يعني إنِّي آثرْتُ الخيرَ ، ينالُ بهذا الخيلَ فشُغِلْتُ به عنِ الذِّكْرِ ، وقد يذكرُ الخيرُ ويراد به الخيلُ ، لأن الخيلَ معقودٌ بنواصِيها الخيرُ. قال الفرَّاء : (يَعْنِي آثرْتُ حُبَّ الْخَيْرِ). وقال قطربُ : (أرَادَ حُبّاً عَلَى الْمَصْدَر ، ثُمَّ أضَافَ الْحُبَّ إلَى الْخَيْرِ). وقولهُ تعالى : { عَن ذِكْرِ رَبِّي } يعني صَلاَةَ العصرِ. وقولهُ تعالى : { حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ } ؛ كنايةٌ عن الشمسِ ؛ والمعنى حتى استَوت الشمسُ بما يحجِبُها عن الأبصارِ ، ولأنَّ قولَهُ تعالى (بالْعَشِيِّ) كنايةٌ عن الشمسِ ؛ أي فيه ما يجرِي مجرَى الشمسِ ، وجازَ الإضمارُ إذ في الكلامِ ما يدلُّ عليه ، قال لَبيدُ :

حَتَّى إذا ألْقَتْ يَداً فِي كَافِرٍ وَأجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُور ظَلاَمُهَا

(٠/٠)

رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)

وقولهُ تعالى : { رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ } ؛ قال أبو عُبيد : (مَعْنَى الطَّفْقِ يَقُولُ مِثْلَ مَا زالَ يَفْعَلُ ، وَهُوَ مِثْلُ : ظَلَّ وَبَاتَ ، وَالْمَعْنَى طَفِقَ يَمْسَحُ مَسْحاً ؛ أيْ يَضْرِبُ ضَرْباً). وقال الفرَّاء : (الْمَسْحُ هَهُنَا الْقَطْعُ). والمعنى : أنه ضرَبَ سُوقَها وأعناقَها ؛ لأنَّها كانت سببَ فَوْتِ صلاتهِ ، وقال عندَ ذلك : حتى لا تشغَلَني عن عبادةِ ربي مرَّةً أُخرى. والسُّوقُ جَمْعُ سَاقٍ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ } ؛ اختلَفُوا في سبب فتنةِ سُليمان ، قال بعضُهم : سمعَ سليمانُ

بمدينةٍ في جزيرةٍ من جزائرِ البحر يقالُ لها صَدُوقُ ، بها مَلِكٌ عظيمُ الشَّأنِ ، فخرجَ سليمانُ إلى تلك المدينةِ تحملهُ الرِّيح حتى نزلَ بها بجنودهِ من الجنِّ والانسِ ، فقَتَلَ ملِكَها وسَبَا ما فيها ، وأصابَ فيما أصابَ بنتاً لذلك الملكِ يقالُ " لها " جَرَادَةٌ ، لَمْ يُرَ مثلها حُسناً وجمالاً.

فدعَاها سليمانُ إلى الاسلامِ فأسلَمَت على قلَّة نيَّة منها ، ولم يعلَمْ سليمانُ ما في قلبها ، فتزوَّجَها وأحبَّها محبةً شديدة لم يُحِبَّ أحداً من نسائهِ ، فكانت عندَهُ لا يذهبُ حزنُها ولا يرقَى دمعُها ، فشُقَّ ذلك على سليمان ، وقال لَها : ويحَكِ! ما هذا الحزنُ الذي لا يذهبُ ؟ قالت : إنِّي أذكرُ أبي أذكرُ مُلكَهُ وما كان فيه وما أصابَهُ ، فيُحزِنُني ذلك. قال سليمانُ : قد أبدَلَكِ اللهُ به مَلِكاً هو أعظمُ من مُلكه ، وسُلطاناً خَيراً من سُلطانهِ ، وهَداكِ للإسلامِ ، وهو خيرٌ مِن ذلك كلِّه. قالت : هو كذلكَ ؛ ولكن إذا ذكرتُ أبي أصابَني ما ترَى من الحزن ، فلو أمرتَ الشَّياطين فصوَّرُوا صورتَهُ في داري التي أنَا فيها آرَاها بُكرةً وعشِيّاً لرجوتُ أنْ يُذْهِبَ ذلك حُزني ، ويسَلِّي عني بعضَ ما أجدُ. فأمرَ سُليمان الجنَّ فمَثَّلوا لها صورةَ أبيها في دارها كأنَّه هو ، إلاَّ أنه لا روحَ فيه ، فعمَدَت إليه حين صَنَعُوهُ فآزَرَتْهُ وقمَّصَتْهُ وعَمَّمَتْهُ وردَته بمثل ثيابهِ التي كان يلبسُها.

وكان إذا خرجَ سُليمان من دارها تغدُو عليه في ولائدِها حتى تسجدَ له ويسجُدنَ هُنَّ له ، وكذلكَ كانت تعملُ بالعَشِيِّ وسليمانُ عليه السلام لا يعلمُ شيئاً من ذلك ، فكانت على ذلك أربعينَ صباحاً ، وبلغَ ذلك آصِفَ بن برخيا وكان صدِّيقاً ، فقال لسُليمان عليه السلام : إنَّ غيرَ اللهِ يُعبد في دارك منذُ أربعين صَباحاً في هوَى امرأةٍ ، قال : فِي داري؟! قال : في دارِكَ ، قال : إنَّا للهِ وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ.

ثم رجعَ سُليمان إلى دارهِ فكَسَرَ ذلك الصنمَ وعاقَبَ تلك المرأةِ وولائدَها ، ثم خرجَ إلى فَلاَةٍ من الأرضِ وحدَهُ ، فأمَرَ برمادٍ ثد رُشَّ ، ثم أقبلَ تائباً إلى اللهِ حتى جلسَ على ذلك الرمادِ وتَمَعَّكَ فيه بثيابهِ تذلُّلاً لله عَزَّ وَجَلَّ وتضرُّعاً إليه ، يدعُو ويبكي ويستغفرُ مما كان في دارهِ ، فلم يزل يومَهُ كذلك حتى أمسَى ثم رجعَ.

وكانت أُمُّ ولَدٍ يقالُ لها الأَمِينَةُ ، كان إذا دخلَ لقضاءِ حاجته وضعَ خَاتَمَهُ عندَها حتى يتطهَّرَ ، وكان لا يَمَسُّ خاتَمهُ وإلاَّ وهو طاهرٌ ، وكان مُلكه في خاتَمهِ ، فوضعَ يوماً من الأيامِ خاتَمه عندها كما كان يضعهُ ، ثم دخلَ موضعَ الحاجةِ فأتاها الشيطانُ صاحبُ البحرِ وكان اسمهُ صَخْراً على صورةِ سُليمان لا تُنكِرُ منه شيئاً ، فقال : يا أمِينَةُ هاتِ خاتَمي ، فناولَتْهُ إياهُ ، فجعلَهُ في يدهِ ثم خرجَ حتى جلسَ على سريرِ سُليمان ، وعكفَتْ عليه الطيرُ والجن والإنسُ.

(٠/٠)

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي } ؛ معناهُ : لَمَّا رجعَ مُلك سليمان إليه قال : رَب اغْفِرْ لِي ذنْبي وَهَبْ لِي مُلكاً لا أُسْلَبُ فيه كما سُلِبْتُ في المرَّة الأُولى ، { إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ } ، ولا يجوزُ أن يكون سؤالهُ الْمُلْكَ برغبتهِ له في الدُّنيا ولا بُخلاً بمثلهِ على مَن بعده ، ولكن طلبَ آيةً تدلُّ جميعَ الخلقِ على أنَّ الله تعالى غَفَرَ له ذنبَهُ وردَّهُ إلى منْزِلَةِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام.
وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " أَنَّهُ صَلَّى صَلاَةً فَقَالَ : " إِنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لِي لِيُفْسِدَ عَلَيَّ صَلاَتِي ، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ فَخَنَقْتُهُ وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُوثِقَهُ إِلَى سَارِيَةٍ حَتَّى تُصْبِحُواْ وَتَنْظُرُوْا إِلَيْهِ جَمِيعاً ، فَذلِكَ قَوْلُ سُلَيْمَانَ عليه السلام (وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لِاَحَدٍ مِنْ بَعْدِي) " ".

(٠/٠)

فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ } ؛ فاستجَبنا له دعاءَهُ وسخَّرنا له الريحَ تسيرُ بأمرهِ لَيِّنَةً كيف أرادَ ، وذلك أنه كان إذا أرادَ تَسْييرَ الريحِ عاصفةً كانت تجري عاصفةً حالةَ حملِ السَّريرِ لكثرةِ مَن عليه من النُّجوم والحشَمِ والأواني والفُرَشِ والأطعمةِ والأشربةِ ، وكانت في حالةِ ما تجري بالسَّرير وذلكَ أرفقُ بمَنْ يكون على السَّريرِ ، وأبعدُ من الضَّرر.
ومعنى الآية : فسخَّرنا له الريحَ تجري بأمرهِ لَيِّنَةَ الْهُبُوب ليست بالعاصفِ { حَيْثُ أَصَابَ } أي حيث أرادَ من النواحِي ، وحيث قَصَدَ.

(٠/٠)

وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ } ؛ أي وسخَّرنا له الشياطينَ يَبْنُونَ له الأبنيةَ الرفيعةَ التي تعجزُ عنها الإنسُ ، ويَبْنُونَ له أيضاً ما يشاءُ من محاريب وتماثيلٍ ، وقولهُ تعالى : { وَغَوَّاصٍ } أي ويغُوصُونَ له في البحرِ فيستخرجون لهُ اللآلِئَ والجواهرَ.

(٠/٠)

وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨)

وقولهُ تعالى : { وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ } ؛ أي وسخَّرنا آخرين مِن الشياطين وهم الْمَرَدَةُ ، سُخِّروا له حتى قَرَنَهم في الأصْفَادِ وهي السَّلاسِلُ من الحديدِ ، فكان سليمانُ يجعل الشياطين مقرَّنين في القيودِ والأغلال ، ويعرفُ مَن شاء منهم في الأعمالِ ، فمعنى قوله { مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ } أي مشدُودون في القيُودِ.

(٠/٠)

هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَاذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } ؛ معناهُ : قلنا لهُ هذا عطاؤُنا لكَ من المالِ والْمُلكِ والجنودِ المسخَّرة لم نُعطهِ أحداً قبلَكَ ، ولا نعطيهِ أحداً بعدكَ.
وقوله { فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ } أي إعطاء ما أعطيناكَ مَن شِئْتَ وكيف شئتَ وما شئتَ ولمن شئت ، واحبسْ عمَّن شئتَ بغَيرِ تقديرٍ ، ولم يؤخَذْ عليك حدٌّ محدودٌ في المنعِ ولا في الإعطاءِ ، ولا حرجَ عليك فيما فعلْتَ من ذلك ، وقال في معنى { فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ } أي أطلِقْ من الشَّياطين الذين أوثَقْتَهم أو امسِكْ في الوَثَاقِ مَن شئتَ منهم ، وليس عليك في ذلك تَبعَةٌ ولا جزاءٌ.

(٠/٠)

وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)

وقولهُ تعالى : { وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى } ؛ أي وإنَّ مع ما خُصَّ به في الدُّنيا في الْمُلكِ والبَسْطَةِ والنبوَّة والرسالةِ لِقُربهِ عندنا ، { وَحُسْنَ مَآبٍ } ، في الآخرةِ ونَصيباً وافراً من ثَوَابنَا في الجنَّة ، فجُمِعَ له ملكُ

الدُّنيا وملكُ الآخرةِ.
وروي أن مدةَ مُلكِ سُليمان قبلَ الفتنةِ عشرين سنةً ، ومَلَكَ بعد الفتنةِ عشرين سنةً ، ومَلَكَ يوم مَلَكَ وهو ابنُ ثلاثَ عشر سنةً ، وماتَ وله ثلاثٌ وخمسون سنةً ، ومدَّة مُلكه أربعون سنةً.

(٠/٠)

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ } ؛ معناهُ : واذكُرْ يا مُحَمَّد عبْدَنا أيُّوب إذ نادَى رَبَّهُ في البلاءِ فقالَ : يا رَب إنِّي أصابَني الشيطانُ بنُصْبٍ ؛ أي بتَعَبٍ في بدَنِي وعذابٍ في أهلي ومالِي. والنُّصْبُ والنَّصْبُ بمعنى واحدٍ ، مثل الرَّشَدِ والرُّشْدِ والْحَزَنِ وَالْحُزْنِ.
قرأ أبو جعفرٍ (بنُصُبٍ) بضمَّتين ، وقرأ يعقوبُ (بنَصَبٍ) بفتحِ النون والصاد ، وقرأ هُبَيْرَةُ عن حفصٍ وعاصم (بنَصْبٍ) بفتح النونِ وجزم الصاد ، وقرأ الباقون بـ (النُّصْب) بضمِّ النون وسُكون الصاد ، وكلُّ ذلك لغاتٌ فيه.
قال قتادة : (مَعْنَى قَوْلِهِ { بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ } النُّصْبُ الضُّرُّ فِي الْجَسَدِ ، وَالْعَذابُ فِي الْمَالِ). قال السديُّ : (النُّصْبُ أنْصَبَ الْجَسَدَ ، وَالْعَذابُ أهْلَكَ الْمَالَ).
ثُم فرَّجَ اللهُ عنه ، واختلفوا في سبب بَلاء أيُّوب ، قال الحسنُ رضي الله عنه : (إنَّ ابليسَ قالَ : يا رب هل مِن عبيدك مَن إنْ سلَّطَتني عليه يمتنعُ عليَّ ؟ قال : نَعَمْ ؛ عبدِي أيُّوبُ ، فجعلَ يأتيهِ الشيطانُ بوِسَاوسِهِ وحبائلِهِ فلا يقدرُ منه على شيءٍ. قال : يا رب إنه قدِ امتنعَ عليَّ فسَلِّطْنِي على مالِهِ ، فجعلَ يأتيهِ فيقولُ : يا أيوبُ هَلَكَ مِن مالِكَ كذا وكذا ، فيقولُ أيوب : اللَّهُمَّ أنتَ قد أعْطَيْتَنِيهُ وأنتَ قد أخذتَهُ ، اللَّهُمَّ لكَ الحمدُ على ما منَعْتَ ، ولكَ الحمدُ على ما أبقيتَ ، فمكثَ كذلك حتى هَلَكَ مالهُ كلُّه.
فقال إبليسُ : يا رب إنَّهُ لا يُبالِي بمالهِ فسَلِّطْنِي على جسدهِ ، فأنَّكَ لو سلَّطَتني على جسدهِ لم تجدْهُ شَاكراً ، فسَلَّطَهُ عليه فنفخَ في أنفهِ فانتفخَ وجههُ وسَرَى ذلك إلى جسدهِ ، فوقعَ فيه الديدانُ.
إلاَّ أنَّ هَذا الْقَوْلَ لاَ يَصِحُّ وَلاَ وَجْهَ لقَبُولِهِ ، وَلاَ يَجُوزُ أنْ يُسَلِّطَ اللهُ إبْلِيسَ عَلَى نَبيٍّ مِنْ أنْبِيَائِهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مَا أحَبَّ.
ويقالُ : سببُ ابتلائهِ أنَّ إنسَاناً استغاثَ بهِ في ظُلمٍ يدرَؤهُ عنه ، فصبرَ لوردِهِ حتى فاتَهُ فابتُلِيَ. فلَمَّا مكثَ أيوبُ في البلاءِ ما مكثَ ، قاربَتِ امرأتهُ الشيطانَ في بعضِ الأُمور ، قِيْلَ : إنَّ الشيطانَ قال لها :

لئِنْ أكلَ أيُّوبُ طَعاماً لم يذْكُرِ اسمَ الله عليه عُوفِيَ. ويقالُ : إنَّها قالت لأَيُّوبَ : لو تَقرَّبْتَ إلى الشيطانِ فذبحتَ له عِنَاقاً ، فقالَ : لا واللهِ ، ولاَ كَفّاً من تُرابٍ. وحلفَ لَيَجْلِدَنَّهَا إنْ عُوفِيَ مائةَ جلدةٍ. وَقِيْلَ : إن إبليسَ قالَ لها : إنْ شَفَيْتُهُ تقولِين لِي شفيتَهُ ، فأخبرَتْ بذلك أيوبَ فحلفَ.
فلما طالَ البلاءُ على أيُّوب ، وبلغَ به غايةَ الجدِّ سألَ الله تعالى أنْ يكشِفَ ضُرَّهُ ، فقيلَ له : { ارْكُضْ بِرِجْلِكَ اذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ } ؛ أي اضرِبْ بها الأرضَ ، فرَكَضَ برجلِهِ الأرضَ فنَبَعَتْ عَينُ ماءٍ فاغتسلَ منها فذهبَ الداءُ من ظاهرِهِ ، فضربَ برجلِهِ الأرض مرَّةً أُخرى فنبعَ ماءٌ وشربَ منه ، فذهبَ الداءُ من باطنِ جسده. والرَّكْضُ : هو الدفعُ بالرِّجلِ على جهة الإسراعِ ، ومنه ركضُ الفرس لاسراعِهِ ، والْمُغْتَسَلُ موضعُ الاغتسالِ.

(٠/٠)

وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ } ؛ أي أحْيَيْنَا له أهلَهُ وأولادَهُ الذين كانوا بأَعيانِهم ، { وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ } ، ورزقناهُ مثلَهُم في المستقبلِ ، { رَحْمَةً مِّنَّا } ، أي نعمةً مِنَّا عليه ، { وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ } ، وعظمةً لأُولِي العقولِ من النَّاس ، وذلكَ ليعلَمَ العاقلُ أنَّ ما يصيبهُ في الدُّنيا من الْمِحَنِ والْمَكَارِهِ والمصائب في النَّفسِ والأهلِ والمال ، لا يكونُ لِهَوانِ العبدِ على اللهِ كما يظنُّه الْجُهَّالُ ، وإنَّما هو امتحانٌ من اللهِ لأوليائه كي يُعوِّضَهُمْ بذلك جَزِيلَ ثوابِهِ.

(٠/٠)

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ } ؛ وذلك أنَّ أيوبَ كان حلفَ في مرضِهِ أن يجلدَ امرأتَهُ مائةَ جلدةٍ ، وكان ذلك لشيءٍ كَرِهَهُ منها على ما تقدَّم ، فجعلَ الله تَحِلَّةَ يَمِينِهِ أن يأخذ حُزمةً واحدةً فيها مائةُ قضيبٍ فيضربُها بهِ. والضِّغْثُ : هو مِلْءُ الكَفِّ من الشجرةِ والحشيشِ والشَّمَاريخِ.
وقولهُ تعالى : { وَلاَ تَحْنَثْ } أي لا تَدَعِ الضَّربَ فتَحْنَثُ ، وفي هذا دليلٌ على جواز الاحتيالِ بمثل هذه

الحِيلَةِ في اليمينِ على الضَّرب ، فأما في الحدُودِ فلا يجوزُ الاحتيالُ بمثلِ هذا ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال : { وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ }[النور : ٢] وهذا نَهْيٌ عن التخفيفِ عن مَن وجبَ عليه الحدُّ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } ؛ أي إنَّهُ صَبَرَ على البلاءِ الذي ابتُلي به. فإنْ قِيْلَ : كيف صَبَرَ وهو يقولُ مسَّنِيَ الضُّرُّ ؟ قِيْلَ : إنه لم يَشْكُ إلى مخلوقٍ وإنما شَكَا إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حين ألَحَّ عليه الشيطانُ بالوسوسةِ ، وخافَ على نفسهِ أن لا يقومَ بطاعةِ اللهِ تعالى ، فدعَا اللهَ بعد أن أُذِنَ له في الدُّعاء. والأَوَّابُ : هو الْمُقْبلُ على طاعةِ اللهِ تعالى الرَّاجِعُ إليهِ.

(٠/٠)

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُرْ عِبَادَنَآ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } معناهُ : اذْكُرْ يا مُحَمَّدُ لقَومِكَ وأُمَّتِكَ حديثَ هؤلاء الأنبياءِ ؛ ليقتَدُوا بهم في حُسْنِ إقبالِهم ؛ فيستَحِقُّوا بذلك جميلَ الثَّناءِ وجزيلَ الثَّواب. وقال مقاتلُ : (مَعْنَاهُ : وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ صَبْرَ عِبَادِنَا إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّار ، وَصَبْرَ اسْحَقَ عَلَى الذبْحِ ، وَصَبْرَ يَعْقُوبَ حِينَ ذهَبَ بَصَرُهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ اسْمَاعِيلَ لأَنَّهُ لَمْ يُقْبلْ بشَيءٍ).
قَوْلُهُ : { أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ } ؛ معناهُ : أُولِي القوَّةِ في طاعةِ اللهِ والأبصار في معرفةِ اللهِ. قال قتادةُ : (أُعْطُوا قُوَّةً فِي الْعِبَادَةِ ، وَبَصَرٍ فِي الدِّينِ). ويقالُ : إنَّ الأيدِي جمعُ اليَدِ وهي الصَّنيعةُ ؛ أي وهم ذُوو الصَّنائعِ الجميلةِ في طاعةِ اللهِ تعالى.
وقرأ الحسنُ : (الأَيْدِ) بغيرِ الياء وهو عبارةٌ عن القوَّة. ويجوزُ أن يكون المرادُ به ، فحذفَ الياءِ كما نحذفُ الدَّاعِي والهادِي.

(٠/٠)

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّار } ؛ معناهُ : إنا آثرنَاهُم بخِصلَةٍ خَالِصَةٍ وهي ذكرَى الدار الآخرة. وقال مجاهدُ : (إِنَّهُمْ كَانُواْ يُكْثِرُونَ ذِكْرَ الآخِرَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ هَمٌّ غَيْرُهَا). وقال السديُّ :

(أخْلَصُواْ بذِكْرِ الآخِرَةِ ؛ أيْ بخَوْفِ الآخِرَةِ) { وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ } ؛ الأصْفِيَاءُ هو إخرَاجُ الصَّفوَةِ مِن كلِّ شيءٍ ، فهُم صَفْوَةٌ وغيرُهم كَدَرٌ.

(٠/٠)

وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ } ؛ أي اذكُرْهُم بصبرِهم وفضلِهم لتسلُكَ طريقَهم ، { وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ }. والْيَسَعُ نبيٌّ من الأنبياءِ ، قال الكلبيُّ : (هُوَ ابْنُ عَمِّ الْيَاسَ). وَأمَّا ذِي الكِفْلِ وهو نبيٌّ أيضاً كَفَلَ مائةَ نَبيٍّ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ يُطعِمُهم ويَسْقِيهِمْ. وَقِيْلَ : إنه كان يعملُ في العبادة عَمَلَ رجُلَين فسُمِّي ذا الكفلِ ، والكفلُ الضِّعْفُ كما في قوله تعالى : { يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ }[الحديد : ٢٨].

(٠/٠)

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠)

وقولهُ تعالى : { هَاذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ } ؛ أي هذا القرآنُ عِظَةٌ وشَرَفٌ للناسِ ، وَقِيْلَ : هو ذِكْرٌ في الدُّنيا لهؤلاء الأنبياءِ يُذكَرُونَ بهِ أبداً ، وإنَّ لهم مع ذلك لَحُسْنَ مرجعٍ في الآخرة ، فَسَّرَ حُسنَ المرجعِ فقال : { جَنَّاتِ عَدْنٍ } ؛ أي بسَاتِين إقامةٍ ، { مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ } ؛ وانتصبَ على الحالِ ، وذلك أنَّهم اذا انْتَهَوا إليها وجدُوها مُفَتَّحَةَ الأبواب لا يُحبَسُونَ على الباب ليُفتَحَ لهم عند الوُرُودِ. ويقال : إنَّ أبوابَها تُفتَحُ من غيرِ فَتْحٍ ولا مفتاحٍ ، والْمُفَتَّحَةُ أبلغَ من اللفظِ من الْمَفْتُوحَةِ ، والألِفُ واللامُ في قولهِ { الأَبْوَابُ } عِوَضٌ عن الإضافةِ ؛ تقديرهُ : مُفَتَّحَةٌ لَهُمْ أبْوَابُهَا كما في قولهِ تعالى{ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى }[النازعات : ٤١].

(٠/٠)

مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١)

وقولهُ تعالى : { مُتَّكِئِينَ فِيهَا } ؛ أي في الجنَّات ، { يَدْعُونَ فِيهَا } ؛ في الجناتِ ، { بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ } ؛ أي يَدْعُون في الجناتِ بألوانِ الفاكهة وألوان الشَّراب. والاتِّكَاءُ : هو الاسْتِمْسَاكُ بالسِّنَادِ على هيئةِ جُلوسِ الْمُلُوكِ.

(٠/٠)

وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢)

وقولهُ تعالى : { وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ } ؛ أي وعندَهم حُورٌ في الجنَّةِ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ على أزواجِهنَّ لا يُرِدْنَ غيرَهم بقُلوبهم ولا يَنْظُرْنَ إلى غيرِ أزواجهنَّ. وقوله { أَتْرَابٌ } أي مُستَوِياتٌ على ميلادٍ امرأة واحدة ، مستويات في السِّنِّ والشباب والْحُسنِ ، كلُّهن بناتُ ثلاثٍ وثلاثين سنةً.

(٠/٠)

هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَاذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ } ؛ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرٍو بالياءِ ؛ ومعناه : قُل للمتَّقين : هذا ما يُوعَدون به ليومِ الحساب. وقرأ الباقون (يُوعَدُونَ) بالياء ؛ أي هذا الذي تقدَّم ذِكرهُ ما يوعَدُ به المتَّقون على لسانِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم. ومعنى الآية : هذا الذي ذكرناهُ ما توعدونَ به يومَ الحساب.

(٠/٠)

إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ هَاذَا لَرِزْقُنَا } ؛ أي هذا الذي ذكرناهُ رزقنا لهم ، { مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ } ؛ أي ما لَهُ مِن

انقطاعٍ ولا فَناءٍ. قال ابنُ عبَّاس : (لَيْسَ بشَيْءٍ فِي الْجَنَّةِ نَفَادٌ ، مَا أُكِلَ مِنْ ثِمَارِهَا خُلِّفَ مَكَانَهُ مِثْلَهُ ، وَمَا أُكِلَ مِنْ حَيْوَانِهَا وَطَيْرِهَا عَادَ حَيّاً مَكَانَهُ).

(٠/٠)

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَاذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ } ؛ أي هذا الثوابُ الذي تقدَّم ذِكرهُ للمتَّقين ، ثم ابتدأ الخبرَ عمَّا للطَّاغِينَ فَقَالَ : { وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ } أي الذين طَغَوا على اللهِ وكذبُوا الرُّسلَ وجاوزوا الحدَّ في الكفرِ والمعصية { لَشَرَّ مَآبٍ } أي لشَرِّ مرجعٍ ومصير ، ثم أخبرَ بذلك فقال : { جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا } ؛ أي يلزَمُونَها يومَ القيامةِ ، { فَبِئْسَ الْمِهَادُ } ؛ يُمهِّدُنَّها لأنفسهم ، { هَاذَا } العذابُ { فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ } ؛ أي يقالُ لهم في ذلك اليومِ : هذا حميمٌ وغَسَّاقٌ فَلْيَذُوقُوهُ.
والْحَمِيمُ : الماءُ الحارُّ الذي قد انتَهى حَرُّهُ من طِينَةِ الْخَبَالِ وهي عُصَارَةُ أهْلِ النَّار. والغَسَّاقُ : ما سَالَ من جُلودِ أهلِ النَّار من القَيْحِ والصَّديدِ ، مِن قولهم : غَسَقَتْ عينهُ إذا تَصَبَّتْ ، والغَسَقَانُ الانْصِبَابُ.
قرأ حمزةُ والكسائي وخلف : (وَغَسَّاقٌ) بالتشديد على معنى أنه يُسَالُ من صَديدِ أهلِ النار. وقرأ الباقون بالتخفيف مصدرُ غَسَقَ يَغْسِقُ إذا سَالَ.
قال الكلبيُّ : (الْغَسَّاقُ هُوَ الزَّمْهَرِيرُ الْبَارِدُ الَّذِي قَدِ انْتَهَى بَرْدُهُ ، يُحْرِقُهُمْ بِبَرْدِهِ كَمَا تُحْرِقُهُمُ النَّارُ).
وقال ابنُ زيد : (هُوَ الْمُنْتَنُ بلُغَةِ التُّرْكِ وَالطَّخَارِيَّةِ وَالْعَمَالِيقِ). وقال الحسنُ : (لاَ أدْري مَا الْغَسَّاقُ وَمَا سَمِعْتُ فِيهِ شَيْئاً مِنَ الصَّحَابَةِ إلاَّ أنَّهُ بَعْضُ مَا أُعِدَّ لأَهْلِ النَّار ، قَوْمٌ أخْفَواْ مِنَ الْمَعْصِيَةِ أعْمَالاً فَأَخْفَى اللهُ لَهُمْ عِقَاباً).

(٠/٠)

وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ } ؛ قرأ الأكثرون (وَآخَرُ) على الوِحْدَانِ ؛ أي وعذابٌ آخَرُ من شكلِ العذاب الأوَّل ، والشَّكْلُ الْمِثْلُ ؛ يعني ضَرْباً من العذاب على مثلِ الحميم والغَسَّاق في الكَرَاهَةِ.

وقرأ أهلُ البصرة (وَأُخَرُ) على الجمعِ على معنى : وأنواعٌ أُخَرُ مِنْ شَكْلِهِ ؛ أي وأصنافٌ من العذاب ، وقولهُ { أَزْوَاجٌ } أي ألوانٌ وأنواع وأشباهٌ.

(٠/٠)

هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١)

وقولهُ تعالى : { هَاذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ } ؛ معناهُ : أنَّ القادةَ والرؤساءَ مِن المشركين إذا دخَلُوا النارَ ثم دخلَ بعدَهم الاتباعُ ، قال الملائكةُ من الْخَزَنَةِ للقادةِ : هذا فوجٌ ؛ أي قطيعٌ من الناسِ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ النارَ ، أي داخلون معكم النار ، فتقولُ القادة : { لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُواْ النَّارِ } ؛ كما صَلَيْنَاهَا ، فيقول الاتباعُ للقادةِ : { قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا } ؛ أي أنتم بَدَأتُمْ بالكفرِ قبلَنا ، { فَبِئْسَ الْقَرَارُ } ؛ جهنَّم للمشركين.

ثم يقولُ الأتباعُ : { قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَاذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ } ؛ أي يقولون ربَّنَا مَنْ شَرَّعَ لنا هذا الكُفرَ وسَنَّهُ لنا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً في النار. والاقتحامُ : هو الدخولُ في الشَّيء بشدَّةٍ وصُعوبَةٍ. وذلك أنَّ أهلَ النار يُسَاقُونَ إليها فَوْجاً فَوْجاً ، فيقالُ للرُّؤساء : هؤلاءِ الاتباعُ داخلون معكم ، فيقولونَ لاَ مَرْحَباً بهِمْ ، كيف يدخلُون معنا ونحنُ في هذا الضِّيق؟! فيقولُ لهم الْخَزَنَةُ : إنَّهُمْ صَالُوا النَّار ؛ أي دَاخِلُونَها كما دخلتُم.

والرَّحْبُ في اللغة هو السِّعَةُ ، وكذلك الْمَرْحَبُ ، ومعنَى لا مَرْحَباً بهم يعني لا اتَّسعت بهم مساكنُهم ولا كرامةَ لهم ، وهذا إخبارٌ أن مَوَدَّتَهُمْ تنقطعُ وتصير عداواةً ، فيقول لهم الأتباعُ : { بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ } أي لا وَسَّعَ الله عليكم ، أنتم شَرَعتُم لنا بهذا العذاب ، فيقولُ الله تعالى : { فَبِئْسَ الْقَرَارُ } أي بئْسَ المكانُ الذي أنتم فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَاذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ } أي قالت الأتباعُ والقادةُ جميعاً : ربَّنا مَنْ سَنَّ لنا هذا الكفرَ قبلَنا فَزِدْهُ عذاباً ضِعْفاً مما علينا من العذاب ، يعني حيَّاتٍ وعقاربَ وأفاعي.

قال الحسنُ : (مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّار إلاَّ وَهُوَ يَعْرِفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَيْطَانَهُ الَّذِي يُضِلُّهُ وَيُوَسْوِسُ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا).

(٠/٠)

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الأَشْرَارِ } ؛ قال الكلبيُّ : (وَذلِكَ أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ يَنْظُرُونَ فِي النَّار ، فَلاَ يَرَوْنَ مَنْ كَانَ يُخَالِفُهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي دَار الدُّنْيَا يَعْنِي فُقَرَاءَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَعِنْدَ ذلِكَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدَّهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الأَشْرَار ؛ أي كُنَّا نَعُدُّهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ السَّفَلَةِ ، وَنَقُولُ لَهُمْ : أنْتُمْ تَتْرُكُونَ شَهَوَاتِكُمْ تَطْلُبُونَ بذلِكَ النِّعَمَ بَعْدَ الْفَنَاءِ ، فَهَذا مَعْنَى { كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الأَشْرَارِ } وَهُمْ عَمَّارُ وَخَبَّابُ وَصُهَيْبُ وَبِلاَلُ وسَلْمَانُ وَسَالِمُ وَأَشْبَاهُهُمْ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ).

(٠/٠)

أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣)

قَولُهُ تَعَالَى : { أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَار } ؛ أي يقولُون قد اتَّخذناهُم سِخْرِيّاً ؛ أي مَالَتْ أبصارُنا عنهم فلم نكن نعدُّهم شيئاً ، فال الحسنُ : (كُلُّ ذلِكَ قَدْ فَعَلُوهُ ، اتَّخَذُوهُمْ سِخْرِيّاً وَزَاغَتْ عَنْهُمُ أبْصَارُهُمْ مُحَقِّرَةً لَهُمْ).

ومن قرأ (اتَّخَذْنَاهُمْ) بقطع الألف وفتحِها معناهُ الاستفهامُ ؛ كأنَّهم يُنكرون ذلك على أنفُسِهم ، وهم يقولون في الآخرةِ سخَّرنَاهُم وَزَاغَتْ أبصارُهم عنهم لضَعفِهم ، فيقولون : ما لنَا لا نراهُم ، ولم يدخلُوا معنا في النار ، أمْ دخَلُوا معنا ولكن لا نراهُم.

وفي قولهِ { سِخْرِيّاً } قِراءَتان : ضَمُّ السِّين وكسرُها ، فمَن ضمَّها فهو من السُّخرِيَةِ ؛ أي استذلُّوهم ، ومَن قرأها بالكسرِ فهو من الْهُزْؤ.

(٠/٠)

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ } ؛ أي إنَّ الذي وُصف عنهم لصِدْقٌ كائن واقعٌ ، ثم بَيَّنَ ما هو فقالَ : { تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ } ؛ أي تخاصُم القادةِ والأتباعِ على ما أخبر به عنهم.

(٠/٠)

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ مُنذِرٌ } ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّة : إنَّمَا أنَا مُنْذِرٌ لكم أُحذِّرُكم عقوبةَ اللهِ ، { وَمَا مِنْ إِلَاهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } ؛ أي وقُل لهم أيضاً : مَا مِنْ إلَهٍ إلاَّ اللهُ الْوَاحِدُ لا شريكَ لهُ ، القَهَّارُ لِخَلقِهِ الغالبُ عليهم ، { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ } ؛ أي المنتقمُ ممَّن لا يؤمنُ به ، المتجاوزُ عمَّن تابَ وآمنَ به.

(٠/٠)

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ } ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لهم هذا القرآنِ الذي أتيتُكم به عظيمُ الشَّأن والشرفِ ، أنتُم عن تدبُّرِهِ والعملِ بهِ مُعرضون. وَقِيْلَ : معناهُ أمرُ القيامةِ عظيمٌ ؛ { أَنتُمْ عَنْهُ } ؛ عن الاستعدادِ له ، { مُعْرِضُونَ }.

(٠/٠)

مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩)

وقَوْلُهُ : { مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ } ؛ معناهُ : إن النبأَ الذي أتيتُكم به من قصَّة

آدمَ وإبليس دليلٌ واضح على نُبُوَّتِي ؛ لأن ذلك لا يُعلمِ إلاَّ بوحيٍ من اللهِ تعالى أو بقراءةِ الكُتب ، ثم بَيَّنَهُ من بعدُ بقوله : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا }[البقرة : ٣٠] الآيةُ أي إنِّي ما علمتُ ذلك إلاَّ بوحيٍ من اللهِ تعالى.

(٠/٠)

إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن يُوحَى إِلَيَّ } ؛ معناهُ : ما يُوحَى إِلَيَّ هذا القرآنُ ، { إِلاَّ أَنَّمَآ } ؛ لأَنَّي ؛ { أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } ؛ أي ما يُوحى إِلَيَّ إلاَّ لأَنِّي نبيٌّ ونذيرٌ مُبين ، أُبَيِّنُ لكم ما تَأْتُونَ من الفرائضِ والسُّنن ، وما تتركون من الحرامِ والمعصية.

(٠/٠)

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُ هذا.

(٠/٠)

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)

وقوله : { قَالَ ياإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } ؛ أي ما مَنَعَكَ عن السُّجودِ لِمَنْ تولَّيتُ خَلْقَهُ من غيرِ واسطةٍ وسبب ، وقوله : { أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ } ، أي رفعتَ نفسَكَ فوق

قدرك ، { أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ } الذين عَلَو فِي مَنْزِلَةٍ من السُّجود لمثلهِ.
قال ابليسُ : { قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } ؛ والنارُ شيء مضيءٌ ، والطِّينُ شيء مظلمٌ.

(٠/٠)

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦)

(٠/٠)

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ } ؛ أي قيلَ : مِن السَّماء ، وَقِيْلَ : من الجنَّة ، وَقِيْلَ : من الأرضِ إلى جزائرِ البحار. والرَّجِيمُ : هو الْمَرْجُومُ بالْخِزْيِ والفضيحةِ والشُّهُب إذا رجعَ إلى السَّماء.
{ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }.

(٠/٠)

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ } ؛ المؤجَّلِين إلى وقتِ النَّفخة الأُولى ، فلم يُجِبْهُ إلى ما سألَ ، ولم يُعَرِّفْهُ ذلك الوقت.

(٠/٠)

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } ؛ أي لأَدعُونَّهم إلى الغِوَايَةِ ولأُضِلَّنَّهُمْ ، { إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } ، إلاَّ عبادك الذين أخلَصْتَهم وعَصَمْتَهم فلا سبيلَ لي عليهم.

(٠/٠)

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } ؛ قول مجاهدٍ والأعمش وحمزة وخلف : برَفْعِ الأوَّل ونصب الثاني ؛ أي بمعنى فأنَا الْحَقُّ أو فَمِنِّي الحقُّ وأقولُ ، وقرأ الباقون بنصبهما.
واختلفَ النُّحاة في وجهِ ذلك ، فقيل : نُصِبَ الأولُ على الإغراءِ ، والثاني بإيقاعِ القولِ عليه. وَقِيْلَ : الأولُ قَسَمٌ ، والثاني مفعولٌ ، تقديرهُ : قالَ فبالْحَقِّ وهو اللهُ ، أقسَمَ بنفسهِ ثم حذفَ الخافضَ فنُصِبَ كما يقولُ الله : لأَفْعَلَنَّ ، أقْسَمَ اللهُ تعالى ليمْلأَنَّ جهنَّمَ من إبليس وأتباعِهِ.

(٠/٠)

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ } ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لكفَّار مكَّة : ما أسأَلُكم على تبليغِ الوحي والقرآنِ من مالٍ تُعْطُونِيَهُ جُعلاً ، { وَمَآ أَنَآ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ } ؛ أي لم أتَكَلَّفْ دُعاءَكم اليه من تلقاءِ نفسي بل أُمرت بذلك.

(٠/٠)

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ } ؛ أي ما القرآنُ إلاَّ مَوعِظَةٌ للحقِّ أجمعين ، { وَلَتَعْلَمُنَّ } ؛ أنتُم يا كفارَ مكَّة ، { نَبَأَهُ } ؛ أي خَبَرَ صدقهِ ، { بَعْدَ حِينٍ } ؛ أي بعدَ الموتِ ، وَقِيْلَ : يومَ القيامةِ.
وقال الحسنُ : (يَا ابْنَ آدَمَ ؛ عِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيكَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ).

(٠/٠)

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } ؛ معناهُ : هذا تنْزِيلٌ من اللهِ العزيزِ بالنِّقمة لِمَن لا يؤمنُ ، الحكيمُ في أمرهِ وقضائه. ويجوزُ أن يكون (تَنْزِيلُ) مبتدأ وخبرهُ { مِنَ اللَّهِ } كما يقالُ : نِعَمُ الدُّنيا والدينِ من اللهِ تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } ؛ أي أنزَلنا إليكَ هذا القرآنَ بالحقِّ ولم يُنْزِلهُ بَاطلاً ، وقولهُ تعالى : { فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ } ؛ أي اعبُدِ اللهَ وحدَهُ لا كما يعبدهُ عبدَةُ الأوثانِ.

(٠/٠)

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣)

وقوله : { أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ } ؛ أي إنَّ العبادةَ الخالصةَ للهِ ، وفي هذا بيانُ أنَّ غيرَ الخالصِ لا يكون للهِ ، والإخلاصُ أن يقصُدَ العبدُ بنيَّتِهِ وعملهِ خالقَهُ لا يجعلُ ذلك تعرُّضاً للدُّنيا.
وَقِيْلَ : معنى { أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ } أي إن الدينَ الخالصَ من الشِّرك هو للهِ ، وما سواهُ من الأديانِ فليس بدينِ اللهِ الذي أمرَهُ بهِ. قال قتادةُ : (الدِّينُ الْخَالِصُ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ } ؛ يعني الذين يعبُدون الأصنامَ والملائكةَ والشَّمس والقمرَ والنجومَ يقولون : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } ؛ أي يقولون ما نعبُدهم إلاَّ لِيَشفَعُوا لنا إلى اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ } ؛ أي بين أهلِ الأديان يومَ القيامةِ ، { فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } ؛ من أُمور الدينِ ، كلٌّ يقولُ : الحقُّ دِيني ، فهُم مختلفونَ ، وحكمُ الله بينَهم : أن يُعذِّبَ كُلاًّ على قدر استخفافهِ ، وقولهُ تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ } ؛ أي لا يُرشِدُ لدينهِ مَن كذبَ في زعمهِ أنَّ الآلهةَ تشفعُ له الله تعالى.

(٠/٠)

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ } أي لو أرادَ أن يتَّخِذ لنفسهِ ولَداً كما زعمَ بعضُ الكفَّار أنَّ الملائكةَ بناتُ الله! لَمَا اقتصرَ على الأدوَنِ من البناتِ دون الأعلَى من الذُّكران ، وهذا كقولهِ تعالى{ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً }[الإسراء : ٤٠] ، وقالَ تعالى{ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى }[النجم : ٢١].
وَقِيْلَ : معناهُ : لو أرادَ أن يتَّخذ ولَداً كما قالتِ النصارَى في المسيحِ واليهودُ في العزيزِ لاختارَ خلقاً أفضلَ من عيسَى عليه السلام وعُزيرٍ. وقولهُ تعالى : { سُبْحَانَهُ } ؛ أي تَنْزيهاً له في كلِّ صفةٍ لا تكون من أرفعِ الصِّفات ، وقولهُ : { هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ } ؛ لا شريكَ له و " ليس " شيءٌ كمثله ، { الْقَهَّارُ } ؛ الغالبُ على خلقهِ الذي لا يحتاجُ إلى ولدٍ وظَهيرٍ.

(٠/٠)

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ } ؛ أي خلقَ السَّموات والأرضَ عبرةً للخلقِ ، وإقامةً للحقِّ لا للعبثِ والباطلِ ، يُدِيرُ الليلَ على النهار ، ويديرُ النهارَ على الليلِ ، وكلُّ واحدٍ على الآخرِ ، ويزيدُ من ساعاتِ أحدِهما في ساعاتِ الآخر.
والتكويرُ : هو إدارَةُ الشيءِ على الشيء ، ومنه كُورُ العِمَامَةِ ، وقد تسمَّى الزيادةُ كُوراً ، كما قيلَ في الدُّعَاءِ : " اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بكَ مِنَ الْحَوَرِ بَعْدَ الْكَوَرِ " أي من النُّقصان بعدَ الزيادةِ. وقولهُ : { وَسَخَّرَ

الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى } ؛ أي إلى الوقتِ الذي وقَّتَ اللهُ الدنيا إليه وهو انقضاؤُها وفناؤها ، وقولهُ : { أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ } ؛ أي خالقُ هذه الأشياءِ هو اللهُ الغالب على كلِّ شيء ، الغفَّارُ لأوليائهِ وأهلِ طاعتهِ.

(٠/٠)

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦)

وقولهُ تعالى : { خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا } ؛ أي خلقَكم من نفسِ آدمَ وحدَها ثم خلقَ منها زوجَها حوَّاء من ضلعٍ من أضلاعهِ القصيرة ، { وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ } ؛ يعني الإنزالَ ههنا الإنشاءَ والخلقَ ؛ أي وخلقَ لكم من كلِّ صنفٍ من الإبلِ والبقر والضَّأنِ والمعزِ زوجَين ذكراً وأُنثى.
وقوله : { يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ } ، أي خلقَكم نُطفةً ثم عَلَقة ثم مُضغَةً إلى أن تخرجوا من البطون ، { فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ } ؛ يعني ظُلمةَ البطنِ وظُلمةَ الرحِمِ وظلمةَ الْمَشِيمَةِ. وَقِيْلَ : ظلمةَ الأصلاب وظلمةَ الأرحامِ وظلمةَ البُطونِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ } ؛ الدائمُ الذي لا يزولُ ، ولا خالقَ غيرهُ ، { لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } ؛ بعدَ هذا البيانِ والبرهان.

(٠/٠)

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ } ؛ أي إِنْ تكفُروا يا أهلَ مكَّة بنِعَمِ اللهِ ، فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنكم ، لم يأمُرْكم بالإيمانِ من حاجةٍ له إليكم لا لجلب منفعةٍ ولا لدفعِ مضرَّةٍ ، وإنما آمرُكم به لنفعِكم ، { وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } ؛ أي لا يرضَى لأوليائهِ وأهلِ طاعته الكُفرَ. وَقِيْلَ : معناهُ : ولا يرضَى لعبادهِ المخلصِين الذي قالَ " فيهم "{ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ }[الاسراء : ٦٥] فألزمَهم

شهادةَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وحبَّبَها إليهم.
وقال السديُّ : (وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أنْ يَكْفُرُواْ) ، وهذه طريقةُ مَن قالَ بالتخصيصِ في هذه الآيةِ ومَن أجرَاها على العمومِ فمعناهُ : لا يرضَى الكفرَ لأحدٍ ، وكفرُ الكافرِ غيرُ مُرضٍ ، وإنْ كان بإرادةٍ ، فاللهُ تعالى مقدِّرٌ الكفرَ غيرَ راضٍ به لأنه " ما " يَمدحهُ ولا يُثني عليه ، قال قتادةُ : (مَا رَضِيَ اللهُ لِعَبْدٍ ضَلاَلَةً وَلاَ أمَرَهُ بهَا وَلاَ دَعَاهُ إلَيْهَا ، وَلَكِنْ قَدَّرَهُ عَلَيْهِ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ } ؛ معناهُ : وإن تَشكُروا ما أنعمَ عليكم من التوحيدِ يَرْضَ ذلك الشكرَ لكم ويُثيبَكم عليه ، { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } ؛ أي لا تُؤخَذُ نفسٌ وزراً بذنب أُخرى ، { ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ } ؛ في الآخرةِ ، { فَيُنَبِّئُكُمْ } ، فيَجزِيكم ، { بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ، في الدُّنيا ، { إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } ، بعزائمِ القلوب.

(٠/٠)

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ } ؛ إذا أصابَ الكافرَ شدَّةٌ في عَيشهِ أو بلاءٌ في جسدهِ دعَا ربَّهُ راجعاً إليه بقلبهِ ، قال عطاءُ : (يُرِيدُ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ) ، وقال مقاتلُ : (يَعْنِي أبَا حُذَيْفَةَ بْنَ الْمُغِيرَةِ).
وقولهُ : { ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ } ؛ أي ثُم إذا أعطاهُ نِعْمَةً منه ؛ أي أغناهُ وأنعمَ عليه بالصحَّة ، { نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ } ؛ أي نَسِيَ الضرَّ الذي كان يدعُو اللهَ إلى كشفهِ ، { وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً } ؛ أي رجعَ إلى عبادةِ الأوثان ، { لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ } ؛ أي ليَزِلَّ عن دينِ الإسلامِ ، ويُضِلَّ الناسَ ، { قُلْ } ؛ يا مُحَمَّدُ لهذا الكافرِ : { تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً } ؛ في الدُّنيا إلى أجَلِكَ ، لفظهُ لفظ الأمرِ ومعناهُ التهديدُ والوعيدُ ، { إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ } ؛ في الآخرةِ فما ينفعُ التمتُّعُ القليلُ من الدنيا.

(٠/٠)

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ الَّيلِ سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ } ؛ معناهُ : هذا خيرٌ أيُّها الكافرُ أم مَن هو قانتٌ ؟ وَقِيْلَ : معناهُ : أمَّنْ هو قانتٌ كمَن جعلَ لله أنْدَاداً. وَقِيْلَ : معناهُ : أهذا الخيرُ أم من هو قانتٌ لله؟. والقَانِتُ : هو المواظِبُ على طاعةِ الله تعالى ، القائمُ بما يجبُ عليه لأمرِ الله. و { آنَآءَ الَّيلِ } ساعاتهُ.

وقوله : { سَاجِداً وَقَآئِماً } نُصِبَ على الحالِ ؛ أي تارةً ساجداً وتارةً قائماً ، يفعلُ ذلك حَذِراً من العذاب وطَمعاً في الثواب. وقرأ نافعُ وابن كثير : (أمَنْ) بالتخفيفِ ؛ لأن ألِفَ الاستفهامِ دخلت على (مَنْ) هو استفهامُ إنكارٍ ، والمعنى : أمَنْ هو قانتٌ كالأوَّلِ. ورُوي أنَّ قوله : { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ الَّيلِ سَاجِداً وَقَآئِماً } نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ ابْنِ عَفَّان رضي الله عنه.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ أي لا يستوِي العالِمُ والجاهلُ ، فكذلكَ لا يستوِي المطيعُ والعاصي ، { إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } ؛ أي يتَّعِظُ بمواعظِ الله ذوُو العقولِ من الناسِ.

وقال مقاتلُ : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَمَّار بْنِ يَاسِرٍ وَأبي حُذيْفَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ. { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ } يَعْنِي عَمَّارَ { وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ } يَعْنِي أبَا حُذيْفَةَ).

وعن ابنِ عبَّاس ؛ أنَّهُ قالَ : (مَنْ أحَبَّ أنْ يُهَوَّنَ عَلَيْهِ الْمَوْقِفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلْيَرَهُ اللهُ سَاجِداً فِي سَوَادِ اللَّيلِ سَاجِداً أوْ قَائِماً يَحْذرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِهِ).

(٠/٠)

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ ياعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ } ؛ أي أطِيعوهُ واجْتَنِبُواْ معاصيَهُ ، وتَمَّ الكلامُ ثم قالَ : { لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَاذِهِ الدُّنْيَا } ؛ أي وحِّدُوا اللهَ وأحسِنُوا العملَ ، { حَسَنَةٌ } ؛ يعني الجنَّةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ } ؛ أي ارحَلُوا من مكَّةَ ، وهذا حثٌّ لهم على الهجرةِ من مكَّة إلى حيث يَأْمَنُونَ ، فيه بيانُ أنه لا عذرَ لأحدٍ في تركِ طاعةِ الله تعالى لكونه بأرضٍ لا يتمكَّنُ فيها من ذلكَ.

وقولهُ تعالى : { إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } ؛ معناهُ : إنما يُوَفَّى الصَّابرُون على دِينهم فلا يترُكونَهُ بمشقَّةٍ تَلحقُهم. وهذه الآيةُ نزلَتْ في جعفرَ بن أبي طالبٍ وأصحابهِ حين لم يترُكوا دينَهم ،

ولَمَّا اشتدَّ عليهم الأمرُ صبَرُوا وهاجَرُوا ، والمعنى : يُعطَوْنَ أجرَهم كاملاً على صبرِهم على البلاءِ ، وهجرانِ أهلِهم وأوطانِهم بغير وزنٍ ولا مقدارٍ ، بل يعطون نَعيماً وثواباً لا يهتدِي إليه عقلٌ ولا وصف.

(٠/٠)

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ } ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لكفَّار مكَّة : إنِّي أُمرت أن أعبُدَ اللهَ ، { وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ } ، وأُمرتُ أن أعبدَهُ على التوحيدِ والإخلاصِ ، لا يشوبُ عبادتَهُ شركٌ.

قال مقاتلُ : (وَذلِكَ أنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالُوا لَهُ : يَا مُحَمَّدُ مَا يَحْمِلُكَ عَلَى أتَيْتَنَا بِهِ ؟ ألاَ تَنْظُرُ إلَى مِلَّةِ أبيكَ وَجَدِّكَ وَسَادَةِ قَوْمِكَ يَعْبُدُونَ اللاَّتَ وَالْعُزَّى فَتَأْخُذ بهَا ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). أي قُل لَهم إنِّي أمرتُ بالقرآنِ بتوحيدِ الله تعالى ، وأن آمَرَ الخلقِ كلهم بذلك ، وأُمِرتُ أن أكون أوَّلَ من أسلمَ من أهلِ هذا الزَّمان.

(٠/٠)

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥)

وقولهُ تعالى : { قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } ؛ بالرُّجوعِ إلى دينِ آبائي ، { قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي } ؛ بالتوحيدِ لا أُشرِكُ به شيئاً ، { فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ } ؛ هذا أمرُ تَهديدٍ ، { قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ؛ بأن صَارُوا إلى النار ، { أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } ، يعني الكفارَ هم الذين خَسِرُوا أنفُسَهم وأهليهم من الأزواجِ والخدَمِ بالتخلية في النار. ويقالُ : خُسْرَانُ الأهلِ أن يخسَرُوا أهلَهم من الحور العينِ التي أُعِدَّت لهم في الجنَّة لو أسلَمُوا.

(٠/٠)

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦)

وقولهُ تعالى : { لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ } ؛ أي أطبَاقٌ من النار تلهبُ عليهم ، { وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ } ؛ أي مِهَادٌ من النار. يريدُ بذلك أنَّهم جُعِلُوا بين أطبَاقِ جهنَّم ، فأحاطَت بهم النارُ من كلِّ جانبٍ.
وإنما سُمي الذي من تحتَهم ظِلاً لأنه ظُلَلٌ لا يكون أسفلَ منهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ } ؛ أي ذلك الذي ذُكر من عذاب الكفَّار تخويفٌ للمؤمنين ليخَافوهُ فيتَّقونَهُ بالطاعةِ والتوحيدِ. ثم أمرَهم بذلك فقالَ : { ياعِبَادِ فَاتَّقُونِ } ؛ أي اتَّقُوا عذابي بامتثالِ أوَامِرِي.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ اجْتَنَبُواْ الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا } ؛ يعني اجتنَبُوا كلَّ ما يُعبَدُ من دون اللهِ ، { وَأَنَابُواْ إِلَى اللَّهِ } ؛ أي ورجَعُوا إلى طاعةِ الله بعزَائمِهم وأقوالِهم وأفعالهم ، { لَهُمُ الْبُشْرَى } ؛ بالجنَّة ، { فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ } ؛ وذلك لأنَّ القرآن يشتملُ على ذكرِ المباحات والطَّاعات ، والمباحات حسَنةٌ ، والطاعات أحسَنُ ، واستحقاقُ الثواب يتعلَّقُ بفعلِ الأحسنِ.
ويجوزُ أن يكون معنى الآيةِ : أن العفوَ عن القصاصِ أحسنُ من استيفاءِ القصاصِ ، والصبرُ أحسن من الانتصار ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى }[البقرة : ٢٣٧] ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ }[الشورى : ٤٣] ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : { فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ }[البقرة : ١٨٤] فجعلَ الأخذ بأحسنِ الطَّريقَين أعظمُ للصواب.
وَقِيْلَ : معنى { فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ } أي أحسنَهُ وكلُّه حسنٌ ، قولهُ تعالى : { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ } ؛ أي الذين وصَفْنَاهم ، { وَأُوْلَائِكَ } ، هم الذين وفَّقَهم اللهُ للصواب ، { هُمْ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } ؛ أي ذوُو العقولِ.
وقال عطاءُ عن ابنِ عبَّاس : (أنَّ أبَا بَكْرٍ رضي الله عنه آمَنَ بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَصَدَّقَهُ ، فَجَاءَ عُثْمَانُ رضي الله عنه وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدُ وَسَعِيدُ ، فَسَأَلُوهُ فَأَخْبَرَهُمْ بِإِيْمَانِهِ

فآمَنُوا ، فَنَزَلَ فِيْهِمْ { فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ } أيْ يَسْتَمِعُونَهُ مِنْ أبي بَكْرٍ { فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ } أيْ حُسْنَهُ ، وَكُلُّهُ حَسَنٌ ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ ذوُو الْعُقُولِ).

(٠/٠)

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠)

وقولهُ تعالى : { أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ } ؛ معناهُ : أفمَنْ وجبَتْ عليه كلمةُ العذاب بكُفرِهِ كمَن ليس كذلك ، { أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ } ؛ أي سبقَ في علمِ الله أنه من أهلِ النار ، أفأنتَ تنقذهُ فتجعلهُ مؤمناً ، يعني لا تقدِرُ على ذلك.
قال عطاءُ : (يُرِيدُ أبَا لَهَبٍ وَأوْلاَدَهُ وَمَنْ تَخَلَّفَ مِنْ عَشِيرَةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم عَنِ الإيْمَانِ بِهِ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَاكِنِ الَّذِينَ اتَّقَواْ رَبَّهُمْ } ؛ بالإيمانِ والطاعة ، { لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ } ؛ أي لَهم منازلُ في الجنَّة رفيعةً وفوقَها منازلُ أرفَعُ منها ، { تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ } ، وعدَهم اللهُ تلك الغُرَف والمنازلَ وعْداً لا يُخْلِفهُ.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً } ؛ يعني المطرَ ، { فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ } ؛ أي فأجراهُ في الأرضِ ينابيعَ وهو جمعُ يَنْبُوعٍ ، والينبوعُ : المكانُ الذي يَنْبَعُ منه الماءُ. قال مقاتلُ : معناهُ (فَجَعَلَهُ عُيُوناً وَرَكَايَا فِي الأَرْضِ) وَذلِكَ أنَّ أصْلَ الْمِيَاهِ الَّتِي فِي الأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ.
وقولهُ : { ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ } ؛ أي ثم يُخرِجُ بالمطرِ زَرْعاً من بين أحمرٍ وأصفر وأبيض وأخضرٍ ، { ثُمَّ يَهِيجُ } ؛ أي يَيْبَسُ ، { فَتَرَاهُ } ؛ بعدَ الْخُضْرَةِ ، { مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ } ؛ اللهُ ، { حُطَاماً } ؛ أي متكسِّراً متفَتِّتاً دِقَاقاً ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ } ؛ أي الذي ذكرَ من صُنعِ الله وقدرتهِ لدلالةِ ذوي العقولِ على سُرعة زوالِ الدُّنيا ، وعلى قدرةِ الله على البعثِ بعدَ الموت.

(٠/٠)

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ } ؛ معناهُ : أفمَن وسَّعَ الله صدرَهُ لقَبولِ الإسلام ، فهو على بيانٍ وحجَّة من ربه يُبصِرُ به الحقَّ من الباطلِ ، كمَن طبعَ الله على قلبهِ فلم يهتَدِ للحقِّ لقَسوَتهِ ، فال قتادةُ : (فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِهِ : النُّورُ هُوَ كِتَابُ اللهِ تَعَالَى ، فِيْهِ يَأْخُذُ وَبِهِ يَنْهَى).

وتقديرُ الآيةِ : أفمَن شرحَ اللهُ صدرَهُ للإسلامِ فهو على نورٍ من ربه ، كمَن قَسِيَ قلبهُ. وعن ابنِ مسعود رضي الله عنه أنه قالَ : " تَلاَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم هَذِهِ الآيَةَ ، قَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هَذا الانْشِرَاحُ ؟ قَالَ : " إذا دَخَلَ نُورٌ الْقَلْبَ انْشَرَحَ وَانْفَسَحَ " قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ ؛ وَمَا عَلاَمَةُ ذلِكَ ؟ قَالَ : " الإِنَابَةُ إِلَى دَار الْخُلُودِ ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَار الْغُرُور ، وَالتَّأَهُّب لِلْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ الْمَوْتِ " قِيْلَ : إنَّ هذه الآيةَ نزلت في عمَّار بن ياسرٍ ، وقال مقاتلُ : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ يَعْنِي النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ } ؛ هم أبُو جهلٍ وأصحابهُ من الكفَّار ، { أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ }. وَقَيْلَ : إنَّ قولهُ { أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ } يعني عَلِيّاً وحمزةَ ، وقولهُ تعالى { فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ } هو أبو لَهَبٍ وأولادهُ. وقولهُ { مِّن ذِكْرِ اللَّهِ } أي عن ذكرِ اللهِ.

(٠/٠)

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ } ؛ يعني القرآنَ ، سُمي حَديثاً لأن النبيَّ كان يُحَدِّثُ به قومَهُ. وقوله : { كِتَابا } ؛ منصوب على البدل من أحسن الحديث. قولهُ : { مُّتَشَابِهاً } ؛ أي يُشبهُ بعضه

بعضاً في كونهِ حكمةً ومصلحةً ، وفي أنه حقٌّ لا تناقُضَ فيهِ.

وقولهُ تعالى : { مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ } ؛ أي مُكَرِّرُ الأنباءِ والقصصِ للإبلاغِ والتأكيدِ ، وتُثْنَى تلاوتهُ في الصَّلاةِ وفي غيرِها فلا يمل من سماعهِ.

وقولهُ : { تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ } خوفاً مما في القرآنِ من الوعيدِ ، ومعنى تَقْشَعِرُّ : تأخذُهم قَشْعَرِيرَةٌ وهي تغيُّر يحدثُ في جلدِ الإنسان عند الوجَلِ والخوفِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " إذا اقْشَعَرَّ جِلْدُ الْعَبْدِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، تَحَاتَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا يَتَحَاتُّ عَنِ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا "

وقال الزجَّاجُ : (إذا ذُكِرَتْ آيَاتُ الْعَذاب اقْشَعَرَّتْ جُلُودُ الْخَائِفِينَ) ، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : " إذا اقْشَعَرَّ جِلْدُ الإنْسَانِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّار ".

وعن عبدِالله بنِ عُروةَ قالَ : قُلْتُ لأَسْمَاءَ بنْتِ أبي بَكْرٍ رضي الله عنه : كَيْفَ كَانَ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَفْعَلُونَ إذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ القُرْآنُ ؟ قَالَتْ : (كَانُوا كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ تَعَالَى ، تَدْمَعُ عُيُونُهُمْ وَتَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُهُمْ) فَقُلْتُ لَهَا : إنَّ نَاساً الْيَوْمَ إذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ خَرُّواْ مَغْشِيّاً عَلَيْهِمْ ؟ قَالَتْ : (أعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ).

ورُوِي : أنَّ ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنه مَرَّ برَجُلٍ مِنْ أهْلِ الْعِرَاقِ سَاقِطٍ فَقَالَ : (مَا بَالُ هَذا؟) فَقَالُواْ : إنَّهُ إذا قُرِئَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَسَمِعَ ذِكْرَ اللهِ سَقَطَ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه : (إنَّا لَنَخْشَى اللهَ وَلاَ نَسْقُطُ) وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : (إنَّ الشَّيْطَانَ لَيَدْخُلُ فِي جَوْفِ أحَدِهِمْ! مَا كَانَ هَذا صُنْعَ أصْحَاب رَسُولِ اللهِ صلى لله عليه وسلم).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ } ؛ أي تسكنُ رعدَةُ أعضائِهم إذا سمعوا آياتِ الرَّحمة ، وَقِيْلَ : تلينُ جلودُهم وقلوبُهم ؛ أي تطمئنُ وتسكنُ إلى ذكرِ الله للجنَّة والثواب.

قال قتادةُ : (هَذَا نَعْتُ أوْلِيَاءِ اللهِ ، وَصَفَهُمُ اللهُ بأَنْ تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ إلَى ذِكْرِ اللهِ ، وَلَمْ يَنْعَتْهُمْ بذهَاب عُقُولِهِمْ وَالْغِشْيَانِ عَلَيْهِمْ ، إنَّمَا ذلِكَ فِي أهْلِ الْبدَعِ وَهُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ).

وقولهُ تعالى : { ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ } ؛ يعني أحسنَ الحديثِ وهو القرآنُ ، هُدَى اللهُ يهديهِ ، { مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ }.

(٠/٠)

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ الْكَافِرَ يُلْقَى فِي النَّار مَغْلُولَ الْيَدِ إلَى الْعُنُقِ ، لاَ يَتَهَيَّأُ لَهُ أنْ يَتَّقِي النَّارَ إلاَّ بوَجْهِهِ) ، فكان معنى الآيةِ : أفمَن يتَّقي

بوجههِ شدَّةَ العذاب يومَ القيامةِ كمَن يدخلُ الجنةَ ويتلذذُ بنعيمِها.
قِيْلَ : إنَّ هذه الآيةَ نزلت في أبي جهلٍ ، قال الكلبيُّ : (يُنْطَلَقُ بهِ إلَى النَّار مَغْلُولاً ، فَإذا دَفَعَتْهُ الْخَزَنَةُ فِيْهَا تَتَلَقَّفُهُ النَّارُ بأَوَّلِ وَجْهِهِ) ، وقوله : { وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ } ؛ أي يقولُ الخزَنة للكفار : ذوقوُا العذابَ بما كنتم تكسَبون في الدُّنيا من الكفرِ والمعاصي.

(٠/٠)

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } ؛ أي كذبَ الذين من قبلِ كفَّار مكَّة رسُلَهم ، { فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ } ؛ يعني وهم آمِنُون في أنفُسِهم غَافِلون عن العذاب. وفي هذه الآيةِ تحذيرٌ لأهلِ مكَّة لئلاَّ يسلُكوا طريقةَ مَنْ قَبْلَهُم فينْزِلُ بهم من العذاب ما نزلَ بمَن قبلَهم.

(٠/٠)

فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦)

وقولهُ تعالى : { فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ؛ أي الهوانَ والعذابَ في الحياةِ الدنيا ، { وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ } ؛ مما أصابَهم في الدُّنيا ، { لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } ؛ ولكنَّهم لم يعلَمُوا ذلكَ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَاذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ } ؛ أي ولقد ضرَبنا لأهلِ مكَّة في هذا القرآنِ من كلِّ مثَلٍ لَهم فيه من كلِّ وجهٍ ما يحتاجون إليه ، { لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } ؛ فيؤمِنُوا.

(٠/٠)

قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)

وقولهُ تعالى : { قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } ؛ قُرْآناً نصَبهُ على الحالِ كما يقالُ : جاءَني زيدٌ رجُلاً صالحاً ، وقولهُ تعالى : { غَيْرَ ذِي عِوَجٍ } أي مستقيمٌ وليس مختلِفٌ ، وعن ابنِ عبَّاس : (غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ؛ أيْ غَيْرَ مَخْلُوقٍ) ، وَقِيْلَ : غيرَ تضَادُدٍ واختلافٍ ، لا يخالِفُ الكتبَ المنَزَّلةَ قبلَهُ.

(٠/٠)

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ } ؛ أي وصفَ اللهُ مثلَ آلِهَتِهم التي يعبدونَها من دونِ الله ، يقول اللهُ : الذي يعبدُ آلهةً شينٌ في أخلاقِهم وشراسةً ، والذي يعبدُ ربّاً واحداً خالصاً في عبادتهِ إياهُ ، والمعنى فيه شركاءُ متشَاحُّون ، ورجُلاً سَلَماً لرَجُل سلم له من غيرِ منازعٍ ، وَقِيْلَ : معناهُ : أنَّ أربَاباً كثيرةً فيه شركاءُ متشَاحُّون سَيِّئةٌ أخلاقُهم ، وكلُّ واحدٍ منهم يستخدمهُ بقدر نصيبهِ ، يقالُ : رجلٌ شَكِسٌ وَشَرِسٌ ، وَضَرِسٌ وضَبِسٌ ، إذا كان سَيِّءَ الْخُلُقِ ومُخَالفاً للناسِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ } ؛ (ورَجُلاً سَالِماً) هذه قراءةُ ابنِ كثير وأبي عمرٍو ومجاهد والحسن ويعقوب ، واختيار أبي عُبيد ؛ لأن السالِمَ " الْخَالِصُ " ضدُّ المشترَكِ ، وقرأ الباقون (سَلَماً) من غيرِ ألف بفتحِ اللام وهو ضدُّ المحارب ، ولا موضعَ للحرب ههُنا ، والمعنى ورَجُلاً ذا سَلَمٍ لرَجُل ، من قولِهم : هو لكَ سَلَمٌ ؛ أي مسلم لا منازعَ لكَ فيه.
وقوله : { هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً } ؛ أي هل يستوِي عندكَ شِرْكٌ فيه مختلفون يملكونَهُ جميعاً ورجلٌ خالِصٌ لرجلٍ لا شركةَ فيه لأحدٍ. والمعنى هل يستوِي من يعبدُ آلهةً شتَّى مختلفةً ، يعني الكافرَ ، والذي يعبدُ ربّاً واحداً ، يعني المؤمنَ ، وهذا استفهامٌ معناهُ الإنكارُ ؛ أي لا يستوِيان.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { الْحَمْدُ للَّهِ } ؛ أي الشكرُ للهِ دون غيرهِ من المعبودِين ، وقولهُ : { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ ما يصِيرُون إليه من العقاب ، والمرادُ بالأكثرِ الكلَّ.

(٠/٠)

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ } ؛ إنكَ يا مُحَمَّدُ ميِّتٌ عن قليلٍ وإنَّهم ميِّتون ، وَقِيْلَ : معناهُ : إنكَ ستموتُ وإنَّهم سيمُوتون ، { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ } ؛ يعني الْمُحِقَّ وَالْمُبْطِلَ ، والظالِمَ والمظلومَ. قولهُ : { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ علَى اللَّهِ } ، بأن جعلَ له ولَداً وشَريكاً ، { وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُ } ؛ وكذبَ بالصدقِ بالتوحيد والقرآنِ إذْ جاءَ به مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ، وقولهُ تعالى : { أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ } ؛ لفظَةُ استفهامٍ وهو تقديرٌ وتحقيقٌ ؛ أي مثوَاهُم جهنَّمُ.

(٠/٠)

وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)

قولهُ : { وَالَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ } ؛ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، { وَصَدَّقَ بِهِ } ؛ أبُو بكرٍ رضي الله عنه كَانَ يُصدِّقهُ في كلِّ ما أخبرَ به ، فلذلك سُمي صِدِّيقاً ، وقولهُ تعالى : { أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } ؛ يعني أبا بَكرٍ وأصحابَهُ المؤمنين ، وقولهُ تعالى : { لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ } ؛ يعني لَهم ما يَشاؤُون من الكرامةِ في الجنَّة و { ذَلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ } ؛ في أقوالِهم وأعمالهم. وقولهُ تعالى : { لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُواْ } ؛ أي ليُكَفِّرَ اللهُ عنهم أقبحَ أعمالِهم التي عمِلُوها في الدُّنيا بحسناتِهم ، { وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ، قال مقاتلُ : (بالْمَحَاسِنِ مِنْ أعْمَالِهِمْ ، وَلاَ يَجْزِيهِمْ بالْمَسَاوئ).

(٠/٠)

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ } ؛ وذلك " أنَّ " المشركين من أهلِ مكَّة قالُوا للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : إنَّكَ لا تزالُ تشتمُ آلِهَتَنا وتُعِيبُها فاتَّقِها أنْ لا تصيبَكَ بشيءٍ فتُخبلَكَ! فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ.
وَقِيْلَ : معناهُ : أليس اللهُ بكافٍ عَبْدَهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم يكفِيه عداوةَ من يُعاديهِ.
ومن قرأ (عِبَادَهُ) فالمرادُ بالعبادِ الأنبياءَ ، وذلك أنَّ الأُمم قصدَتْهم بالسُّوء ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ }[غافر : ٥] فكفَاهم اللهُ شَرَّ مَن عادَاهم ، يعني إنه كافِيكَ كما كفَى هؤلاء الرسُلَ قبلَكَ.
وقوله تعالى : { وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ } ، أي بالذين يَعبُدون من دونهِ هم الأصنامُ. { وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ }.

(٠/٠)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ } ؛ وذلك أنَّهم " مع " عبادتَهم غيرَ اللهِ يُقِرُّونَ أن اللهَ خالقُ هذه الأشياءِ ، فجعلَ اللهُ إقرارَهم بذلك حجَّةً عليهم.
وبيَّن أنه تعالَى إذا أرادَ بعبدهِ ضُرّاً لم تقدر الأصنامُ على دفعهِ عنهُ ، وإذا أرادَ بعبدٍ رحمةً لم تقدر الأصنامُ على حبسِها عنه ، فكيف يعبدونَها ويتركون عبادةَ اللهِ الذي له هذه الصفاتُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ } أي أمرَ اللهُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يحتجَّ عليهم بأن جميعَ ما تعبُدون من دون اللهِ لا يَملكون كشفَ ضُرٍّ ، قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه : (وَالْمَعْنَى : أرَادَنِي اللهُ بفَقْرٍ أوْ مَرَضٍ أوْ بَلاَءٍ أوْ شِدَّةٍ ، هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ ، أوْ أرَادَنِي برَحْمَةٍ أيْ بخَيْرٍ وَصِحَّةٍ ، هَلْ هُنَّ حَابِسَاتٌ تِلْكَ الرَّحْمَةَ عَنِّي).
قرأ أبو عمرٍو ويعقوب (كَاشِفَاتٌ) و (مُمْسِكَاتٌ) بالتنوينِ ؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ غيرُ واقعٍ ، وما لَمْ يقع منهُ

فوجهُها التنوينُ ، وقرأ الباقونَ بغير تنوينٍ استخفافاً ، وكِلاَ الوجهين حسنٌ.
وقولهُ تعالى : { قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ } ؛ أي يكفيني اللهُ تعالى الذي بيدهِ الضرُّ والرحمةُ ، { عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } ؛ أي به يَثِقُ الواثِقُون لا بغيرهِ.

(٠/٠)

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ ياقَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ } ؛ أي على نَاحِيَتِكم التي اخترتُموها ، { إِنِّي عَامِلٌ } ؛ على نَاحِيَتي وجِهَتي ، { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ } ؛ أي يَفضَحهُ ويُهلِكهُ في الدُّنيا ، { وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ } ؛ وينْزِلُ عليه عذابٌ دائم في الآخرةِ. ويجوز أنْ يكون قولهُ { مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ } ابتداءُ كلامٍ من اللهِ تعالى ، وخبرهُ { يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ }.

(٠/٠)

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ } ؛ يعني القرآنَ لتعلَمُوا ما فيه وتعمَلُوا به ، { فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ } ؛ أي فمنفعةُ اهتدائهِ راجعةٌ إلى نفسهِ ، { وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } ، ومن ضَلَّ فضَلالهُ راجعٌ إليه ، { وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ } ؛ أي بحفيظٍ ؛ أي تُجبرُهم بالإيمانِ ، وهذا كان قبل أن يؤمرَ بقتالِهم.

(٠/٠)

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا } معناهُ : اللهُ يقبضُ الأرواحَ عند انقضاءِ آجَالِها ، ويقبضُ الأرواحَ التي لم تَمُتْ في منامِها ، { فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى } ؛ فيحبسُ الأرواحَ التي قَضَى عليها الموتَ ولا يردُّها إلى الأجسادِ ، ويَرُدُّ أرواحَ النائمين إليهم عند الاستيقاظِ ، { إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } ؛ أي إلى الأجلِ الذي قدَّرَ اللهُ لهم وهو انقضاءُ الأجَلِ ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ } ؛ إن في رَدِّ الأرواحِ بعد القبضِ لعلاماتٍ ، { لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } ؛ في قُدرةِ الله تعالى ، فيستدلُّون بذلك على قُدرتهِ على البعثِ.

قال الزجَّاجُ : (لِكُلِّ إنْسَانٍ نَفْسَانِ ؛ أحَدُهُمَا : نَفْسُ التَّمْييزِ ؛ وَهِيَ الَّتِي تُفَارِقُهُ إذا نَامَ فَلاَ يَعْقِلُ. وَالأُخْرَى : نَفْسُ الْحَيَاةِ ؛ إذا زَالَتْ زَالَ مَعَهَا النَّفَسُ ، وَالنَّائِمُ يَتَنَفَّسُ). وعن ابن جُريج عن ابنِ عبَّاس أنه قالَ : (إنَّ النَّفْسَ الَّتِي هِيَ الْعَقْلُ وَالتَّمْييزُ ، وَالرّوحُ هُوَ الشُّعَاعُ الَّذِي بِهِ يَتَحَرَّكُ الإنْسَانُ ، فَإذا نَامَ الْعَبْدُ قَبَضَ اللهُ نَفْسَهُ وَلَمْ يَقْبضْ رُوحَهُ ، وَإذا مَاتَ قَبَضَ نَفْسَهُ وَرُوحَهُ).

ويقالُ : إن الأشباحَ له نفسٌ وروح وحياةٌ ، والبهائمُ لها أرواحٌ ، والنباتُ له حياةٌ ، فنَمَا النباتُ بحياتهِ ، وتحرَّكَ البهائمُ بأرواحِها ، وتَمييزُ الإنسان بنفسِه ، فإذا نامَ غَرَبَ عنه عقلهُ وفَهمهُ وتَمييزهُ ، فإذا انتبهَ عادَ كما كان ، وكذلك الميِّتُ إذا بُعِثَ عادَ يبعث كما كانَ.

" وسُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أيَنَامُ أهْلُ الْجَنَّةِ ؟ فَقَالَ : " النَّوْمُ أخُو الْمَوْتِ ، وَأهْلُ الْجَنَّةِ لاَ يَنَامُونَ وَلاَ يَمُوتُونَ " وروي أن في التوراةِ مكتوبٌ : يا بن آدمَ كما تنامُ تموتُ ، وكما تستيقظُ تُبعَثُ.

وقوله { فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ } أي يُمسِكُها عن جسدِ ، يعني الروحَ التي توفَّاها فلا تعودُ إلى الجسدِ ، وقوله { وَيُرْسِلُ الأُخْرَى } يعني النَّفسَ إلى الجسدِ { إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } أي إلى انقضاءِ الأجلِ.

قرأ الأعمشُ وحمزة والكسائي وخلف : (قُضِيَ عَلَيْهَا) بضمِّ القاف وكسرِ الضاد وفتح الياء ، ورفعِ (الْمَوْتُ) على ما لَمْ يُسمَّ فاعلهُ. وقرأ الباقون : (قَضَى) على الفعلِ الماضي ، ونصب (الْمَوْتَ عَلَيْهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ } ؛ قال المفسِّرون : إن أرواحَ الأحياءِ والأموات تلتقِي في المنامِ فتعارَفُوا ما شاءَ اللهُ ، ثم يُمسِكُ اللهُ أرواحَ الأمواتِ فلا يردُّها ، وأرسلَ أرواحَ الأحياءِ إلى الأجسادِ إلى وقتِ انقضاء مدَّة حياتِها. وعن رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " إذا أوَى أحَدُكُمْ إلَى فِرَاشِهِ فَلْيَضْطَجِعْ عَلَى جَنْبِهِ الأَيْمَنِ ، وَلْيَقُلْ : باسْمِكَ رَبي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبكَ أرْفَعُهُ ، إنْ أمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا ، وَإنْ أرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بمَا تَحْفَظُ بهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ ".

(٠/٠)

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَآءَ } ؛ نزلت في أهلِ مكَّة زعَمُوا أن الأصنامَ شفعاؤُهم عند اللهِ ، فقالَ تعالى مُنكراً عليهم (أمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً) أي بل اتَّخَذُوا من دون اللهِ آلهةً يعبدونَها طمَعاً في شفاعتِها ، { قُلْ } ، لَهم يا مُحَمَّد : { أَوَلَوْ كَانُواْ لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ } ، أتَعبدُونَهم وإنْ كانوا لا يقدِرون على شيءٍ من الشفاعةِ ولا يعقِلون الشفاعةَ ، فكيف يشفَعُون ؟ وَقِيْلَ : ولا يعقِلون أنَّكم تعبدونَهم.

ثم أخبرَ أنه لا شفاعةَ إلاَّ بإذنهِ ، فقالَ : { قُل لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ؛ أي لا يشفعُ أحدٌ إلاَّ بإذنهِ ، والمعنى لا يملِكُ أحدٌ الشفاعةَ إلاّ بتمليكهِ ، وهو إبطالٌ لشفاعةِ الأصنامِ.

(٠/٠)

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ } ؛ وذلك أنَّ المشركين إذا قيلَ لَهم لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ نفَرُوا من ذلك واستَكبَروا.

والاشْمِئْزَازُ في اللُّغة : النُّفُورُ وَالاسْتِكْبَارُ. قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه : (اشْمَأَزَّتْ انْقَبَضَتْ عَنِ التَّوْحِيدِ) وقال قتادةُ : (اسْتَكْبَرَتْ) ، وقال أبو عُبيدة : (نَفَرَتْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ } ؛ يعني الأصنامَ التي يعبُدنَها من دون اللهِ ، { إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } ؛ والمعنى إذا قيل لَهم : لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ، نفَرُوا من ذلك ، وإذا ذُكرت أصنامُهم فرِحُوا بذكرِها. فقيل له : { قُلِ } ؛ لَهم يا مُحَمَّدُ : { اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي خالِقَهما ، {

عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } ؛ أي عالِمُ ما غابَ عن العبادِ ، وما علِمَهُ العبادُ ، { أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ } ، أي تقضي بين عبادك ، { فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } ؛ من الدِّين.

(٠/٠)

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ؛ أي لو كان للَّذين ظلَمُوا أنفُسَهم بالشِّركِ ما في الأرضِ جميعاً من المالِ ومثلَهُ معَهُ لفَدَوا به أنفُسَهم لشدَّةِ ما ينْزِلُ بهم من العذاب ، ثم لا يُقْبَلُ منهم ذلك الفداءُ ، وظهرَ لهم من عقاب الله ما لم يكونوا يتوقَّعون في الدُّنيا أنه ينْزِلُ بهم في الآخرةِ.
وذلك أنَّهم لَمَّا كانوا لا يُقِرُّونَ بالبعثِ والنُّشور كانوا لا يتوقَّعون أهوالَ يومِ القيامة ، بل كانوا ينتظِرُون ثوابَ اللهِ أن لو قامَتِ القيامةُ كما أخبرَ اللهُ عنهم بقوله{ وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى&# }[فصلت : ٥٠] فإذا رأوُا العذابَ فقد ، { وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ } ؛ وظهرَ لهم عقوباتُ ما كسَبُوا من المعاصِي ، { وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } ، وحلَّ بهم جزاءُ استهزائِهم بالكتاب والرسول.

(٠/٠)

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا } ؛ أي إذا أصابَهُ مكروهٌ دعَانَا لنكشِفَ عنهُ ، { ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا } ، ثم أعطيناهُ نعمةً منَّا من صحَّة وعافيةٍ ، ويُسْرٍ بعد شدَّةٍ ، { قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ } ؛ اللهِ أنَّني أهلٌ لذلك ، وقالَ : على علمٍ منِّي فيه بوجُوهِ مُكاسَبَة.
وقولهُ : { بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ } ؛ أي بل النعمةُ والشدَّة بَلِيَّةٌ وامتحانٌ من اللهِ للغنيِّ والفقيرِ ، للغنيِّ بالشُّكر وللفقيرِ بالصبرِ ، { وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ أنَّها من اللهِ.

(٠/٠)

قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } ؛ أي قد قالَ تلك الكلمةِ قارونُ حين قالَ{ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي }[القصص : ٧٨]. والمعنى : قد قالَها الذين من قبلِ هؤلاء الكفَّار ، { فَمَآ أَغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } ؛ أي ما أغنَى عنهم الكفرُ من العذاب شيئاً ، والمعنى أنَّهم ظَنُّوا إنما آتَينَاهم لكرامتِهم علينا ، ولم يكن كذلك ؛ لأنَّهم وقَعُوا في العذاب ، ولم يُغْنِ عنهم ما كسَبُوا شيئاً ، وقولهُ تعالى : { فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ } ؛ أي جزاؤُها.
ثم أوعدَ كفارَ مكَّة فقال : { وَالَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَاؤُلاَءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ } ؛ أي جزاءُ ما قالُوا وعمِلُوا ، { وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ } ؛ لأن مرجِعَهم اللهُ ، فهم لا يُعجِزُونَهُ ولا يَفُوتُونَهُ فيُجازيهم بأعمالِهم.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ } ؛ معناهُ : أوَلَم يعلَمُوا أنَّ الله يوسِعُ الرزقَ على مَن يشاءُ ويُضَيِّقُ على مَن يشاءُ ، كلُّ ذلك من عندهِ لا بحَوْلِ الإنسانِ وقوتِه ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } ؛ إنَّ في البَسْطِ والتقتيرِ لآياتٍ لقومٍ يُصدِّقون أنَّها من اللهِ تعالَى.

(٠/٠)

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ ياعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه : (إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي وَحْشِي وَأصْحَابِهِ الَّذِينَ قَتَلُواْ حَمْزَةَ عَمِّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَجَمَاعَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، أرْسَلُواْ إلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم رَسُولاً يَطْلُبُونَ التَّوْبَةَ ، فَأَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ).

وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنه قالَ : (بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه إلَى وَحْشِي يَدْعُوهُ إلَى الإسْلاَمِ ، فَأَرْسَلَ إلَيْهِ : يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ تَدْعُونِي إلَى دِينِكَ وَأنْتَ تَزْعُمُ أنَّهُ مَنْ قَتَلَ أوْ أشْرَكَ أوْ زَنَى يَلْقَ أثَّاماً ، يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيْهِ مُهَاناً ؟ وَأنَا قَدْ فَعَلْتُ ذلِكَ كُلَّهُ ، فَهَلْ تَجِدُ لِي فِيْهِ رُخْصَةً ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : { إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً }[الفرقان : ٧٠].

فَقَالَ وَحْشِي : هَذا شَرْطٌ شَدِيدٌ لاَ أقْدِرُ عَلَى هَذا ، فَهَلْ غَيْرُ ذلَك ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ }[النساء : ٤٨] وَقَالَ وَحْشِي : وَإنِّي فِي شُبْهَةٍ فَلاَ أدْرِي أيُغْفَرُ لِي أمْ لاَ ، فَهَلْ غَيْرُ ذلِكَ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ { قُلْ ياعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ } فَجَاءَ وَحْشِي فَأَسْلَمَ ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : هَذِهِ لَهُ خَاصَّةً أمْ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً ؟ فَقَالَ : [بَلْ لِلْمُسْلِمينَ عَامَّةً].

معنى الآيةِ : قُل يا عبادِي الذي جاوَزُوا الحدَّ في المعاصِي بالكُفرِ والزِّنا والقتلِ ونحوِها : لا تيأَسُوا من رحمةِ اللهِ ، { إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً } ؛ أي الصغائرَ والكبائرَ ، { إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ } ؛ لِمَن تابَ وآمَنَ ، { الرَّحِيمُ } ؛ بمَن تابَ على التوبةِ.

(٠/٠)

وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنِيبُواْ إِلَى رَبِّكُمْ } ؛ أي ارجِعُوا إلى طاعةِ ربكم بالتوبةِ ، { وَأَسْلِمُواْ لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ } ، واستَسلِمُوا له من قبلِ أن يأتيَكم العذابُ ثم لا تُمنَعون مما يرادُ بكم.

(٠/٠)

وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّبِعُواْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ } ؛ وهو القرآنُ ، { مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ } ؛ وقتَ مجيئِهِ.

(٠/٠)

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَن تَقُولَ نَفْسٌ ياحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطَتُ فِي جَنبِ اللَّهِ } ؛ معناهُ : بَادِرْ واحذرْ من أنْ تقولَ نفسِي ، أو حَذار من أن تصيرَ إلى حالةٍ تتحسَّرون فيها على التفريطِ فيما يُنَالُ به ثوابُ اللهِ ، قال الفرَّاءُ : (مَعْنَى قَوْلِهِ { فِي جَنبِ اللَّهِ } : هُوَ الْقُرْبُ ؛ أيْ فِي قُرْب اللهِ وَجِوَارِهِ).
والمعنى : أنْ تقولَ نفسِي : يا حسرَتَا على ما فرَّطتُ في طلب جِوَار اللهِ وقُربِهِ وهو الجنَّةُ ، وقال عطاءُ : (مَعْنَاهُ : عَلَى مَا ضَيَّعْتُ مِنْ ثَوَابٍ). وقولهُ تعالى : { وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ } ؛ أي وما كنتُ إلاَّ من المستهزِئين القرآنِ والمؤمنين في الدُّنيا وبمَن دعَانِي إلى التوحيدِ.

(٠/٠)

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } ؛ أي وخَوفاً أنْ تقولَ لو أنَّ الله نَجَّانِي من العذاب لكنتُ من جُملَةِ المتَّقين الشِّركَ.

(٠/٠)

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ } ، الموحدين ، { الْمُحْسِنِينَ } ؛ أو تقولَ حين ترَى العذابَ أو لِئَلاَّ تقولَ حين ترَى العذابَ : لو أنَّ لي رجعةً إلى الدُّنيا فأكون من الموحِّدين الْمُحسِنينَ.

فيُقال لهذا القائلِ : { بَلَى قَدْ جَآءَتْكَ آيَاتِي } ؛ يعني القرآنَ ؛ { فَكَذَّبْتَ بِهَا } ؛ أي قُلتَ : ليست من عندِ الله ، { وَاسْتَكْبَرْتَ } ؛ أي وتكبَّرتَ من الإيمانِ بها ، وتعظَّمتَ عن الإقرار بذلك ، { وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } ، وصرتَ من الجاحدِين لنِعَمِ اللهِ ، فأصابكَ ما أصابكَ بجنايتِكَ على نفسِكَ.

(٠/٠)

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ } ؛ أي وترَى يا مُحَمَّدُ يومَ القيامةِ الذين كذبُوا على اللهِ في قولِهم : عُزَيْرٌ ابنُ الله ، وقولِهم : المسيحُ ابن اللهِ ، وقولِهم : الملائكةُ بناتُ الله تعالى ، وقولِ عبَدةِ الأصنامِ : مَا نعبُدهم إلاَّ ليقَرِّبونا إلى اللهِ زُلفَى ، ترَى هؤلاءِ تسوَدُّ وجوهُهم وتزرَقُّ أعينُهم. وقوله : { أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ } ؛ تحقيقٌ وتقرير ، والْمَثْوَى : هو الْمَنْزِلُ ، المتكبرُ : هو المتعَظِّمُ عن الإيمانِ.

(٠/٠)

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ } ؛ أي يُخَلِّصُهم من العذاب بفَوزهم الذي استحقُّوهُ بأعمالِهم ، قال المبرِّدُ : (الْمَفَازَةُ : مَفْعَلَةٌ مِنَ الْفَوْز) وَهِيَ السَّعَادَةُ وإنْ جُمِعَ فَحَسَنٌ كَقَوْلِهِمْ السَّعَادَةُ وَالسَّعَادَاتُ ، ويقرأ (بمَفَازَاتِهِمْ). وقولهُ : { لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ } ؛ أي لا يُصِيبُهم العذابُ ، { وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } ؛ لأنَّهم رَضُوا بالثواب.

(٠/٠)

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢)

وقولهُ تعالى : { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } ؛ أي جميعِ ما في الدُّنيا والآخرةِ من شيءٍ فاللهُ خالِقهُ ، وهو المستحقُّ للعبادةِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } ؛ أي الأشياءُ كلُّها موكلةٌ إليه ، فهو القائمُ بحفظِها ، المدبرُ لأمُورها ، الكفيلُ بأرزاقِها.

(٠/٠)

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي له خزائنُ السَّمواتِ والأرض ، يفتَحُ الرزقَ على من يشاءُ ويغلقه ، قال ابنُ عبَّاس : (الْمَقَالِيدُ الْمَفَاتِيحُ) وَاحِدُ الْمَقَالِيدِ مِقْلِيدٌ ، كَمَا يُقَالُ مِنْدِيلٌ ومَنَادِيلُ ، وقال الضحَّاكُ : (مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ خَزَائِنُهَا). ويجوزُ أن تكون المقاليدُ جمعَ الْمِقْلاَدِ ، وهو مِفْعَالٌ من الْمِقْلاَدَةِ ؛ أي هو مالكُ الخلقِ وله طاعتُهم وبيدهِ قلوبُهم.
وقولهُ تعالى : { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } ؛ معناهُ : والذين كفَرُوا بالقرآنِ هم الذين خَسِرُوا حتى صارُوا في النار.

(٠/٠)

قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ } ؛ وذلك أنَّ المشرِكين من قُريشٍ قالوا للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : أتُؤمِنُ ببعضِ آلهتنا ونؤمِنُ بإلَهِكَ ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ. والمعنى أتأمُرونَني أن أعبدَ اللهِ أيُّها الجاهلونَ بالنعمةِ.
قرأ نافعُ (تَأْمُرُوني) بنونٍ واحدة خفيفة على التخفيف ، وقرأ ابنُ عامرٍ بنُونَين على الأصلِ ، وقرأ الباقون بنُونٍ واحدة مشدَّدة على الإدغامِ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)

وقوله : { وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } ؛ أي ليَحبَطَنَّ عمَلُكَ الذي عَملتَهُ قبلَ الشِّركِ ، وهذا أدبٌ من اللهِ لنبيِّهِ صلى الله عليه وسلم وتَهدِيدٌ لغيرِهِ ، لأنَّ الله قد عصمَهُ من الشِّركِ ومُدَاهَنَتِهِ الكفارَ. قوله تعالى : { بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ } ؛ أي وَحِّدْ ؛ لأن عبادتَهُ لا تصحُّ إلاّ بتوحيدِهِ ، { وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ } ؛ لإنعامِهِ عليكَ به.

(٠/٠)

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } ؛ أي ما عرَفُوا اللهَ حقَّ معرفتِهِ ، ولا عظَّموهُ حقَّ تعظيمِهِ ، إذ عبَدُوا الأوثانَ مِن دونِهِ ، وأمَرُوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعبادةِ غيرِه. ثم أخبرَ عن عظَمتِهِ فقالَ : { وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ؛ أي وجميعُ الأرضِ في مَقدُورِهِ يومَ القيامةِ كالذي يقبضُ عليه القابضُ في قَبضَتِهِ ، وهذا كما يقالُ : فلانٌ في قبضةِ فلانٍ ؛ أي تحتَ أمرِهِ وقبضَتِهِ ، والقَبْضَةُ في اللغة : ما قَبَضْتَ عليهِ بجمعِ كفِّكَ ، أخبرَ اللهُ تعالى عن قُدرتِهِ فذكرَ أن الأرضَ كلَّها مع عَظَمتِها وكثافَتِها في مَقدُورِهِ ، كالشَّيءِ الذي يَقبضُ عليه القابضُ بكَفِّه.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } ؛ ذكرَ اليمينَ للمبالَغةِ في الاقدار ، يعني أنَّهُ يَطويها بقُدرتِهِ كما يطوِي الواحدُ منَّا الشيءَ المقدورَ له طَيُّهُ بيمينِهِ ، قال الأخفَشُ : (مَعْنَاهُ مَطْوِيَّاتٌ فِي قُدْرَتِهِ نَحْوَ قَوْلِهِ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ؛ أَيْ مَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهِ قُدْرَة وَلَيْسَ الْمُلْكُ لِلْيَمِينِ دُونَ الشِّمَالِ). وقد يُذكَرُ اليمينُ بمعنى القوَّة كما قالَ الشاعرُ : إذا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بالْيَمِينِثُم نَزَّهَ نفسَهُ عن شِركهم فقالَ : { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }.

(٠/٠)

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ } ؛ قد ذكَرنا أن النفخةَ نفخَتان في قولِ أكثر المفسِّرين وبينَهما أربعون سَنة ، فالنفخةُ الأُولى هي نفخةُ الصَّعقِ.

والصعقُ : هو الموتُ بصيحةٍ شديدة حالَّةٍ هَائلةٍ ، ومنها الصواعقُ وهي التي تأتِي بشدَّةِ الرَّعدِ ، وعن عبدِالله بن عمر قالَ : " سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنِ الصُّور فَقَالَ : " قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيْهِ فَيُصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرَضِ " أي يَمُوتُونَ من الفزَعِ وشدَّة الصوتِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ مَن شَآءَ اللَّهُ } ؛ يعني الملَكَ الذي ينفخُ في الصُّور ، ثم يُمِيتهُ اللهُ بعدَ ذلك ، وقال الحسنُ : (يَعْنِي جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ وَمَلَكَ الْمُوْتِ). وعن أبي هُريرة رضي الله عنه : " أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَأَلَ جِبْرِيلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ : " مَنِ الَّذِي شَاءَ اللهُ أنْ يَصْعَقَهُمْ ؟ قَالَ : هُمُ الشُّهَدَاءُ مُتَقَلِّدُونَ أسْيَافَهُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ " ".

عن أنسٍ ابن مالك قالَ : " سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنْهُمْ وَقَالَ لَهُمْ : " جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : يَا مَلَكَ الْمَوْتِ خُذْ نَفْسَ إِسْرَافِيلَ ، فَيَأْخُذُهَا ؛ ثُمَّ يَقُولُ : خُذْ نَفْسَ مِيكَائِيلَ ، فَيَأْخُذُهَا ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : يَا مَلَكَ الْمَوْتِ مَنْ بَقِيَ ؟ فَيَقُولُ : سُبْحَانَكَ يَا رَب تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ بَقِيَ جِبْرِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : مُتْ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ ، فَيَمُوتُ ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : يَا جِبْرِيلُ مَنْ بَقِيَ ؟ فَيَقُولُ : تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ بَقِيَ وَجْهُكَ الْبَاقِي الدَّائِمُ ، وَبَقِيَ جِبْرِيلُ الْمَيِّتُ الْفَانِي ، فَيَقُولُ : يَا جِبْرِيلُ مُتْ ، فَيَبْقَى سَاجِداً يَخْفِقُ بجَنَاحَيْهِ فَيَمُوتُ " ".

وقال الضحَّاك : (مَعْنَى قَوْلِهِ : { إِلاَّ مَن شَآءَ اللَّهُ } هُمْ رُضْوَانُ وَالْحُورُ وَمَالِكُ وَالزَّبَانِيَةُ) ، وقالُ قتادة : (اللهُ أعْلَمُ بثَنْيَاهُ). وَقِيْلَ : هم عقاربُ النار وحيَّاتُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى } ؛ يعني نفخةَ البعثِ ، { فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ } ؛ ماذا يقالُ لهم.

(٠/٠)

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا } ؛ وأضاءَتِ الأرضُ يومئذٍ بعدلِ ربها ، فسُمِّيَ العدلُ نُوراً كما سُمِّيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم نُوراً وسُمِّي القرآنُ نوراً. ويقالُ : إن نورَ الأرضِ العدلُ ، كما أنَّ نورَ الدينِ العلمُ ، وقال بعضُهم : يخلقُ اللهُ تعالى يومئذٍ نوراً يُضِيءُ لأهلِ القيامة غيرَ الشمسِ والقمر.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوُضِعَ الْكِتَابُ } ؛ يعني صحائفَ الأعمالِ ، { وَجِيءَ بِالنَّبِيِّيْنَ وَالشُّهَدَآءِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه : (الْمُرَادُ بقَوْلِهِ { وَالشُّهَدَآءِ } هُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ لِلرُّسُلِ بتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ) وَهُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، وقال عطاءُ : (يَعْنِي الْحَفَظَةَ) وقال السديُّ : (يَعْنِي الَّذِينَ اسْتُشْهِدُواْ فِي طَاعَةِ اللهِ).
وقولهُ تعالى : { وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ } ؛ أي قُضِيَ بين الرُّسلِ والأُمم بالعدلِ ، { وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } ؛ أي لا ينقَصُ من حسناتِ أحدٍ ولا يزادُ في سيِّئات أحدٍ. قولهُ : { وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ } ؛ أي أُعطيت كلُّ نفسٍ بَرَّةٍ أو فاجرةٍ جزاءَ ما عمِلَتْ من خيرٍ أو شرٍّ ، { وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ } ؛ وهو أعلمُ بفعلِهم ، لا يحتاجُ إلى كاتبٍ ولا شاهدٍ.

(٠/٠)

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً } ؛ وذلك أنَّهم يُسَاقُونَ إلى جهنَّم فَوْجاً فَوْجاً ، الأوَّلُ فالأولُ ، يُسَاقُ كفارُ كلِّ أُمة على حِدَةٍ ، والزُّمَرُ : جماعاتٌ في تَفْرِقَةٍ بعضُها على إثْرِ بعضٍ ، يُسَاقُونَ سَوْقاً عَنِيفاً ، يُسحَبُونَ على وُجُوهِهم إلى جهنَّم ، { حَتَّى إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا } ؛ عند مجيئِهم ، { وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ } ؛ وهم الزَّبَانِيَةُ : { أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ } ، ويخوفونكم ، { لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَاذَا } ، اليوم ، { قَالُواْ بَلَى } ، أتونا بالرسالة ، { وَلَاكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ } ؛ ولكن وجَبتْ كلمةُ العذاب على الكافرين ، فيقولُ لَهم الزبانيةُ : { قِيلَ ادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ } ؛ ادخُلوا أبوابَ جهنَّم السبعةَ خالِدين فيها. ومعنى قولهِ { وَلَاكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ } هو قَوْلُهُ تَعَالَى : { لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }[هود : ١١٩]. واختلفَ القُراء في قولهِ { فُتِحَتْ } فخفَّفها الكوفيُّون ، وشدَّدها الباقون على التكثيرِ.

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً } ؛ وذلك أنَّ المؤمنين يُنطَلَقُ بهم إلى الجنَّة فَوْجاً فوجاً بالتلطُّفِ والإكرامِ ، { حَتَّى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا } ؛ قال الأخفشُ : (هَذِهِ الْوَاوُ زَائِدَةٌ) وَالْمَعْنَى : فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا حَتَّى تَكُونَ جَوَاباً لِقَوْلِهِ { حَتَّى إِذَا جَآءُوهَا }. وقال الزجَّاجُ : (الْقَوْلُ عِنْدِي أنَّ الْجَوَابَ مَحْذُوفٌ ، تَقْدِيرُهُ : حَتَّى إذا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ خَزَنَتُهَا سَارُوا إِلَى السَّعَادَةِ وَوَصَلُواْ إِلَى مَقْصُودِهِمْ).

وَقِيْلَ : هذه الواوُ واوُ الحالِ تقديرهُ : حتى إذا جاؤُها وَقد فُتحت أبوابُها ، وأدخل الواو ههنا لبيانِ أنَّها قد كانت مفتَّحةً قبل مجيئِهم ، وحذفَها من الآية الأُولى لبيانِ أنَّها قد كانت مُغلقةً قبلَ مجيئهم.

ويقالُ : زيدَتِ الواوُ ههنا لأن أبوابَ الجنَّة ثمانيةٌ وأبوابَ جهنَّم سبعةٌ فزيدت الواوُ فَرْقاً بينهما. وحُكي عن أبي بكرِ بن عيَّاش : (أنَّهَا تُسَمَّى وَاو الثَّمَانِيَةِ) وَذلِكَ أنَّ مِنْ عَادَةِ قُرَيْشٍ أنَّهُمْ يَعُدُّونَ الْعَدَدَ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الثَّمَانِيَةِ ، فَإذا بَلَغُواْ الثَّمَانِيَةَ زَادُوا فيهَا الْ ْوَاوَ ، فَيَقُولُونَ : خَمْسَةٌ سِتَّةٌ سَبْعَةٌ وَثَمَانِيَةٌ ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى{ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ }[الحاقة : ٧] ، وَقَالَ اللهُ{ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ }[التوبة : ١١٢] فَلَمَّا بَلَغَ الثامن{ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ }[التوبة : ١١٢] ، وَقَالَ تَعَالَى{ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ }[الكهف : ٢٢] ، وَقَالَ تَعَالَى{ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً }[التحريم : ٥]). وَقِيْلَ : زيادةُ الواوِ في صفة الجنَّة علامةٌ لزيادةِ رحمةِ الله تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَى قَوْلِهِ { طِبْتُمْ } أيْ طَابَ لَكُمُ الْمُقَامُ) ، وَقِيْلَ : معناهُ ظَفرتُم بصالحِ أعمالكم وكنتم طيِّبين في الدنيا. وَقِيْلَ : طابت لكم الجنَّة فادخلُوها خالِدين. فلما دخَلُوها { وَقَالُواْ الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ } ، أي أنْجَزَنا وعدَهُ ، { وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ } ، وأنزلنا أرضَ الجنَّة ، { نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ } ؛ أي نتَّخذُ فيها من المنازِلِ ما نشاءُ ، لقولِ الله تعالى { فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } ؛ أي نِعمَ ثوابُ العاملين للهِ في الدُّنيا الجنَّةُ.

وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ } ؛ أي مُحَدِّقِينَ حولَ العرشِ مُحِيطِينَ به ، { يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } ؛ إجْلاَلاً لعظَمتهِ ، { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } ؛ الخلائقِ ، { بِالْحَقِّ } ؛ أي بالعدلِ وانتصفَ بعضُهم من بعضٍ ، { وَقِيلَ } ، ويقالُ لهم بعد الفراغِ : { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى ابتدأ خلقَ الأشياءِ بالحمدِ فقالَ : { الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ }[الأنعام : ١] فلمَّا بعثَ الخلقَ واستقرَّ أهلُ الجنَّة في الجنةِ ، وأهلُ النار في النار ، ختمَهُ بقولهِ : { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }.

(٠/٠)

حم (١)

{ حم } ؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " حم ، اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى ، وَهِيَ مِفْتَاحُ خَزَائِنِ رَبكَ " ، وقال ابن عباس : [هُوَ اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ]. وعن عكرمةَ قال : (ألر و حم و ن حُرُوفُ الرَّحْمَنِ مُقَطَّعَةٌ) ، وَقِيْلَ : (أقسمَ اللهُ بحَمَلَةِ " عرشهِ " وَمَلاَئِكَتِهِ لاَ يعذِّبُ أحَداً عَادَ إلَيْهِ يقُوْلُ : لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ مُخْلِصاً مِنْ قَلْبِهِ) ، وقال عطاء الخراسانيُّ : (الْحَاءُ : افْتِتَاحُ أَسْمَاءِ اللهِ : حَلِيمٌ وَحَمِيدٌ وَحَيٌّ وَحَكِيمٌ ، وَالْمِيمُ : افْتِتَاحُ أَسْمَائِهِ : مَلِكٌ وَمَجِيدٌ وَمَنَّانٌ) ، وقال الضحَّاك : (حم قَضَى مَا هُوَ كَائِنٌ).

(٠/٠)

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } ؛ أي هذه تنْزِيلُ الكتاب من الله العزيزِ العليم بخَلقهِ ، وقرأ حم بفتح الميمِ ؛ أي أُتْلُ حَمِيمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ

} ؛ أي غافرِ الذنب لِمَن قالَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ، وهم أولياؤهُ وأهلُ طاعتهِ ، وقابلِ التَّوب من الشِّركِ ، شديدِ العقاب لِمَن ماتَ على الشِّركِ.

والتَّوْبُ : جمعُ التَّوبَةِ ، ويجوزُ أن يكون مَصدراً مِن تَابَ يَتُوبُ تَوباً ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذِي الطَّوْلِ } ؛ أي ذِي الغِنَى عمَّن لا يُوحِّدهُ ولا يقولُ : لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ. وقال الكلبيُّ : (ذُو الْفَضْلِ عَلَى عِبَادِهِ وَالْمَانِّ عَلَيْهِمْ) ، وقال مجاهدُ : (ذُو السَّعَةِ وَالْغِنَى).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ } ؛ أي لا معبودَ للخلقِ سواهُ ، { إِلَيْهِ الْمَصِيرُ } ؛ أي مصيرُ مَن آمَنَ ، ومصيرُ مَن لم يؤمِنْ ، وعن الحسنِ رضي الله عنه : (أنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب رضي الله عنه سَأَلَ عَنْ بَعْضِ إخْوَانِهِ الَّذِينَ كَانُوا بالشَّامِ ، فَقَالَ : مَا فَعَلَ أخِي فُلاَنٌ ؟ وَقَالُوا : ذاكَ أخُو الشَّيْطَانِ يُخَالِطُ أهْلَ الأَشْرَفِيَّةِ وخَالَفَ أصْحَابَهُ. فَقَالَ : إذا خَرَجْتُمْ إلَى الشَّامِ فَآذِنُونِي. فَلَمَّا أرَادُوا الْخُرُوجَ أعْلَمُوهُ ، فَكَتَب : مِنْ عَبْدِاللهِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب أمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إلَى فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ. بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. سَلاَمٌ عَلَيْكَ ؛ فَإنِّي أحْمَدُ إلَيْكَ اللهَ الَّذِي لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ.

أمَّا بَعْدُ : فَإنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ : { حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ... } إلَى قَوْلِهِ { إِلَيْهِ الْمَصِيرُ }. وَالسَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

فَلَمَّا جَاءَهُ الْكِتَابُ قَالُواْ لَهُ : اقْرَأ كِتَابَكَ أيُّهَا الرَّجُلُ ، فَلَمَّا قَرَأ { الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } قَالَ : عَلِيمٌ بمَا أصْنَعُ ، { غَافِرِ الذَّنبِ } إن اسْتَغْفَرْتُ غَفَرَ لِي ، و { وَقَابِلِ التَّوْبِ } إنْ أنَا تُبْتُ لِيَقْبَلَ تَوْبَتِي ، { شَدِيدِ الْعِقَابِ } إنْ لَمْ أفْعَلْ عَاقَبَنِي { ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ }. ثُمَّ قَالَ : صَدَقَ اللهُ وَنَصَحَ عُمَرُ رضي الله عنه ، فَأَقْبَلَ بطَرِيقَةٍ حَسَنَةٍ إلَى أنْ مَاتَ.

فَلَمَّا بَلَغَ عُمَرَ أمْرُهُ ، قَالَ : هَكَذا فَاصْنَعُوا ؛ إذا رَأيْتُمْ أخَاكُمْ نَزَلَ فَشَدِّدُوهُ وَوَفِّقُوهُ ، وَادْعُوا اللهَ لَهُ أنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ ، وَلاَ تَكُونُوا أعْوَاناً لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ).

(٠/٠)

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ أي ما يُخاصِمُ في آياتِ الله لتكذيبها والطَّعنِ فيها والمراءِ عليها إلاَّ الذين كفَروا ، { فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ } ؛ بالتِّجارَاتِ وسلامتهم في تصرُّفاتِهم بعدَ كُفرِهم ، فإنَّ عاقبةَ أمرِهم العذابُ كعاقبةِ مَن قبلهم من الكفَّار. وَقِيْلَ : معناهُ : فلا يَغْرُرْكَ ذهابُهم ومجيئُهم في الأسفار بالتِّجارات ، فإنَّهم لَيسُوا على شيءٍ.

(٠/٠)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ } ؛ أي قبلَ قَومِكَ ، { قَوْمُ نُوحٍ } ؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ } ؛ وهم الذين تحزَّبُوا على أنبيائِهم بالتكذيب نحوُ عادٍ وثَمود ؛ أي كذبُوا رُسلَهم كما كذبك قومُكَ ، { وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ } ؛ فيقتلوهُ ، { وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ } ؛ أي وخاصَمُوا الرُّسلَ بالباطلِ ليُبطِلُوا به الحقَّ الذي جاءَت به الرسلُ ، { فَأَخَذْتُهُمْ } ، بعاقبةِ الاستئصالِ ، { فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } ؛ لَهم.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ أي مثلَ ما حقَّ على الأُمَمِ المكذِّبة حقَّت كلمةُ ربكَ بالعذاب على الذين كفَرُوا من قومِكَ ، { أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ } ، في الآخرةِ.

(٠/٠)

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ } ؛ يعني حَمَلَةَ العرشِ والطائفِين به ، وهم الكرُّوبيُّونَ

وهم سادة الملائكة ، { يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ } ؛ بأنه واحدٌ لا شريكَ له ، { وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ } ، ويقولون : { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً } ؛ أي وسِعَتْ رحمتُكَ كلَّ شيءٍ ، { فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ } ؛ عن الشِّركِ والمعصيةِ ، { وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ } ؛ الطريقَ الذي دعوتَهم إليه ، { وَقِهِمْ } ، وادفَعْ عنهم ، { عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ } ؛ أي ربَّنا وأدخِلهُم بساتينَ إقامةٍ ، { الَّتِي وَعَدْتَّهُمْ } ؛ في الكتُب على ألسِنَةِ الرُّسلِ ، وأدخِلْ معهم ، { وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ } ؛ ونسائِهم وأولادهم ، { إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ } ؛ في مُلكِكَ وسُلطانِكَ ، { الْحَكِيمُ } ؛ في أمْرِكَ وقضائِكَ ، { وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ } ؛ وادفَعْ عنهم عقوبةَ السَّيئاتِ ، { وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ } ومَن يدفَعْ عنه عقوبةَ السيئاتِ ، { فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } ؛ أي النجاةُ الوافرة.

وانتصبَ قولهُ { رَّحْمَةً وَعِلْماً } على التمييزِ ، قال ابنُ عبَّاس : (حَمَلَةُ الْعَرْشِ مَا بَيْنَ كَعْب أحَدِهِمْ إِلَى أَسْفَلِ قَدَمِهِ مَسِيرَةُ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ ، وَمُسْتَقَرُّ أَرْجُلِهِمْ فِي الأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَى ، وَرُؤُوسُهُمْ تَحْتَ الْعَرْشِ ، وَهُمْ خُشُوعٌ لاَ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ ، وَهُمْ أَشَدُّ خَوْفاً مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ).

وعن الضحَّاك قال : (لَمَّا خَلَقَ اللهُ حَمَلَةَ الْعَرْشِ قَالَ لَهُمْ : احْمِلُوا عَرْشِي ، وَلَمْ يُطِيقُوا! فَخَلَقَ مَعَ كُلِّ مَلَكٍ مِنَ الأَعْوَانِ مِثْلَ جُنُودِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ ، وَقَالَ لَهُمْ : احْمِلُوا عَرْشِي ، فَلَمْ يُطِيقُوا! فَخَلَقَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الأَعْوَانِ مِثْلَ جُنُودِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ وَأَرْضِينَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ ، وَمِثْلَ مَنْ فِي الأَرْضِينَ مِنَ الْخَلْقِ ، وَقَالَ لَهُم : احْمِلُوا عَرْشِي ، فَلَمْ يُطِيقُواْ! فَخَلَقَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِثْلَ جُنُودِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ وَجُنُودِ سَبْعِ أَرْضِينَ وَعَدَدَ مَا فِي الرَّمْلِ مِنَ الْحَصَى وَالثَّرَى وَقَالَ : احْمِلُوا عَرْشِي ، فَلَمْ يُطِيقُوا! فَقَالَ : قُولُوا : لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ، فَلَمَّا قَالُوهَا حَمَلُواْ الْعَرْشَ) ، وقال صلى الله عليه وسلم : " أُذِنَ لِي أنْ أتَحَدَّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ مَا بَيْنَ شَحْمَتَي أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعَمِائَةِ عَامٍ ".

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ } ؛ وذلكَ أن الكفارَ لَمَّا دخَلُوا النارَ مَقَتُوا أنفُسَهم ، ومَقَتَ بعضُهم بعضاً لاشتغالِهم في الدُّنيا بما قادَهم إلى النار ، فيُنادِيهم مُنَادٍ : { لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ } أي مَقْتُ اللهِ إيَّاكم في الدُّنيا { إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ } أكبرُ مِن مَقْتِكُم أنفُسَكم اليومَ.

(٠/٠)

قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ } ؛ قالَ بعضُهم : معناهُ : كُنَّا نُطَفاً في أصلاب آبائنا أمْوَاتاً فخَلقتَ فينا الحياةَ ، ثم أمَتَّنا بعد ذلك عند انتهاءِ آجالِنا ثُم أحيَيتَنَا للبعثِ ، وهذا كقولهِ تعالى{ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ }[البقرة : ٢٨]. قالوا هكذا لأنَّهم كانوا في الدُّنيا فكذبوا في البعثِ ، فاعترَفُوا في النار بما كذبوا بهِ ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا } ؛ أي بالتَّكذيب.

وقال بعضُهم : أرادَ بالموتِ الأُولى التي تكون عند قبضِ الأرواحِ ، وبالموتِ الثانية التي تكون بعدَ الإحياءِ في القبرِ للسُّؤال ؛ لأنَّهم أُميتُوا في الدُّنيا ثم أُحْيُوا في قبورهم فسُئِلُوا ، ثم أُميتُوا في قبورهم ، ثم أُحْيُوا في الآخرةِ للبعث ، فيكون المرادُ بالإحياءِ الأَول الإحياءُ في القبرِ ، وبالإحياءِ الثاني الإحياءُ للبعثِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا } أي بإنعَامِكَ علينا ونفوذ قضائِكَ فينا وتكذيبنا في الدُّنيا ، { فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن } ؛ النار ، من ، { سَبِيلٍ } ، طريقٍ فنُؤمِنَ بكَ ونرجِعَ إلى طاعتك؟

فيجابُون : ليس إلى خروجٍ مِن سبيلٍ ، يقالُ لَهم : { ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ } ؛ أي ذلك العذابُ في النار والْمَقْتُ بأنَّكم إذا قيلَ لكم في الدُّنيا : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، أنْكَرتُم وكفرتُم وقلتُم أجَعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً ، { وَإِن يُشْرَكْ بِهِ } ؛ باللهِ ، { تُؤْمِنُواْ } ، صدَّقتُم ، { فَالْحُكْمُ للَّهِ الْعَلِيِّ } ؛ في سُلطانهِ ، { الْكَبِيرِ } ؛ في عظَمتهِ لا يُرَدُّ حكمهُ.

(٠/٠)

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥)

وقولهُ تعالى : { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ } ؛ أي دلائلَ توحيدهِ ومصنوعاتهِ التي تدلُّ على قدرته من السَّماء والأرضِ ، والشمسِ والقمرِ ، والنجومِ والسَّحاب وغيرِ ذلك ، { وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ رِزْقاً } ؛ يعني المطرَ الذي يسببُ الأرزاقَ ، { وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ } ؛ أي ما يتَّعِظُ بهذه المصنوعاتِ. وَقِيْلَ :

معناهُ : وما يتَّعِظُ بالقرآن إلاَّ من يرجعُ إلى دلائلِ الله فيتدبَّرها.
ثم أمَرَ المؤمنين بتوحيدهِ فقالَ : { فَادْعُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } ؛ أي مخلصين له الطاعةَ موحِّدين ، { وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } ؛ منكُم ذلكَ.
ثم عظَّمَ تعالى نفسَهُ فقالَ : { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ } ؛ أي رافعُ درجاتِكم ، والرفيعُ بمعنى الرافعِ ، والمعنى : أنه يرفعُ درجات الأنبياءِ والأولياء في الجنَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذُو الْعَرْشِ } أي خالِقهُ ومالِكهُ ، { يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ } ، أي ينزل الوحي ، { عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ } ؛ أي على مَن يختصُّ بالنبوَّة والرسالةِ ، { لِيُنذِرَ } ؛ ذلك النبيُّ الموحَى إليه ، { يَوْمَ التَّلاَقِ } ؛ أي يومَ القيامةِ ، وسُمي يومَ التَّلاَقِ ؛ لأنه يلتقِي فيه أهلُ السموات والأرضِ ، والمؤمنون والكافرونَ والظالمون والمظلُومون ، ويلتقِي المرءُ فيه بعملهِ ، وقرأ الحسنُ : ({ لِتُنْذِرَ } بالتاء (يَا مُحَمَّدُ يَوْمَ التَّلاَقِ) أي لِتُخَوِّفَ فِيْهِ) ، وقرأ العامةُ بالياء ، أي ليُنذِرَ اللهُ.

(٠/٠)

يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ هُم بَارِزُونَ } ؛ أي يومَ هم خارجون من مواضِعهم من الأرضِ والبحَار وحواصلِ الطَّير وبطُونِ السِّباعِ ، { لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ } ؛ ولاَ مِن أعمالِهم ، { شَيْءٌ } ؛ ومحلُّه رُفع بالابتداءِ ، و { بَارِزُونَ } خبرهُ.
ويقولُ اللهُ في ذلك اليومِ : { لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ } ؛ فيقولُ الخلقُ كلُّهم : { لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } ؛ وقال الحسنُ : (هُوَ السَّائِلُ وَالْمُجِيبُ ؛ لأَنَّهُ يَقُولُ ذلِكَ حِينَ لاَ أَحَدَ يُجِيبُهُ ، فَيُجِيبُ نَفْسَهُ).
وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الْحَمْدُ للهِ الّذي تَصَرَّفَ بالْقُدْرَةِ وَقَهَرَ الْعِبَادَ بالْمَوْتِ ، نَظَرَ اللهُ إلَيْهِ ، وَمَنْ يَنْظُرْ إلَيْهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ كُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي الأَرْضِ ".

(٠/٠)

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } ؛ أي تُجزَى كلُّ نفسٍ بعمَلِها ، الْمُحسِنُ بإحسانِهِ ، والمسِيءُ بإساءَتِهِ ، { لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ } ؛ من أحدٍ إلى أحدٍ ، { إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } ؛ يُحاسِبُهم جميعاً في ساعةٍ واحدة ، يظنُّ كلُّ واحدٍ المجابُ دون غيرِهِ.

(٠/٠)

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأَزِفَةِ } ؛ أي حَذِّرهُم يومَ القيامةِ ؛ والمعنى : يا مُحَمَّدُ أَنْذِرْ أهلَ مكَّة يومَ الآزِفَةِ ، يعني القيامةَ ، سُميت القيامةُ آزِفَةً مِن الأَزَفِ : وهو الأَمْرُ إذا قَرُبَ ، والقيامةُ آزِفةٌ لِسُرعَةِ مَجِيئِهَا. قال الزجَّاجُ : (قِيْلَ : لَهَا : آزِفَةٌ لأَنَّهَا قَرِيبَةٌ وَإن اسْتَبْعَدَهَا النَّاسُ ، وَكُلُّ آتٍ فَهُوَ قَرِيبٌ) ، { إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ } ؛ أي تزولُ القلوبُ من مواضعِها من الخوفِ ، فتشخَصُ صدورُهم حتى يبلغَ حاجِزَهم في الحلُوقِ ، فلا هي تعودُ إلى أماكنِها ولا هي تخرجُ من أفواهِهم فيموتُوا فيستريحوا. وذلك أنَّ القلبَ بين فَلَقَتَي الرِّئة ، فإذا انتفخَتِ الرِّئَةُ عند الفزَعِ رفعَتِ القلبَ حتى يبلُغَ الحنجرةَ ، فيلصقُ بالحنجرةِ فلا يقدرُ صاحبه على أن يرُدَّهُ إلى مكانهِ ، ولا على أن يلفُظَ به فيستريح. ونظيرةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ }[الأحزاب : ١٠] ، وقولهُ تعالى : { فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ }[الواقعة : ٨٣] وقولهُ تعالى{ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ }[إبراهيم : ٤٣] وقولهُ تعالى : { إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ }[القيامة : ٢٦].

وقولهُ تعالى : { كَاظِمِينَ } أي مَغمُومِينَ مكرُوبينَ مُمتَلِئين غَمّاً وخَوفاً وحُزناً ، يعني أصحابَ القُلوب يتردَّدُ حُزْنُهم وحسراتُهم في أجوافِهم ، والكَاظِمُ : هو الممتلِيءُ أسَفاً وغَيظاً ، والكَظْمُ تردُّدُ الغيظِ والحزنِ والخوف في القلب حتى يضيقَ به ، نصبَ (كَاظِمِينَ) على الحالِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ } ؛ أي ما لَهم مِن قريبٍ ينفعُهم ولا شفيعٍ يطاعُ الشفيع فيهم فتُقبَلَ شفاعتهُ.

(٠/٠)

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩)

وقولهُ تعالى : { يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأَعْيُنِ } ؛ أي خِيانَتها وهي مُسَارَقَةُ النظرِ إلى ما لا يحلُّ ، قال ابنُ عبَّاس : (خَائِنَةُ الأَعْيُنِ : هُوَ الرَّجُلُ يَكُونُ جَالِساً مَعَ الْقَوْمِ ، فَتَمُرُّ الْمَرْأَةُ فَيُسَارِقُهُمُ النَّظَرَ إِلَيْهَا). وقال قتادةُ : (هِيَ هَمْزُهُ بعَيْنِهِ وَإِغْمَاضُهُ فِيمَا لاَ يُحِبُّ اللهُ). ويجوزُ أن يكون المرادُ به : يعلَمُ العينَ الخائنةَ ؛ أي يُجَازي بخائنةِ الأعيُن ، فكيف بما فوقَها ، كما قالَ في آيةٍ أُخرى{ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولائِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً }[الاسراء : ٣٦].

وفي الحديثِ : أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه : " لاَ تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ ، فَإِنَّ لَكَ الأُوْلَى وَعَلَيْكَ الثَّانِيَةَ " ، يعني بأنَّ الأُولى إذا وقعَ نظرٌ إلى موضعٍ لا يجوزُ له النظرُ إليه لا عن تعَمُّد منه ، فإنه لا يكون إثماً في ذلك ، وإنما يأثَمُ إذا عادَ بالنظرِ ثانيةً. وقولهُ تعالى : { وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ } ؛ أي ويعلمُ ما تُضمِرُ الصدورُ عند خَائنةِ الأعيُن ، ويعلمُ ما تُسِرُّ القلوبُ من المعصيةِ.

(٠/٠)

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ } ؛ أي يحكمُ بالقسطِ والعدل ، لا يمنعُ أحَداً من ثواب عمَلهِ ، ولا يعاقبهُ على ذنبٍ لا يكتسبهُ ، بل يجزِي بالحسَنةِ والسيئة ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ } ؛ معناهُ : والذين تدعُونَ من دونِ الله من الأصنامِ لا ينفَعُون مَن أطاعَهم ، ولا يضرُّون مَن عصَاهم ولا يُجازون أحداً ؛ لأنَّهم لا يعلَمُون ولا يقدِرُون.

قرأ نافعُ (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ) بالتاءِ ، وقرأ الباقون بالياء ، { إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ } ؛ لِمَقَالَتِهم ، { الْبَصِيرُ } ؛ بهم وأعمالِهم.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ } ؛ الآيةُ ظاهرة المعنى. وقولهُ تعالى : { وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ } أي ما كان لهم من عذاب الله من واقٍ يقي العذابَ عنهم.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)

وقولهُ تعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا } ؛ يعني الآياتِ التسع ، { وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } ؛ أي حجَّة ظاهرةٍ ، { إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُواْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ } ؛ أي كثيرُ الكذب ، وخُصَّ فرعونُ وهامان وقارون بالكذب ؛ لأنَّهم كانوا همُ المتبُوعِين ، وفي ذكرِ المتبوعين ذكرُ التابعين.

(٠/٠)

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا جَآءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ اقْتُلُواْ أَبْنَآءَ الَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ وَاسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ } ؛ أي استَبقُوا النساءَ للخدمةِ ، وذلك أنَّ فرعون كان قد أُخبرَ أنه يولَدُ مِن بني إسرائيلَ مولودٌ يذهَبُ ملكهُ على يديهِ ، فأمَرَ بقتلِ أبنائهم واستبقاءِ نسائهم ، فلمَّا جاءَهم مُوسَى عليه السلام بالحقِّ ، أمَرَ بإعادةِ ذلك القتلِ عليهم كَيلاَ يبلُغَ الأبناءُ فيُعِينُوهُ عليهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ } ؛ أي يذهبُ كَيدُهم باطلاً ، ويحيقُ بهم ما كانوا يَكِيدُونَ.

(٠/٠)

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى } ؛ وذلك أنَّ قومَ فرعون قالوا له : أَرْجِئْهُ وأخاهُ ولا تقتُلهما ، فإنَّكَ إنْ قَتَلتَهُما قبلَ ظُهور حُجَّتنا عليهما وقعَتْ للناسِ الشُّبهَةُ في أنَّهما كانا على الحقِّ ، فقالَ فرعونُ : دَعُونِي أقْتُلْ موسى ، { وَلْيَدْعُ رَبَّهُ } ؛ حتى يدفعَ ذلك القتلَ عنه.
ثم بيَّن لأيِّ معنى يقتلهُ فقال : { إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ } ؛ يعني يبدِّلَ عبادتكم إيَّايَ ، { أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ } ؛ وأرادَ ظُهورَ الهدَى وتغيُّرَ أحكَامِ فرعون فجعلَ ذلك فساداً.
قرأ الكوفيُّون ويعقوب : (أوْ أنْ يُظْهِرَ) بالألفِ ، وقرأ نافعُ وأبو عمرو : (وَيُظْهِرَ) بضمِّ الياء وكسرِ الهاء ، ونصب (الْفَسَادَ) ، وقرأ الباقون بفتحِ الياءِ والهاء ورفعِ (الْفَسَادُ) ، واختارَ أبو عُبيد قراءةَ نافعٍ وأبو عمرٍو ، ولأنَّها أشبهُ بما قبلَها لإسنادِ الفعل إلى موسى وعطفهِ على بدَلِه.

(٠/٠)

وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ } ؛ أي لَمَّا توعَّدَ موسى بالقتلِ قال موسَى : إنِّي عُذْتُ برَبي وربكم ، { مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ } ، مُتَعَظِّمٍ عن الإيمانِ وعن قَبول الحقِّ لا يصدِّقُ بيومِ القيامة ، استعاذ موسَى بالله مِمَّن أرادَ به سُوءً.

(٠/٠)

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ } ؛ اختلَفُوا في هذا المؤمنِ ، فقال بعضُهم : كان قِبْطِيّاً من آلِ فرعون ، غيرَ إنه كان آمَنَ بموسى وكان يكتمُ إيمانه من فرعون وقومه خَوفاً على نفسهِ.

وقال مقاتلُ والسديُّ : (كَانَ ابْنَ عَمِّ فِرْعَوْنَ) ، وَهُوَ الَّذِي حَكَى اللهُ عَنْهُ{ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى }[القصص : ٢٠] ، وهذا هو الأشير وكان اسمهُ حِزقِيلُ ، وَقِيْلَ : حِزْبِيلُ. وقال بعضُهم كان إسرَائِيلِيّاً ، وتقديرُ الآية : وقال رجلٌ مُؤمِنٌ يكتمُ إيمانهِ مِن آلِ فرعون.

وقولهُ تعالى : { أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ } أي لأَنْ يقولَ رَبِيَ اللهُ ، وقد جاءَكم بالبيِّنات من ربكم بما يدلُّ على صدقهِ من المعجزات ، { وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ } ؛ لا يضرُّكم ذلك ، { وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ } ؛ أي يُصِبكُمْ كلُّ الذي يَعِدُكم من العذاب إنْ قتلتموهُ وهو صادقٌ.

والمرادُ بالبعضِ الكلَّ في هذه الآيةِ ، وقال الليثُ : (بَعْضُ هَهُنَا زَائِدَةٌ ؛ أيْ يُصِبْكُمُ الّذِي يَعِدُكُمْ) ، وقال أهلُ المعاني : هذا على الْمُظَاهَرَةِ في الحِجَاجِ ، كأنهُ قالَ لَهم : أقلُّ ما يكون في صِدقهِ أنْ يُصِبكُم بعضُ الذي يَعِدُكم وفي بعضِ ذلك هَلاكُكم) ، فذكرَ البعضَ ليُوجِبَ الكلَّ ، ويدلُّ على ذكر البعضِ بمعنى الكلِّ ، قال لبيد : تَرَّاكُ أمْكِنَةٍ إذا لَمْ أرْضَهَا أوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَاأراد كلَّ النُّفُوسِ ، ومثلُ قولِ الآخر.قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُوقولهُ تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ } ؛ أي لا يهديهِ في الآخرةِ إلى جنَّتهِ وثوابهِ. والمسرِفُ هو المتجاوزُ عن الحدِّ في المعصيةِ.

(٠/٠)

يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ } ؛ أي قالَ لهم الرجلُ المؤمِنُ على وجهِ النَّصيحةِ لَهم : { ياقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ } أي غَالبينَ مُستَعلِينَ فِي أرضِ مصرَ ، { فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَآءَنَا } ؛ أي فمَن يَمنَعُنا من عذاب الله إنْ جاءَنا ، { قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلاَّ مَآ أَرَى } ؛ أي ما أُشِيرُ عليكم إلاَّ ما أراهُ حقّاً من الصواب في أمرِ مُوسَى ، { وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ } ؛ أي ما أُعَرِّفُكم إلاَّ طريقَ الهدى.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِي آمَنَ ياقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ } ؛ معناهُ : وقالَ لَهم الرجلُ المؤمِنُ : إنِّي أخافُ عليكم في قَتلهِ وتركِ الإيمان بهِ أنْ ينْزِلَ بكُم من العذاب ، { مِثْلَ دَأْبِ } ؛ مِثلَما نزلَ بالأُمَمِ الماضيةِ قبلَكُم حين كذبُوا رُسُلَهم ، { قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ }. وقوله تعالى : { وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ } ؛ أي لا يُعاقِبُ أحداً بلا جُرمٍ.

(٠/٠)

وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَياقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ } ؛ يعني يومَ القيامةِ يُنَادَى فيه كلُّ أُناسٍ بإمَامِهم ، وينادي فيه أهلُ النار أهلَ الجنة ، وأهلُ الجنة أهلَ النار ، وينادَى فيه بسعادةِ السُّعدَاءِ وشقاوةِ الأشقياءِ ، وأصلهُ : يومَ التَّنَادِي بإثباتِ الياء كما في التَّناجِي والتَّقَاضِي ، إلاّ أنَّ الياءَ حُذفت منه كما حُذف مِن قولهِ تعالى{ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ }[القمر : ٦] وشبهِ ذلك.

وَقِيْلَ : سُمِّي يومُ التَّنادِي لأنَّ الكفَّارَ يُنادُونَ فيه على أنفُسِهم بالويلِ والثُّبور ، كما قالَ تعالى : { لاَّ تَدْعُواْ الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُواْ ثُبُوراً كَثِيراً }[الفرقان : ١٤] ، وَقِيْلَ في معنى ذلك : أنه يُنادِي المنادي ألاَ أنَّ فُلان بن فلان سَعِدَ سعادةً لا شقاوةَ بعدَها أبداً ، ويُنادِي : إلا إنَّ فلان بنَ فلان شَقِيَ شقاوةً لا سعادةَ بعدَها أبداً.

وقرأ الحسنُ : (يَوْمَ التَّنَادِي) بإثباتِ الياء على الأصل. وقرأ ابنُ عبَّاس : (يَوْمَ التَّنَادِّي) بتشديدِ الدال على معنى يوم التنافُرِ ، وذلك إذا هرَبُوا فنَدُّوا في الأرضِ كما يَنُدُّ الإبلُ إذا شرَدَتْ على أصحابها.

قال الضحاك : (إذا سَمِعُوا بزَفِيرِ النَّار نَادَوا هَرَباً ، فَلاَ يَأْتُوهُ قِطْراً مِنَ الأَقْطَار إلاَّ وَجَدُوا مَلاَئِكَةً صُفُوفاً ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانُواْ فِيْهِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى { يَوْمَ التَّنَادِ } ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُواْ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ }[الرحمن : ٣٣].

(٠/٠)

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)

وقولهُ تَعَالَى : { يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ } ؛ أي منصَرِفين عن موقفِ الحساب إلى النار ، { مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ } ؛ أي مَانِعٍ يَمْنَعُكم من عذابهِ ، { وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ }.

(٠/٠)

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ } ؛ أي جاءَكم يوسفُ بن يعقوبَ مِن قَبْلِ موسى بالدَّلاَلاتِ ظاهرةً على وحدانيّةِ اللهِ تعالى{ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ }[يوسف : ٣٩]. وَقِيْلَ : معنى قوله { مِن قَبْلُ } أي من قَبلِ الْمُؤمِنِ.
وقولهُ تعالى : { فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُمْ بِهِ } ؛ أي في شَكٍّ من عبادةِ الله وحدَهُ ، { حَتَّى إِذَا هَلَكَ } ، حتى إذا ماتَ ، { قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً } ؛ يأمُرنا وينهَانا ، { كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ } ؛ هكذا يُهلِكُ اللهُ مَن هو متجاوزٌ عن الحدِّ ، { مُّرْتَابٌ } ؛ أي شَاكٌّ في توحيدِ الله وصدقِ أنبيائه.

(٠/٠)

الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ } ؛ قال الزجَّاجُ : (هَذا تَفْسِيرُ الْمُسْرِفِ الْمُرْتَاب) على معنى هُم الذين يُجادِلُونَ في آياتِ الله بغيرِ سُلطانٍ بالإبطالِ والتكذيب والطَّعنِ بغير حُجَّة أتَتْهُم ، { كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ أي عَظُمَ جدالُهم بُغْضاً وسُخْطاً عندَ الله وعند

الذين آمنوا ، { كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ } ؛ أي هكذا يَختمُ اللهُ بالكفرِ ، { عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ } ؛ عن الإيمانِ ، { جَبَّارٍ } ؛ للناسِ على " ما " يُريد.
قال ابنُ عبَّاس : (يَخْتُمُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يَسْمَعُونَ الْهُدَى وَلاَ يَعْقِلُونَ الرَّشَادَ) وقُرئ (عَلَى كُلِّ قَلْبٍ) بالتنوينِ ، وقال الزجاجُ : (الْوَجْهُ الإِضَافَةُ لأَنَّ الْمُتَكَبرَ هُوَ الإِنْسَانُ).

(٠/٠)

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ فَرْعَوْنُ ياهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً } ؛ أي قالَ لوزيرِهِ هامان : ابْنِ لِي قَصراً مَنِيفاً مشَّيداً بالآجُرِّ ، قالَ في موضعٍ آخرَ : { فَأَوْقِدْ لِي ياهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً }[القصص : ٣٨] وكانَ هامانُ هو أوَّلَ مَن استعملَ الآجُرَّ لبناءِ الصَّرحِ ، ولكن كُرِهَ بناءُ القبور بالآجُرِّ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ } ؛ الطريقَ للسَّموات ، والسَّبَبُ في الحقيقةِ : كُلُّ ما يُوصِلُكَ إلى الشيءِ ، ولذلك سُمي الجبلُ سَبَباً. وقال بعضُهم : أسبابُ السَّموات طَبَقَاتُهَا.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَاهِ مُوسَى } ؛ ظنَّ فرعون بجهلهِ أنَّ إلهَ موسى مما يرقى إليه ، قوله تعالى : { وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً } ، أي إني لأظن موسى كَاذِباً فيما يقولُ إنَّ له ربّاً في السَّماء ، ولما قالَ موسى : ربُّ السَّمواتِ ، فظنَّ فرعون بجهلهِ واعتقاده الباطل أنه لَمَّا لَم يُرَ في الأرض أنه في السماء ، فرَامَ الصعودَ إلى السَّماء لرؤيةِ إله موسى. وقيل : معناهُ : وإني لأظنُّ موسى كَاذباً فيما يقولُ أنَّ له ربّاً غيري أرسلَهُ إلينا.
وقرأ الأعرجُ (فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى) بنصب العين على جواب (لعَلِّي) بالفاء على معنى إنِّي إذا بلغتُ اطَّلَعتُ ، وقرأهُ العامة (فَأَطَّلِعُ) عطفاً على قولهِ تعالى : { وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ } ؛ أي كذا حُسِّنَ له قُبْحُ عملهِ ، زَيَّنَ له الشيطانُ جهلَهُ ، ومَن قرأ (زَيَّنَ) بفتح الزاي على أنَّ المعاصي يدعُو بعضُها إلى بعضٍ.
وقولهُ تعالى : { وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ } ؛ أي صدَّ غيرَهُ عن الهدى ، ويحتملُ أنه صدَّ عن السبيلِ بنفسه ، و { صُدَّ } بضم الصاد أي مُنِعَ عن سبيلِ الحقِّ ، { وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ } ؛ أي في خَسَارٍ وهلاكٍ.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِي آمَنَ ياقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ } ؛ أي قال الرجلُ المؤمن من آلِ فرعون : يا قومِ اتَّبعوني على دِيني أحملكُم على طريقِ السَّداد والهدى ، { ياقَوْمِ إِنَّمَا هَاذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ } ؛ أي مشقَّةٌ يسيرةٌ تنقطعُ ، { وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ } ؛ فلا تزولُ أي هي المحِلُّ الذي يقعُ فيه الاستقرارُ.

(٠/٠)

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)

قولهُ : { مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً } ، يعني الشِّرك ، { فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا } ؛ فلا يُجزى إلاَّ مثلَها في العِظَمِ ، معنى النار ، { وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً } ؛ أي طاعةً ، { مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ } ؛ مخلصٌ ، قال ابنُ عبَّاس : (يَعْنِي قَوْلَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) { فَأُوْلَائِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ } ؛ أي بما لا يُعرَفُ له مقدارٌ.

(٠/٠)

وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَياقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ } ؛ أي قال لَهم الرجل المؤمنُ : يا قومِ مَا لِي أدعُوكم إلى سبب النَّجاةِ ، { وَتَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّه } ، وتدعونَني إلى عملِ أهلِ النَّار وهو

الشِّركُ. وقولهُ تعالى : { وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ } ؛ أي من لا أعرفُ له ربوبيَّته ، { وَأَنَاْ أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ } ؛ أي الغالب المنتَقِم ممن عصاهُ ، { الْغَفَّارِ } ؛ لِمَن تابَ وآمَنَ.

(٠/٠)

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ } ؛ يعني قوله { لاَ جَرَمَ } أي حَقّاً أنَّ ما تدعونَني إليه من المعبودِين دون الله ليس له دعوةٌ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ ، قال السديُّ : (مَعْنَاهُ : لاَ يَسْتَجِيبُ لأَحَدٍ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ) ، والتقديرُ : ليس له استجابةُ دعوةٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَّ مَرَدَّنآ إِلَى اللَّهِ } ؛ أي وإنَّ مَرجِعَنا إليه في الآخرةِ ، يفصلُ بين الْمُحِقِّ والْمُبْطِلِ ، { وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ } ؛ أي وإنَّ المتجاوزين عن الحدِّ في الكُفرِ وسَفكِ الدماء بغيرِ الحقِّ ، { هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ }.

(٠/٠)

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ } ؛ أي فستذكُرون هذا الذي أقولُ لكم في الدُّنيا من النَّصيحة إذا نزلَ بكم العذابُ في الآخرةِ ، في حين لا ينفعُكم الذِّكرُ عليه ، { وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ } ؛ أي وأترُكُ أمرَ نفسي إلى اللهِ فأَثِقُ به ولا أشتَغِلُ بكم ، { إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } ؛ أي بأوليائِهِ وأعدائه.

(٠/٠)

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَوقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ } ؛ وذلك أنَّ فرعون أرادَ أن يَقتُلَهُ فهربَ منهم ، فلم يقدِرُوا عليه ، ودفعَ اللهُ عنه غَائِلَةَ مَكرِهم ، { وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ } ؛ أي نزلَ بفرعون وقومه أشَدُّ العذاب ، قال الكلبيُّ : (غَرِقُوا في الْبَحْرِ وَدَخَلُواْ النَّارَ) والمعنى : وحاقَ بآلِ فرعون سوءُ العذاب ، في الدُّنيا الغرقُ ، وفي الآخرةِ النارُ ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً } ؛ ارتفاعُ (النارُ) على البدلِ من { سُوءُ الْعَذَابِ }.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً } أي صَباحاً ومسَاءً ، يقالُ لَهم : يا آلَ فرعون هذهِ منازلُكم ، توبيخاً ونقمةً ، قال ابنُ مسعود : (إنَّ أرْوَاحَ آلِ فِرْعَوْنَ فِي أجْوَافِ طَيْرٍ سُودٍ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّار كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ) ، وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " إنَّ أحَدَكُمْ إذا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ، إنْ كَانَ مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ " أهْلِ " الْجَنَّةِ ، وَإنْ كَانَ مِنْ أهْلِ النَّار فَمِنْ " أهْلِ " النَّار ، يُقَالُ : هَذا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ".

وقولهُ تعالى : { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُواْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } قرأ نافعُ والكوفيُّون بقطعِ الألفِ وكسرِ الخاء ؛ أي يقالُ للملائكةِ : أدْخِلُوا آلَ فرعون أشدَّ العذاب ، وهو الدَّرْكُ الأسفلُ من النار ، وقرأ الباقون بضَمِّ الخاء ووصلِ الألف على الأمرِ لهم بالدخول.

(٠/٠)

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ } ؛ أي واذْكُرْ يا مُحَمَّدُ لقومِكَ : إذ يختصِمُ أهلُ النار في النار ، وباقي الآية مفسَّرٌ في سورةِ إبراهيمَ عليه السلام.

(٠/٠)

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)

وقولهُ تعالى : { قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ } ؛ أي إنا نحنُ وأنتم قد استَوَينا في العذاب ، { إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ } ؛ أي قضَى بهذا علينا وعليكم وحَكَمَ أنْ لا يتحملَ أحدٌ عذابَ أحدٍ.
فلما رأوا شدَّة العذاب ، { وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّار } ، قالوا ، { لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَاب } ؛ أي يُهَوِّنْ عنَّا العذابَ قدر يومٍ من أيَّام الدُّنيا ، { قَالُواْ } ، فيقول الزبانية : { أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } ؛ أي بالدَّلالاتِ الظاهرةِ على وحدانيَّة اللهِ ، { قَالُواْ بَلَى } ، فيقولون : بلَى قد أتَتْنا الرسُل ، { قَالُوا } ، فتقولُ لَهم الزبانيةُ : { فَادْعُواْ } ، أنتم فإنَّ اللهَ تعالى لم يأْذنْ لنا في الدُّنيا ، { وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ } ؛ أي في ضياعٍ لا ينفعُهم.

(٠/٠)

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ؛ أي إنا لَنُعِينُ الرسُلَ والمؤمنين على أعدائِهم في الدُّنيا بالاستعلاءِ عليهم بالحجَّة وبالغَلبةِ عليهم في المحارَبةِ ، وَنُعِينُهم ، { وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ } ؛ بإعلاءِ كلِمَتهم وإظهار منْزِلتهم ، والمعنى : ويومَ القيامةِ تقومُ الحفَظَةُ من الملائكةِ يشهدون للرُّسُلِ بالتبليغِ ، وعلى الكفَّار بالتكذيب.
وواحدُ الأشهَادِ : شَاهِدٌ ، مثل صَاحِبٍ وأصحابٍ ، وطائر وأطيَارٍ ، والمرادُ من الأشهادِ الأنبياءُ والملائكةُ والمؤمنونَ والجوارحُ والمكانُ والزمانُ ، يشهدون بالحقِّ لأَهلهِ ، وعلى المبطلِ بفعلهِ ، { يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ } ؛ أي إن اعتذرُوا من كُفرِهم لم يقبَلْ منهم ، وإنْ تابوا لم تنفَعْهم التوبةُ ، { وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ } ؛ أي البُعْدُ من الرحمةِ ، { وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } ؛ يعني جهنَّمَ سوءُ المنقَلب.

(٠/٠)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى } ؛ من الضَّلالةِ يعني التوبةَ ، وَقِيْلَ : معناهُ : ولقد أعطَينا موسى الدِّينَ المستقيمَ ، { وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ } ، ونزَّلنا على بنِي إسرائيلَ التوراةَ والإنجيلَ والزَّبُورَ ، { هُدًى وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ } ، هُدًى من الضَّلالة وعِظَةً لذوي العقولِ ، { فَاصْبِرْ } ، يا مُحَمَّدُ على أذى الكفَّار كما صَبَرَ الرسلُ قبلَكَ ، { إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } ، في نُصرَتِكَ وإظهار دِينِكَ صدقٌ كائن ، { وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ } ؛ يعني الصغائرَ ؛ لأن أحداً من البشرِ لا يخلُو من الصغائرِ وإنْ عُصِمَ من الكبائرِ.

وَقِيْلَ : معناهُ : واستغفِرْ لذنُوب أُمَّتِكَ ، { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } ؛ أي نَزِّهْهُ عن كلِّ صفةٍ لا تليقُ به ، واحْمَدْهُ على كلِّ نعمةٍ. ويجوزُ أن يكون المرادُ بالتسبيحِ في الآية مِن قوله : { بِالْعَشِيِّ } ؛ الصَّلوات الخمسِ وقت ما بعدَ الزَّوالِ إلى وقتِ العشاء الآخرةِ ، ومِن قوله : { وَالإِبْكَارِ } ؛ صلاةَ الفجرِ.

والمعنى : صَلِّ لربكَ شَاكراً لربك بالعشيِّ والإبكار.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)

قوله : { إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ } ؛ وذلك أن اليهودَ كانوا يجادلون في النبيِّ صلى الله عليه وسلم في رفعِ القرآن ، وكانوا يقولون له : صَاحِبُنا المسيحُ بن داودَ ، يعنون الدجَّالَ يخرجُ في آخرِ الزمانِ فيبلغُ سلطانَ البرِّ والبحرِ ، ويرُدُّ الْمُلْكَ إلينا وتسيرُ معه الأنْهَارُ ، وهو آيةٌ من آياتِ الله! ويعظِّمون أمرَ الدجَّال ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ.

ومعناهُ : إنَّ الذين يخاصِمون بغيرِ حجَّةٍ أتَتْهُم ، { إن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ } ؛ أي ما في قُلوبهم إلاَّ عَظَمَةٌ عن قبولِ الحقِّ لِحَسَدِهم ، ما هم ببَالِغِي تلك العَظَمة التي في قُلوبهم لأنَّ الله تعالى مُذِلُّهم ، فلا يَصِلُونَ إلى دفعِ من آياتِ الله.

قال ابنُ عبَّاس : (وَالْمَعْنَى : مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى تَكْذِيبكَ إلاَّ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْعَظَمَةِ مَا هُمْ بِبَالِغِي مُقْتَضَى ذلِكَ الْكِبْرِ لأَنَّ اللهَ مُذِلُّهُمْ). وقال ابنُ قتيبة : (إنَّ فِي صُدُورِهِمْ إلاَّ تَكَبُّرٌ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَطَمَعٌ

أنْ يَصِلُوهُ وَمَا هُمْ بِبَالِغِي ذلِكَ ، فَاسْتَعِذْ باللهِ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الْكِبْرِ وَمِنْ شَرِّ الْيَهُودِ وَمِنْ شَرِّ الدَّجَّالِ وَمِنْ كُلِّ مَا تَجِبُ الاسْتِعَاذةُ مِنْهُ) ، وقولهُ تعالى : { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } ؛ بهم وبأعمالِهم.

(٠/٠)

لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)

وقوله تعالى : { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } ؛ أي هذا أكبرُ من خلقِ بغير عَمَدٍ وجريانِ الأفلاكِ بالكواكب فيه أعظمُ في النفسِ وأهْوَلُ في الصدر من خلقِ الناس ، { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ } ؛ الكفار ، { لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ حين لا يستدُّلون بذلك على توحيدِ خالِقِهما وقدرتِهِ على ما هو أعظمُ من خلقِ الدجَّالِ ، وعلى أنْ يمنعَ المسلمين من غَلَبَتِهِ عليهم.

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنَّ قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَّالِ ثَلاَثُ سِنِينَ ، أوَّلُ سَنَةٍ تُمْسِكُ السَّمَاءُ ثُلُثَ قَطْرِهَا وَالأَرْضُ ثُلُثَ نَبَاتِهَا ، وَالثَّانِيَةُ تُمْسِكُ ثُلُثَي قَطْرِهَا وَالأَرْضُ ثُلُثَي نَبَاتِهَا ، وَفِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ تُمْسِكُ السَّمَاءُ مَا فِيْهَا وَالأَرْضُ وَمَا فِيْهَا ، وَيَهْلَكُ كُلُّ ذاتِ ظِلْفٍ وَضِرْسٍ ".

وعن أبي أُمامةَ الباهليِّ قال : " خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذاتَ يَوْمٍ ، فَكَانَ أَكْثَرُ خُطْبَتِهِ أنْ يُحَدِّثَنَا عَنِ الدَّجَّالِ وَيُحَذِّرَنَا ، فَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ : " أيُّهَا النَّاسُ ؛ إنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ أعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ ، إنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْ نَبيّاً إلاَّ حَذرَ أُمَّتَهُ مِنْهُ ، وَأَنَا آخِرُ الأَنْبِيَاءِ وَأَنْتُمْ آخِرُ الأُمَمِ ، وَهُوَ خَارِجٌ فِيكُمْ لاَ مَحَالَةَ ، فَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُ كُلِّ مُسْلِمٍ ، وَإِنْ يَخْرُجْ بَعْدِي فَكُلُّ امْرِئٍ حَجِيجُ نَفْسِهِ ، وَاللهُ تَعَالَى خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ.

أنَّهُ يَخْرُجُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ يَعِيثُ يَمِيناً وَيَعِيثُ شِمَالاً ، فَيَا عِبَادَ اللهِ اثْبُتُوا ، فَإِنَّهُ يَبْدَأ فَيَقُولُ : أنَا نَبِيٌّ وَلاَ نَبِيَّ بَعْدِي! ثُمَّ يُثْنِي وَيَقُولُ : أنَا رَبُّكُمْ! وَلَنْ تَرَوا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا ، وَإِنَّهُ أعْوَرٌ وَلَيْسَ رَبُّكُمْ بِأَعْوَرَ ، وَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ : كَافِرٌ ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيَتْفُلْ فِي وَجْهِهِ.

وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أنَّ مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ ، فَمَنِ ابْتُلِيَ بنَارِهِ فَلْيَقْرَأ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ وَيَسْتَغِيثُ باللهِ ، فَتَكُونُ عَلَيْهِ بَرْداً وَسَلاَماً ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أنَّ مَعَهُ شَيَاطِين يَتَمَثَّلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى صُورَةِ إنْسَانٍ ، فَيَأْتِي الأَعْرَابِيُّ فَيَقُولُ لَهُ : إذا بَعَثْتُ أبَاكَ وَأُمَّكَ وَأهْلَكَ تَشْهَدُ أنِّي رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيَاطِينُهُ عَلَى صَوْتِ أبيهِ وَأُمِّهِ ، فَيَقُولانِ لَهُ : يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ ، وَمِنْ فِتْنَتِهِ أنْ يُسَلَّطَ عَلَى نَفْسٍ فَيَقْتُلُهَا ، ثُمَّ يُحْيِيهَا اللهُ بَعْدَ ذلِكَ ، فَيَقُولُ الدَّجَّالُ : انْظُرُوا إلَى عَبْدِي هَذا ، فَإنِّي بَعَثْتُهُ الآنَ وَيَزْعُمُ أنَّ لَهُ رَبّاً غَيْرِي " ".

قال مقاتلُ : (إنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يُسَلَّطَ عَلَيْهِ الدَّجَّالُ رَجُلٌ مِنْ جَشْعَم ، فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يَبْعَثُهُ اللهُ تَعَالَى ، فَيَقُولُ لَهُ الدَّجَّالُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : اللهُ رَبِي وَإِنَّكَ الدَّجَّالُ عَدُوُّ اللهِ).

[وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ يَقُولُ لِلأعْرَابيِّ : أرَأيْتَ إنْ بَعَثْتُ لَكَ أبيكَ وَأُمَّكَ أتَشْهَدُ أنِّي رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيَاطِينُهُ عَلَى صُورَةِ أبيهِ وَأُمِّهِ. وإنَّ أيَّامَهُ أرْبَعِينَ يَوْماً ، فَيَوْمٌ كَالسَّنَةِ ، وَيَوْمٌ دُونَ ذلِكَ ، وَيَوْمٌ كَالشَّهْرِ ، وَيَوْمٌ دُونَ ذلِكَ ، وَيَوْمٌ كَالجُمُعَةِ ، وَيَوْمٌ دُونَ ذلِكَ ، وَآخِرُ أيَّامِهِ كَالشُّرْفَةِ ، فَيُصْبِحُ الرَّجُلُ بِبَاب الْمَدِينَةِ فَلاَ يَبْلِغُ بَابَهَا حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ].

(٠/٠)

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ } ؛ أي فكمَا لا يستويَان فكذلك لا يستوِي المؤمنُ والكافر في الآخرةِ في الجزاءِ بالعذاب والنَّعيم ، وباقِي الآيتَين : { قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ } ظاهرُ المعنى.

(٠/٠)

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } ؛ أُدعُونِي ووَحِّدُونِي في الدُّنيا أقبلُ منكم وأستمع دعاءَكم ، { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي } ؛ إنَّ الذين يتعظَّمُون عن طاعَتِي وعن المسألةِ مني ، { سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } ؛ أي صاغرُون ذليلون ، والدَّاخِرُ : هو الذليلُ الصَّاغِرُ ، قال حسَّان : قَتَلْنَا مَنْ وَجَدْنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَجِئْنَا بالأُسَارَى دَاخِرَاقرأ ابنُ كثير (سَيُدْخَلُونَ) بضمِّ الياءِ وفتح الخاءِ.

(٠/٠)

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً } ؛ أي تُبصِرُونَ فيه لطلب المعاشِ ، { إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ } ؛ نِعَمَ اللهِ ، { ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } ؛ ومُبتَدِعهُ ، لا معبودَ سواهُ ، فلا ينبغِي لأحدٍ أنْ يدعوَ مخلوقاً مثلَهُ ، { لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } ؛ وقد تقدَّمَ تفسيرُ ذلك ، { كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } ؛ أي هَكذا كان لمصرفِ القوم الذين كانُوا بدلائلِ الله يجحَدُون.

(٠/٠)

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً } ؛ أي مُستقَرّاً للأحياءِ والأَموات ، كما قالَ : { فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ }[الأعراف : ٢٥] { وَالسَّمَآءَ بِنَآءً } ؛ أي وجعلَ السَّماء سَقْفاً مرفُوعاً فوقَ كلِّ شيءٍ ، { وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم } ؛ أي خلقَكم فأحسنَ خلقَكُم.
قال ابنُ عبَّاس : (خَلَقَ اللهُ ابْنَ آدَمَ قَائِماً مُعْتَدِلاً يَأْكُلُ بيَدِهِ ، وَيَتَنَاوَلُ بيَدِهِ وَكُلُّ مَا خَلَقَ اللهُ يَتَنَاوَلُ بفِيهِ). وقال الزجَّاجُ : (خَلَقَكُمْ أحْسَنَ الْحَيْوَانِ كُلِّهِ) ، { وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ } ؛ أي من لَذِيذِ الأطعمَةِ وكريمِ الأغذية.
وقولهُ تعالى : { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ } ؛ أي الذي فَعَلَ ذلك كلَّهُ هو ربُّكم فاشكروهُ ، { فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } ؛ أي فتعالَى اللهُ دائمُ الوجودِ لم يزَلْ ولا يزالُ ربَّ كلِّ ذي روحٍ من الجنِّ والإنسِ وغيرها ، { هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ } ؛ بلاَ أوَّلٍ ولا آخرٍ ، لم يَزَلْ ، كان حَيّاً ولا يزالُ حيّاً ، مُنَزَّهٌ عن كلِّ آفاتٍ ، وليس أحدٌ غيرهُ من الأحياءِ بهذه الصِّفات ، لا مستحقٌّ للإلهيَّة غيره ، { فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ، فوحِّدوهُ مخلصين له الدِّين ؛ أي الطاعةِ ، واشكروهُ على معرفةِ التوحيد.

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه : (إذا قَالَ أحَدُكُمْ : لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ فَيَقُلْ فِي إثْرِهَا : الْحَمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِينَ).

(٠/٠)

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦)

وقولهُ تعالى : { قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ أي أُمِرتُ أن أستقيمَ على الإسلامِ.

(٠/٠)

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ } ؛ أي خلقَ أصلَكم من ترابٍ ، { ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ } ؛ لآبائِكم ، { ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ } ، ثم نقلَكُم إلى العلَقَةِ وهو الدمُ الغليظ ، { ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ } ؛ من بطُونِ أمَّهَاتِكم أطفَالاً واحداً واحداً لذلكَ قوله : { طِفْلاً } ؛ وقال{ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً }[الكهف : ١٠٣] لأن الواحدَ يكون أعمالٌ.
وقولهُ تعالى : { ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ } ؛ أي بنقلِكم إلى حالِ اجتماع القوَّة والكمالِ ، { ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً } ؛ أي تصيرُوا شُيوخاً بعدَ الأشُدِّ ، { وَمِنكُمْ مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ } ؛ من قبلِ البُلوغِ ومن قبلِ الشَّيخوخةِ ، { وَلِتَبْلُغُواْ أَجَلاً مُّسَمًّى } ؛ يريدُ أجلَ الحياةِ إلى الموتِ ، ولكلِّ أجلٍ لحياتهِ ينتهي إليه ، ويقالُ : لتبلغُوا أجَلاً مسمًّى ؛ أي لتُوَافُوا القيامةَ للجزاءِ والحساب ، { وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } ، ولكي يعقِلُوا وحدانيةَ اللهِ تعالى وتَمام قدرتهِ ، وتصدقوا بالبعثِ بعدَ الموتِ.

(٠/٠)

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ } ؛ أي يُحيي الأمواتَ ويميتُ الأحياءَ ، { فَإِذَا قَضَى أَمْراً } ؛ من الإحياءِ والإماتةِ ، { فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ } ، يريدهُ ، { كُن فيَكُونُ } ، ويُحدِثهُ.
وقولهُ تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ } ؛ أي يُخاصِمُونَ في القرآنِ بالردِّ والتكذيب ، وهم المشركون ، { أَنَّى يُصْرَفُونَ } ، كيف يُصرَفُونَ إلى الكذب بعد وضوحِ الدلالةِ ، { الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِالْكِتَابِ } ؛ الذين كذبوا بالقرآنِ ، { وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا } ، من الشَّرائعِ والأحكامِ والتوحيد ، { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } ، عاقبةُ أمرِهم ، { إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ والسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ } حين تُجعَلُ الأغلالُ الحديدُ مع السَّلاسلِ في أعناقِهم ، يُسحَبُونَ في الحبالِ على وجُوهِهم ، يُلقَوْنَ ، { فِي الْحَمِيمِ } ، في نارٍ عظيمة ، { ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ } ؛ قال مجاهدُ : (تُوقَدُ بهِمُ النَّارُ فَصَارُواْ وَقُودَهَا).

(٠/٠)

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ } ، ثم تقولُ لهم الزَّبَانِيَةُ : { أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ } ، أين الآلِهةُ التي كُنتم تعبدونَها ، وترجُونَ منافعَها ، وتدعونَها ، { مِن دُونِ اللَّهِ } ، فيُؤلِمُونَ قلوبَهم بمثلِ هذا التوبيخِ كما يؤلِمُون أبدانَهم بالتعذيب ، { قَالُواْ } ؛ فيقولُ الكفار : { ضَلُّواْ عَنَّا } ، أي ضَلَّتْ ألهتُنا عنَّا ؛ أي ضاعَت فلا نرَاهَا ، ثم يجحَدُون عبادةَ الأصنامِ فيقولون : { بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً } ، إنْ لم نكن نعبدُ مِن قبل هذا شيئاً ، ويجوزُ أن يكون هذا كالرَّجُل يعملُ عمَلاً لا ينتفعُ به ، فيقالُ له : إيش تعملُ ؟ فيقول : لا شيءَ.
وقولهُ تعالى : { كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ } ؛ أي هكَذا يُهلِكُهم ذلكَ العذابُ الذي نزلَ بكم ، { ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ * ادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ } ؛ قال مقاتلُ : (يَعْنِي الْبَطَرَ وَالْخُيَلاَءَ).

والغِلُّ : هو ما يُجعَلُ في العُنقِ للإذلالِ والإهانةِ. والطَّوْقُ : هو ما يجعلُ للإجلالِ والكرامةِ. وقرأ ابنُ عبَّاس : (وَالسَّلاَسِلَ) بفتح اللام ، و(يَسْحَبُونَ) بفتح الياء ؛ معناهُ : ويَسحَبُونَ السلاسلَ.

(٠/٠)

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } ؛ بنصرِكَ والانتقامِ منهم ، { فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } ؛ معناهُ : فإنِ انتقَمْنا منهم وأنتَ حيٌّ فبُشرَى لكَ ، وإن نتوَفَّاكَ قبل " أنْ " نُرِيَكَ ذلك فإلَينا مرجِعُ الكلِّ منهم للمُجازاةِ ، وسيَصِلُ إليهم موعدُهم.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ } ؛ أي منهُم من قصَصْنا عليكَ خبَرَهم في القرآنِ ، ومنهم مَن لَم نقصُصْ عليكَ خبرَهم ، { وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ } ؛ في الآيةِ إبلاغُ عُذر النبيِّ صلى الله عليه وسلم فيما يأْتِيهم به من الآياتِ التي كانوا يقترحونَها عليه ، وليس علينا حصرُ عددِ الرُّسل ، ولكنا نؤمنُ بجُملَتِهم.
وقولهُ تعالى : { فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ } ؛ أي إذا جاءَ قضاؤهُ بين أنبيائهِ وأُمَمِهم ، { قُضِيَ بِالْحَقّ } ، لم يُظلَموا إذا عُذِّبوا { وَخَسِرَ هُنَالِكَ } ؛ عندَ ذلك ، { الْمُبْطِلُونَ } ، المكذِّبون.

(٠/٠)

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } ؛ اللهُ الذي خلقَ لكم الإبلَ والبقرَ والغنَمَ لتركَبُوا بعضَها وتأكلُوا لحمَ بعضِها ، { وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ } ؛ من ألبانِها وأصوَافِها وأوْبَارِها وأشعارِها ، { وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ } ؛ أي لتبلغُوا عليها في ركوبها حاجةً في قلُوبكم لا تبلغونَها إلاّ بها ، قال مجاهد : (تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَتَبْلَغُواْ عَلَيْهَا حَاجَاتِكُمْ فِي الْبلاَدِ مِمَّا كَانَتْ) ، { وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ } ؛ أي وعلى ظهُورها في البَرِّ وعلى السُّفن في البحرِ تحمَلُون في كسبكم وحجِّكم وتجاراتِكم.

(٠/٠)

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ } ؛ أي يُرِيكُم اللهُ دلائلَ قُدرتِهِ من الشمسِ والقمر والنُّجوم والليلِ والنهار والجبالِ والبحار ، وتسخَّرُ الأنعامُ لمنافعِ العباد ، كلُّها من آيات اللهِ ، { فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ } ، فأيُّ آيةٍ من آياتِ الله تجهَلُون أنَّها ليست من اللهِ تعالى؟

(٠/٠)

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } ؛ من الأُمَم كيف أهلكَهم اللهُ بتكذيبهم الرسُلَ ، { كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ } ؛ من أهلِ مكَّة بالعددِ ، { وَأَشَدَّ قُوَّةً } ؛ في البُلدانِ ، وَأظهرَ ؛ { وَآثَاراً فِي الأَرْضِ } ؛ في الأبنيةِ العظيمة ، والقصُور الْمَشِيدَةِ ، والعيُونِ المستخرجة ، { فَمَآ أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } ، فلم ينفعْهُم من عذاب الله كثرةُ عَدَدِهم وشدَّةُ قُوَّتِهم وجمعهم الأموال ، { فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } ؛ بالجهلِ الذي عندَهم أنه علمٌ ، وقالوا : نحنُ أعلَمُ منهم ، لن نُبعَثَ ولن نعذبَ

، فمعنى قوله : { فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ } أي رَضُوا بما عندَهم من العلمِ وهو في الحقيقةِ جهلٌ وإنْ زعَموهُ عِلْماً.

(٠/٠)

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُواْ آمَنَّا } ، فلمَّا رأوا عذابَنا آمَنُوا ، { بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا } ؛ ولا ينفعُ الإيمان عندَ ذلك.
وقولهُ تعالى : { سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ } ؛ أي هذا قَضَائِي في خَلْقِي أنَّ من كذبَ أنبيائِي وجحَدَ رُبوبَتِي ؛ أي سنَّ اللهُ هذه السُّنة في الأممِ كلِّها أنْ لا ينفعَهم الإيمانُ إذا رأوا العذابَ ، وسُنة اللهِ هي حكمُ اللهِ الذي مضَى في عبادهِ في بعثِ الرُّسل إليهم ، ودُعائِهم إلى الحقِّ وترك المعاجَلةِ بالعقوبة ، وأنَّ الإيمانَ وقتَ البأسِ لا ينفعُ.
ونُصب قولهُ { سُنَّتَ اللَّهِ } على التحذيرِ أو على المصدر ، وقولهُ تعالى : { وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ } ؛ أي هلكَ عند ذلك المكذِّبون.

(٠/٠)

حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤)

{ حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ } ؛ قال { تَنْزِيْلٌ } مبتدأٌ ؛ وخبرهُ : { كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ } ؛ أي بُيِّنَ حَلاَلُهُ وحرامهُ ، ومعنى التَّنْزِيْلِ : الْمُنَزَّلِ كما يذكرُ العلمُ بمعنى المعلومِ ، والحلقُ بمعنى الْمَحلُوقِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُرْآناً عَرَبِيّاً } ؛ منصوبٌ على الحالِ ؛ أي بُيِّنَتْ آياتهُ في حالِ جَمعهِ على مجرَى لُغةِ العرب ، { لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } ؛ اللِّسانَ العربيَّ ، { بَشِيراً } ؛ بالجنَّة لِمَن أطاعَ ، { وَنَذِيراً } ؛ بالنار لِمن عصَى اللهَ ، { فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ } ؛ أهلُ مكَّة عنِ الإيْمانِ ، { فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ } ؛ سَماعاً ينتفعُون بهِ.

(٠/٠)

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ } ؛ أي قالَ كفَّارُ مكَّة للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : قلوبُنا في أغْطِيَةٍ مما تدعُونا إليه مِن القُرْآنِ لا يصلُ إلى قُلوبنا ، { وَفِي آذانِنَا وَقْرٌ } ؛ أي ثُقْلٌ وصَمَمٌ يَمنعُ مِن استماعِ ما تقرؤهُ.
والأَكِنَّةُ : جمعُ كِنَانٍ ، مثل عِنَانٍ وأعِنَّةٌ. { وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } ؛ وبيننا وبينَكَ حاجِزٌ وفِرْقَةٌ في الدِّين فلا نوافِقُكَ على ما تقولُ ، { فَاعْمَلْ } ؛ على أمرِكَ ودِينِكَ ، { إِنَّنَا عَامِلُونَ } ؛ على أمرِنا ومذهَبنا.

(٠/٠)

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ } ؛ يا مُحَمَّدُ : { إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } ؛ أي كواحدٍ منكُم ولولاَ الوحيُ ما دعوتُكم.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـاهُكُمْ إِلَـاهٌ وَاحِدٌ } ؛ لاَ شريكَ لَهُ ، { فَاسْتَقِيمُواْ إِلَيْهِ } ؛ أي لا تَميلُوا عن سَبيلِهِ وتوجَّهُوا إليه إلى طاعتِهِ ، { وَاسْتَغْفِرُوهُ } ؛ مِن الشِّرك ووحِّدُوهُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ } ؛ وويلٌ لِمَن لا يقولُ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ ، { الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } ، ولا يُطَهِّرُونَ أنفُسَهم من الشِّركِ بالتوحيدِ ، { وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } ، وقال الحسنُ : (لاَ يُقِرُّونَ بالزَّكَاةِ ، وَلاَ يَرَوْنَ إِيْتَاءَهَا وَلاَ يُؤْمِنُونَ بهَا) ، قال الكلبيُّ : (عَابَهُمُ اللهُ وَقَدْ كَانُواْ يَحُجُّونَ وَيَعْتَمِرُونَ) ، قال قتادةُ : (الزَّكَاةُ قَنْطَرَةُ الإِسْلاَمِ ، فَمَنَ قَطَعَهَا نَجَا) أي فمَن عَبَرَهَا نَجَا ، ومَن لَم يعبُرْها هَلَكَ.
وفي هذهِ الآية دلالةٌ على أنَّ الكفارَ يُعاقَبون في الآخرةِ على تَرْكِ الشَّرَائِعِ كما يُعاقَبون على تَرْكِ الإِيْمَانِ ؛ لأن اللهَ وَعَدَهم على ذلكَ ، وقال فِي جواب أهلِ النار حين يقالُ لَهم{ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ }[المدثر : ٤٢-٤٤].

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } ؛ أي غيرُ مقطوعٍ ، مِن قولِهم : مَنَنْتُ الْحَبْلَ إذا قطعتَهُ ، وثوابُ المؤمنِ لا ينقطعُ. وَقِيْلَ : لا يُمَنُّ عليهِم بذلكَ ؛ لأن الْمِنَّةَ تُكَدِّرُ الصنيعةَ.

(٠/٠)

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } ؛ أي { قُلْ أَإِنَّكُمْ } يا أهلَ مكَّة { لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ } في عِظَمِها وقوَّتِها في يومِ الأحَدِ ويوم الاثنين ، { وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً } ؛ من الأصنامِ ؛ أي أضداداً ، وقولهُ تعالى : { ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ } ؛ أي ذلكَ الذي هذهِ قدرتهُ رَبُّ كلِّ ذِي رُوحٍ ومَلِكُهم.

(٠/٠)

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا } ؛ أي وخَلَقَ فيها جِبَالاً ثَوَابتَ أوتَاداً لَها في يومِ الثَّلاثاء ، { وَبَارَكَ فِيهَا } ؛ أي بَارَكَ في الأرضِ بالسَّماء والشجرِ والنبات والثمار ، { وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ } ؛ أي معايشَها ، قدَّرَ اللهُ لكلِّ حيوانٍ ما يكفيهِ بحسبَ الحاجةِ ، وجعلَ في كلِّ أرضٍ معيشةً ليست في غيرِها لتعايَشُوا وتَتَّجِرُوا.

وكان تقديرُ الأقواتِ في يومِ الأربعاءِ ، فتَمَّ خلقُ الأرضِ بما فيها في أربعةِ أيَّام ، ولو أرادَ اللهُ أن يخلُقَها في لحظةٍ واحدة لفَعَلَ وقَدِرَ ، ولكنه خلقَها في ستَّة أيامٍ لأنه تعالى حَلِيْمٌ ذُو أنَاةٍ ، أحبَّ أن يُعَلِّمَ الخلقَ الأَنَاةَ في الأمور.

وقال الحسنُ : (مَعْنَى قَوْلِهِ { وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا } أيْ قَسَّمَ الأَرْضَ أرْزَاقَ الْعِبَادِ وَالْبَهَائِمِ) ، وقال الكلبيُّ : (الْخُبْزُ لأَهْلِ قُطْرٍ ؛ وَالتَّمرُ لأَهْلِ قُطْرٍ ؛ وَالذرَّةُ لأَهْلِ قُطْرٍ ؛ وَالسَّمَكُ لأَهْلِ قُطْرٍ ، جَعَلَ اللهُ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ مَا لَمْ يَجْعَلْ فِي الأُخْرَى ؛ لِيَعِيْشَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بالتِّجَارَةِ مِنْ مَوْضِعٍ إلَى مَوْضِعٍ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ } ؛ رفعَهُ أبو جعفرٍ على الابتداءِ ؛ أي هُنَّ سَوَاءٌ ، وخفضَهُ الحسنُ ويعقوب نعتُ أربعةِ أيَّام ، ونصبَهُ الباقون على معنى : اسْتَوَتْ سَوَاءً للسَّائِلِيْنَ ، واستواءً يعني على المصدر كما يقالُ : في أربعةِ أيَّام تَماماً. ومعناهُ : مَن سألَ عنه فهكذا الأمرُ.

وقال السديُّ : (سَوَاءً لاَ زِيَادَةَ وَلاَ نُقْصَانَ جَوَاباً لِمَنْ سَأَلَ فِي كَمْ خُلِقَتِ الأَرْضُ وَالأَقْوَاتُ ، فَيُقَالُ : أرْبَعَةِ أيَّامٍ سَوَاءً). و(لِلسَّائِلِيْنَ) ههنا هُم اليهودُ ، سألُوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن مدَّة خَلْقِ السَّموات والأرضِ ، ويجوزُ قولهُ { سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ } عائداً على تقديرِ الأقواتِ ، كأنه قال : لكلِّ مُحتاجٍ إلى القُوتِ.

(٠/٠)

ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ } ؛ قال السديُّ : (كَانَ ذلِكَ الدُّخَانُ مِنْ نَفْسِ الْمَاءِ حِيْنَ تَنَفَّسَ ، وَكَانَ بُخَارُهُ يَذْهَبُ فِي الْهَوَاءِ ، فَخُلِقَتِ السَّمَاءُ مِنْهُ وَفُتِقَتْ سَبْعاً فِيْ يَوْمِ الْخَمِيْسِ وَالْجُمُعَةِ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً } ؛ أي ائْتِيَا ما آمُرُكما وافْعَلاَ ، كما يقالُ : ائْتِ ما هو الأحسنُ ؛ أي افْعَلْهُ.

قالَ المفسِّرون : إن الله تعالى قال : أما أنتِ يا سماءُ فأطلعي شَمسَكِ وقمرَكِ ونجومَكِ ، وأما أنتِ يا أرضُ فَشَقِّقِي أنْهَارَكِ واخرِجِي ثِمارَكِ ونباتَكِ ، وقال لَهما : اعْمَلا ما آمُرُكُمَا طَوْعاً وإلاَّ ألْجَأْتُكما ذلكَ حتى تفعلاهُ كَرْهاً ، فأجَابَتا بالطَّوعِ وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ } ؛ أي أتَينا أمرَكَ. ولَمَّا ركَّبَ اللهُ فيهنَّ العقولَ ، وخطابُ مَن يعقل جمعُهن جمع مَن يعقلُ كما قال تعالَى : { كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }[الأنبياء : ٣٣] ولو جمعَهن جمعَ مَن لا يعقلُ لقيلَ : طَائِعَاتٍ.

ويقالُ في معناهُ : أتَينا نحنُ مَن فينا طائعينَ ، وإنَّما ذكرَ تارة بلفظِ التَّثنيةِ وتارةً بلفظ الجمعِ ؛ لأن السَّموات والأرضِ شيئان من حيث الجنسُ بمنْزِلة الفئتين (والطائعين) ، فقيلَ لَهما : ائْتِيَا ، ثُم السَّموات بنفسِها جماعةٌ ، وكذلك الأرضُ ، فلذلك قالتَا : { أَتَيْنَا طَآئِعِينَ }. وانتصب (طَوْعاً) و (كَرْهاً) على معنى أطِيعَا طاعةً أو تُكرَهَانِ كَرْهاً.

وبلَغنا أن بعضَ الأنبياءِ قالَ : يا ربِّ ؛ لو أنَّ السَّمواتِ والأرضَ حين قُلْتَ لَهما { ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً } عصَياكَ ما كُنْتَ صانِعاً بهما ؟ قال : كنتُ آمُرُ دابَّة من دوابي فتبتلعهُما. قال : فأينَ تلك الدابةُ ؟ قال : في مَرْجٍ من مُروج ، قال : وأين ذلكَ الْمَرْجُ ؟ قال : فِي علمٍ من عُلومِي.

(٠/٠)

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } ؛ أي صَنَعَهُنَّ وأحكَمَهن وأتَمَّ خَلْقَهن سَبع سَمواتٍ بعضُها فوق بعضٍ بما فيهنَّ من الشمسِ والقمر والنجومِ ، { فِي يَوْمَيْنِ } ، في يوم الخميسِ والجمُعة ، فَتَمَّ خلقُ السموات والأرض في ستَّة أيامٍ.

لفظُ القَضَاءِ في اللغة بمعنى الإتْمَامِ ، ومِن ذلك : انقضاءُ الشَّيء إذا تَمَّ ، وقضَى فلانٌ إذا ماتَ ؛ لأنه تَمَّ عمرهُ ، وقال الشاعرُ : وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَان قَضَاهُمَا دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُمَلِهما وصَنَعَهُمَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا } ؛ قال قتادةُ : (يَعْنِي خَلْقَ شَمْسِهَا وَقَمَرِهَا وَنُجُومِهَا ، وَخَلَقَ فِي كُلِّ سَمَاءٍ خَلْقَهَا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ وَالْخَلْقِ الَّذِي فِيْهَا مِنَ الْبحَار وَجِبَالِ الْبَرِّ وَمَا لاَ يَعْلَمُهُ إلاَّ هُوَ).

وَقِيْلَ : أمَرَ في كلِّ سماءٍ بما أرادَ. وَقِيْلَ : أوحَى إلى أهلِ كلِّ سَمَاءٍ ما يصلحُها به مِن أمرِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ } ؛ أي زَيَّنَا السَّمَاءَ القُربَى إلى الأرضِ بمصابيحَ وهي النجومُ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحِفْظاً } ؛ أي وحَفِظْنَاهَا بالنُّجوم من استراقِ الشَّياطين السمعَ حِفْظاً.

وَقِيْلَ : انتصبَ (حِفْظاً) على تقديرِ : وزيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بمصابيحَ زينةً وحِفظاً ، فبعضُ النَّجوم زينةٌ للسَّماء لا يتحرَّكُ ، وبعضُها يُهتدَى بها في ظُلمات البَرِّ والبحرِ ، وبعضُها رجومٌ للشَّياطينِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } ؛ أي ذلكَ الذي سَبَقَ ذِكْرُهُ ؛ تقديرهُ : الْعَزِيْزُ في مُلكِهِ القادرُ القاهرُ الذي لا يلحقهُ عَجْزٌ ولا يَعْتَرِيهِ سهوٌ ولا جهل ، أحكَمَ ذلك كلَّهُ وأتقنَهُ حتى لا يدخلَهُ الخللُ مدَى الدُّهور.

(٠/٠)

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ } ؛ الآيةُ ، وذلكَ أنَّ الْمَلأَ مِنْ قُرَيْشٍ قَالُواْ : قَدِ الْتَبَسَ عَلَيْنَا أمْرُ مُحَمَّدٍ ، فَلَوِ الْتَمَسْتُمْ رَجُلاً عَالِماً بالشِّعْرِ وَالْكَهَانَةِ وَالسِّحْرِ فَأَتَاهُ وَكَلَّمَنَاهُ ، وَأتَانَا بِبَيَانِ أمْرِهِ.فَقَالَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيْعَةَ : وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ الشِّعْرَ وَالْكَهَانَةَ وَالسِّحْرَ ، وَعَلِمْتُ مِنْ ذلِكَ عِلْماً لاَ يَخْفَى عَلَيَّ إنْ كَانَ كَذلِكَ.

فَمَضَى عُتْبَةُ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ فِي الْحَطِيْمِ ، فَكَلَّمَهُ وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً إلاَّ قَالَهُ ، وَكَانَ عُتْبَةُ مِنْ أحْسَنِ النَّاسِ حَدِيْثاً ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أنْتَ خَيْرٌ أمْ هَاشِم ؟ أنْتَ خَيْرٌ أمْ عَبْدُ الْمُطَّلِب ؟ أنْتَ خَيْرٌ أمْ عَبْدُ اللهِ ؟ فِيْمَ تَشْتُمُ آلِهَتَنَا وَتُضَلِّلُ آبَاءَنَا ؟ فَإنْ كَانَ ذلِكَ طَلَباً لِلرِّئَاسَةِ عَقَدْنَا لَكَ أَلْوِيَتَنَا وَكُنْتَ رَأسَنَا مَا بَقِيْتَ ، وَإنْ كَانَ لَكَ الْبَاءةُ زَوَّجْنَاكَ عَشْرَ نِسْوَةٍ مِمَّنْ تَخْتَارُ مِنْ بَنَاتِ قُرَيْشٍ ، وَإنْ كَانَ بكَ الْمَالُ جَمَعْنَا لَكَ مَا تَسْتَغْنِي بِهِ أنْتَ وَعَقِبُكَ مِنْ بَعْدِكَ. وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَاكِتٌ لاَ يَتَكَلَّمُ.

فَلَمَّا فَرَغَ عُتْبَةُ مِنْ كَلاَمِهِ قَرَأ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ { حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ... } إلَى قَوْلِهِ { فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ }. فَوَثَبَ عُتْبَةُ فَزَعاً مَخَافَةَ أنْ يُصَبَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ الَّذِي خَوَّفَهُ بِهِ النَّبِيُّ صلى اله عليه وسلم ، فَأَتَى قَوْمَهُ مَذْعُوراً وَأقْسَمَ لاَ يُكَلِّمُ مُحَمَّداً بَعْدَهَا أبَداً.

فَقَالَ لَهُ أبُو جَهْلٍ : لَعَلَّكَ صَبَوْتَ إلَى مُحَمَّدٍ ، وَمَا ذاكَ إلاَّ مِنْ حَاجَةٍ أصَابَتْكَ ، وَإنْ كَانَ بكَ حَاجَةٌ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أمْوَالِنَا مَا يُغْنِيْكَ عَنْ مُحَمَّدٍ! فَغَضِبَ عُتْبَةُ وَقَالَ : وَاللهِ لَقَدْ كَانَ أبي مِنْ أكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالاً ، وَلَكِنْ أتَيْتُهُ وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ فَأَجَابَنِي بشَيْءٍ وَاللهِ مَا هُوَ بِشِعْرٍ وَلاَ كَهَانَةٍ وَلاَ سِحْرٍ ، وَاللهِ مَا اهْتَدَيْتُ لِجَوَابِهِ. فَقَالَ حَرْثُ بْنُ عَلْقَمَةَ : وَاللهِ لَقَدْ أفْسَدَ هَذا الرَّجُلُ دِيْنَنَا وَفَرَّقَ بَيْنَ كَلِمَتِنَا ، وَأيْمِ اللهِ لَئِنْ بَقِيَ هَذا الرَّجُلُ وَيُقِيْمُ لَيَكُونَنَّ بَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا ، وَسَيَبِيْنُ ذلِكَ لَكُمْ إذا خَرَجَ مِنْكُمْ إلَى غَيْرِكُمْ ، فَذرُوهُ مَا تَرَكَكُمْ.

ومعنى الآيةِ : فإنْ أعرَضُوا عنِ الإيْمَانِ بكَ ولَمْ يقبَلوا قولكَ بعد هذا البيانِ ، فقُلْ : خوَّفْتُكم عَذاباً مثلَ عذاب قوم هودٍ وقوم صالِح. والصَّاعِقَةُ : هو الهلاكُ على حالةٍ هائلةٍ.

وقولهُ تعالى : { إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ } أي إذا جاءتهم الرسلُ إلى مَن كان قبلَهُم فعلِمُوا بتواترِ الأخبار. ثم إنَّهم الرسلُ أيضاً من خَلَفِ مَن كان قبلَهم بأن لا يعبدُوا إلاّ اللهَ ، {

قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً } ؛ أي لو شاءَ رَبُّنا أنْ ينَزِّلَ إلينا رسُولاً لأنزلَ ملائكةً من جُندهِ ، { فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } ؛ ما أنتم إلاّ بشرٌ مثلُنا. ويجوز أن يكونَ معنى { مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ } بأن الرُّسُلَ أتَتْهُمْ من جميعِ جِهاتِهم.

(٠/٠)

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } ؛ أي تَعَظَّمُوا عن الإيْمانِ بنبيهم وأعجبَتْهم أجسامهم ، { وَقَالُواْ } ؛ لنَبيِّهم : { مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً } ؛ بالبَدَنِ فيهلِكَنا ، وذلك أنَّ هُوداً عليه السلام خوَّفَهم وهدَّدَهم بالعذاب ، فقالوا : نحن نقدرُ على دفعهِ بفضل قوَّتنا ، وكانت لَهم أجسامٌ طويلة وخَلْقٌ عظيمٌ ، فلما أَتَتْهُمُ الريحُ قاموا ليصدُّون عنهم فحملَتْهم إلى عَنَانِ السَّماء ثُم صرَعتهم على وجوهِهم ثُم ألقت عليهم الرَّملَ حتى غطَّتهم ، وكان يُسمَعُ أنينُهم تحتَ التُّراب حتى أهلكَهم اللهُ.
فلمَّا قالوا لنَبيِّهم : { مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً } قَالَ اللهُ تَعَالَى رَدّاً عليهم : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً } ؛ لأن الخالقَ للشَّيءِ لا بدَّ أن تكون له مِزْيَةٌ على خلقهِ ، { وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } ؛ أي يكفُرون.

(٠/٠)

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً } ؛ أي عَاصِفاً شديدَ الصَّوتِ ، مأخوذٌ من الصَّرَّةِ وهي الصيحةُ ، وقال ابنُ عبَّاس : (يَعْنِي الْبَارِدَةَ ، مَأْخُوذٌ مِنَ الصَّرِّ وَهُوَ الْبَرْدُ). قال الفرَّاءُ : (هِيَ الْبَارِدَةُ تُحْرِقُ كَمَا تُحْرِقُ النَّارُ) وَهِيَ رِيْحٌ بَارِدَةٌ شَدِيْدَةُ الْهُبُوب ، ذاتُ صَوْتٍ تُحْرِقُ كَالنَّار.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ } ؛ أي نَكِدَاتٍ مَشْؤُومَاتٍ عليهم ، ذاتِ نُحُوسٍ ، قال ابنُ عبَّاس : (كَانُواْ يَتَشَاءَمُونَ بِتِلْكَ الأَيَّامِ). قرأ ابنُ عامرٍ وأهل الكوفة (نَحِسَاتٍ) بكسرِ الحاءِ ، وقرأ الباقون

بسكونها ، يقالُ : يَوْمُ نَحْسٍ وَنَحِسٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ؛ أي عذابُ الْهَوْنِ وَالذُّلِّ وهو العذابُ الذي يُخزَونَ به ، والْخِزْيُ والفَضِيحَةُ والنَّكَالُ كلُّه بمعنى واحدٍ ، { وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ } ، وعذابُ الآخرةِ أبلغُ في الْمَذلَّةِ وأبقَى وأشدُّ ، لا يدفعُ عنهم ولا يخفَّفُ عنهم.

(٠/٠)

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى } ؛ أي وأمَّا ثَمُودٌ فَبَيَّنَّا لَهم سبيلَ الْهُدَى ودعَونَاهم ودلَلْناهم على الخيرِ بإرسال الرُّسلِ ، فاختارُوا الكُفْرَ على الإيْمَانِ بعد أنْ أرَيناهُم الأدلَّة وأخرجنا لَهم ناقةً عَشْرَاءَ من صخرةٍ ملسَاءَ ، { فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ } ، أي ذِي الْهَوَانِ ، { بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } ، بكُفرِهم وعَقْرِهم الناقةَ ، { وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ بصَالِح ، { وَكَانُواْ يَتَّقُونَ } ؛ الشِّركَ والكبائرَ.

(٠/٠)

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ } ؛ قرأ نافعُ ويعقوب (نَحْشُرُ) بنونٍ مفتوحة وضمِّ الشِّين ، ونصب (أعْدَاءَ) ، وقرأ الباقونَ (يُحْشَرُ) بالياء المضمومةِ ورفعِ (أعْدَاءُ). ومعنى الآيةِ : وأنْذِرْهُم يومَ يُجمَعُ أعداءُ اللهِ ويُساقونَ إلى النار بالعُنفِ ، وقولهُ تعالى { فَهُمْ يُوزَعُونَ } أي يُحبَسُ أوَّلُهم على آخرِهم ليتلاحَقُوا ثُم يقذفُون في النار.

(٠/٠)

حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا مَا جَآءُوهَا } ؛ أي حتَّى إذا جَاءُوا النارَ التي لم يقذفوا ثم يقذفون في النار.
قولهُ تعالى : حُشِر أعداءُ الله حُبسُوا عندَها وهم يُعَاينُونَها ، ويقالُ لَهم : أينَ شُركاؤُكم الذين كنتم تَزعُمون ، فيجْحَدُون ويقولونَ : واللهِ ربنا ما كُنا مشركينَ ، فعند ذلك يُخْتَمُ على أفواهِهم وتُسْتَنْطَقُ جوارحُهم { شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ } ، وكلُّ عُضوٍ من أعضَائِهم بما ارتكَبُوا من الكُفرِ والمعاصِي.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيْدُ فُرُوجَهُمْ ، كَنَّى عَنْهَا بالْجُلُودِ). وَقِيْلَ : الجلودُ الجوارحُ ، { وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ } ، فيقولُ الكفَّار لجلودِهم بَعدَما يُرَدُّ النطقُ إلى ألسِنتهم : { لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا } ؛ وعمِلتُم على هلاكِنا ، { قَالُواْ أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ } ؛ وتَمَّ الكلامُ.
ثُم قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ؛ أي ليسَ إنطاقهُ الجلودَ أبدعَ من خلقهِ إيَّاكم ابتداءً وإعادةً بعد الموتِ ، وليس هذا مِن كلامِ الجلود.

(٠/٠)

وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ } ؛ معناهُ : ما كنتم تَستَتِرُونَ بالمعاصِي عن الناسِ مخافةً مِن أن تشهدَ عليكم هذه الجوارحُ في الآخرةِ ؛ لأنَّكم ما كنتم تظنُّونَ ذلكَ ، { وَلَـاكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ } ؛ ولكن عمِلتُم بالمعاصِي عَمَلَ مَن يظُنُّ أنَّ الله لا يعلمُ بما يعملهُ في السرِّ. قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ الْكُفَّارُ يَقُولُونَ : إِنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِنَا وَلَكِنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَظْهَرُ!).

(٠/٠)

وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ } ؛ أي ظنكم أن الله لا يعلم ما تعملون ، { أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الْخَاسِرِينَ } ؛ أي أهلَكَكُم فصِرتُم من المنبذين بالوِزْر والعقوبةِ. وَقِيْلَ : معنى { أَرْدَاكُمْ } أي طَرَحَكم في النار.

(٠/٠)

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن يَصْبِرُواْ فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ } ؛ أي فإنْ يُمسِكُوا عن الاستغاثةِ ولم ينطقوا بشكوَى فالنارُ مسكنٌ لَهم منتقمةٌ منهم ، { وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ } ؛ أي وإنْ يطلبُوا العُتْبَى وهي الرِّضَا فمَاهُم عن " أنْ " يطلبُوا رضَاهُم ويقبلُ عُذْرُهم. يقالُ : أعْتَبَنِي فلانٌ ؛ أي أرْضَانِي بعدَ اسْتِخَاطِهِ إيَّايَ ، وَاسْتَعْتَبْتُهُ طلبتُ منه أن يَعْتَبَ أي يرضَى.

(٠/٠)

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ } ؛ معناهُ : سبَّبنا لَهم أعوَاناً وقُرَنَاءِ من الشَّياطين حتى أضَلُّوهم وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ } ؛ من أمرِ الآخرةِ أنْ لا جنَّةَ ولا نارَ ولا بعث ولا حسابَ ، { وَمَا خَلْفَهُمْ } ؛ من أمرِ الدُّنيا أن لا يُنفِقُوا في وجوهِ البرِّ ، وأن يتلَذذُوا في الدُّنيا ويجمَعُوا الأموالَ ، { وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ } ؛ أي وجبَ عليهم ، { فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ }.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَـاذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } ؛ وذلك أنَّ كفارَ قريشٍ قالوا لأتْبَاعِهم : لاَ تَسْمَعُواْ هَذا الْقُرْآنَ الَّذِي يَقْرَؤُهُ عَلَيْكُمْ مُحَمَّدٌ ، فَإذا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأُ فَارْفَعُواْ أصْوَاتَكُمْ بالأشْعَار وَالأرَاجِيْزِ وَالْغُواْ فِيْهِ بالْمِكَاءِ وَالصَّفيرِ ، وقَابلُوهُ بكَلامِ اللَّغْوِ حتى تَغْلِبُوهُ فَيَسْكُتَ.

(٠/٠)

فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨)

يقولُ اللهُ تعالى : { فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَاباً شَدِيداً } ؛ أي في الدُّنيا بالقتلِ والأسرِ ، { وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ، ولنُعاقِبَنَّهم في الآخرةِ بعذابٍ أشدَّ مِن عذابهم في الدُّنيا ، { ذَلِكَ } ؛ العذابُ ، { جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللَّهِ }. وقولهُ تعالى : { النَّارُ } ؛ بدلٌ مِن العذاب ؛ أي بدلٌ من قولهِ { جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللَّهِ }. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ } ؛ أي لَهم في النَّار دارُ الإقامةِ ، { جَزَآءً بِمَا كَانُوا بِآياتِنَا يَجْحَدُونَ } ؛ يعني الْقُرْآنَ جَحَدُوا أنه مِن عند اللهِ.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَال الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ } ؛ معناهُ : يقولُ الَّذين كفَرُوا في النار : يا رَبَّنَا أرِنَا اللَّذينِ أضَلاَّنا عن الحقِّ. قال بعضُهم : يريدُ به إبليسَ وقابيلَ أوَّلَ مَن أحدثَ المعصيةَ في بنِي آدمَ ، { نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا } ؛ أي أسْفَلَ منَّا في النار ، { لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ } ؛ في الدَّرَكِ الأسْفَلِ. وَقِيْلَ : معناهُ : ليَكونَا أشَدَّ عذاباً منَّا.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ } ؛ أي إنَّ الذين وحَّدُوا اللهَ ، { ثُمَّ اسْتَقَامُواْ } ، على الإيْمَانِ ولَم يشرِكُوا. وكان الحسنُ إذا قرأ هذه الآيةَ قال : (اللَّهُمَّ أنْتَ رَبُّنَا فَارْزُقْنَا الاسْتِقَامَةَ).

وقال أبُو بكرٍ رضي الله عنه : (يَعْنِي ثُمَّ اسْتَقَامُواْ عَلَى أنَّ اللهَ رَبٌّ لَهُمْ) ، وقال مجاهدُ : (هُمُ الَّذِيْنَ لَمْ يُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً حَتَّى يَلْقَوْهُ). وقال بعضُهم : يعني الاستقامةَ على أداءِ الفرائضِ ولُزومِ السُّنة. وروي عن عُمر رضي الله عنه : (اسْتَقَامُواْ للهِ بطَاعَتِهِ وَلَمْ يَرُوغُواْ رَوَغَانَ الثَّعَالِب).

وقوله : { تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ } ؛ يعني قَبْضَ أرواحِهم فتقولُ لَهم : { أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ } ؛ أي لا تَخافُوا ما أنتم وَاقِفُونَ عليه ، ولا تَحزَنُوا على الدُّنيا وأهلِها ، وتقولُ لَهم عند خُروجِهم حين يَرَونَ أهوالَ القيامةِ : { نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ } ؛ تولَّيناكم وحَفِظْنَا أعمالَكم ، ونتولاَّكم في الآخرةِ ونحفَظُكم.

وعن ثابتٍ أنه قالَ : (بَلَغَنَا أنَّ الْمُؤْمِنَ إذا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، نَظَرَ إلَى حَافِظَيْنِ قَائِمَيْنِ عَلَى رَأسِهِ يَقُولاَنِ لَهُ : لاَ تَخَفِ الْيَوْمَ وَلاَ تَحْزَنْ وَأَبْشِرْ بالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتَ تُوعَدُ).

وقال عثمانُ رضي الله عنه في معنى قولهِ : (ثُمَّ اسْتَقَامُواْ : ثُمَّ أخْلَصُواْ الْعَمَلَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ). وقال مجاهدُ وعكرمة : (مَعْنَاهُ : ثُمَّ اسْتَقَامُواْ عَلَى شَهَادَةِ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ حَتَّى لَحِقُوا باللهِ).

وقال مقاتلُ : (اسْتَقَامُواْ عَلَى الْمَعْرِفَةِ ، وَلَمْ يَرْتَدُّوا ، تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ) فِي ثَلاَثِ مَوَاطِن : عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَفِي الْقَبْرِ ، وَفِي وَقْتِ الْبَعْثِ : أنْ لاَ تَخَافُواْ عَلَى صَنِيعِكُمْ وَلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مُخَلِّفِيكُمْ.

وقال مجاهدُ : (أنْ لاَ تَخَافُواْ عَلَى مَا تُقْدِمُونَ عَلَيْهِ مِنْ أمْرِ الآخِرَةِ ، وَلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى خِلْفَتِكُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ وَلَدٍ وَأهْلٍ ، فَإنَّهُ سَيَخْلُفُكُمْ فِي ذلِكَ كُلِّهِ). وقال السديُّ : (لاَ تَخَافُواْ مِنْ ذُنُوبكُمْ فَإنِّي أغْفِرُهَا لَكُمْ).

وقال بعضُهم : معنى هذه الآيةِ : أنَّ الذين قالُوا : { رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ } بالوفاءِ على ترك الْخَنَى تَتَنَزَّلُ عليهمُ الملائكةُ بالرِّضَى : أن لا تخافُوا من الغِنَى ولا تحزنُوا على الغنَى وأبْشِرُوا بالبَقاءِ مع الذي كنتم توعدونَ من اللقاءِ. وَقِيْلَ : معناهُ : ألاَّ تَخافُوا فلا خوفٌ على أهلِ الاستقامةِ ، ولا تَحزنُوا فإن لكم أنواعَ الكرامةِ وأبشِرُوا بالجنةِ التي هي دارُ السَّلامةِ ، لا تخافُوا فعل دِينِ الله إنِ استقمتُم ، ولا تحزَنُوا ،

فبحبلِ اللهِ اعتصَمتُم ، وأبْشِرُوا بالجنةِ إن تُبْتُمْ لا تخافوا ما دُمتم ولا تحزنوا فقد نِلتُمْ ما طلبتم ، وأبشِرُوا بالجنةِ التي فيها رَغِبْتم ، ولا تحزنوا فأنتم أهلُ الإيْمانِ ، ولا تحزنوا وأنتم أهلُ الغفرانِ ، وأبشِرُوا بالجنةِ التي هي دارُ الرِّضوانِ ، لا تخافوا وأنتم أهلُ الشَّهادة ، ولا تحزَنوُا فأنتم أهلُ السَّعادة ، وأبشروا بالجنةِ التي هي دارُ الزِّيادة ، لا تخافوا فأنتم أهلُ النَّوالِ ، ولا تحزنوا فأنتم أهلُ الوصالِ ، وابشروا بالجنة التي هي دارُ الحَلالِ ، لا تخافوا فقد أمنتم الثُّبُورَ ، ولا تحزنوا فإن لكم الحورَ ، وأبشروا بالجنة التي هي دار السرور ، ولا تخافوا فسعيُكم مشكورٌ ، ولا تحزنوا فذنبُكم مغفورٌ ، وابشروا بالجنة التي هي دار النور ، لا تخافوا فطَالَما كنتم خائفينَ ، ولا تحزنوا فقد كنتم عَارفين ، وأبشِرُوا بالجنة التي عَجَزَ عنها وصفُ الواصفين ، لا تخافُوا فأنتم مِن أهل الإيْمانِ ، ولا تحزنوا فأنتم من أهلِ الحرمَان ، وأبشِروا بالجنة التي هي دارُ الأمانِ.

(٠/٠)

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)

قولهُ تعالى : { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً } ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم دَعَا إِلَى شَهَادَةِ أنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ) ، وقال الحسنُ : (هُوَ الْمُؤْمِنُ أجَابَ اللهُ دَعْوَتَهُ وَدَعْوَةَ النَّاسِ إِلَى مَا أجَابَ اللهُ فِيهِ دَعْوَتُهُ وَعَمِلَ صَالِحاً فِي إجَابَتِهِ) { وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } ؛ وقالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : (إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُؤَذِّنِيْنَ الَّذِيْنَ يَدْعُونَ إِلَى الصَّلاَةِ وَيُصَلُّونَ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإقَامَةِ).

(٠/٠)

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ } ؛ ولا تَستَوِي كلمةُ التَّوحيدِ وكلمةُ الشِّركِ ، وَقِيْلَ : هُما الطاعةُ والمعصية ، ويقالُ : الخِصْلَةُ الحميدةُ والخِصلة السيِّئةُ. وَقِيْلَ : الْحِلْمُ والجهلُ ، والعَفْوُ والإساءةُ.

ودخولُ (لاَ) في قولهِ : { وَلاَ السَّيِّئَةُ } زائدةٌ للتأكيدِ وبُعدِ المساواةِ ؛ لأن المعنى : لا تستَوِي الحسنةُ والسيئةُ ، ومثلهُ قولُ الشاعرِ : مَا كَانَ يَرْضَى رَسُولُ اللهِ فِعْلَهُمُ وَالطَّيِّبَانِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُوَقَوْلُهُ تَعَالَى : { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } ؛ أي ادْفَعِ السَّفَاهَةَ والعجَلةَ بالأنَاةِ وبالرِّفقِ ، وذلك أنكَ إنْ لقِيتَ بعض مَن يضمرُ في نفسهِ عداوتَكَ فتبدأهُ بالسَّلام أو تبتسِمُ في وجهه لأن ذلكَ يلين لك قلبَهُ ، ويسلَمْ لك صدرُهُ فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } ؛ أي إذا فعلتَ ذلك صارَ الذي يُعادِيكَ صَديقاً قريباً لك. وتُسمِّي العربُ القريبَ حَمِيماً ؛ لأنه يَحمِي لِمَا يهُم صاحبهُ.

(٠/٠)

وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ } ؛ أي ما يلقَى هذه الخِصلَةَ التي هي دفعُ السَّيئة بالحسنةِ إلاّ الذين صَبَرُوا على كَظْم الغَيْظِ واحتمالِ المكروهِ وصبَرُوا على طاعةِ الله ، وصبَروا عن معصيتهِ ، { وَمَا يُلَقَّاهَآ } ، أي وما يُعْطَاها ، { إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } ؛ من الخيرِ. وَقِيْلَ : مِن الصبرِ ، وَقِيْلَ : الحظُّ العظيمُ الجنَّة ، أي ما يُلَقَّاهَا إلاّ مَن وجبت له الجنةُ. وَقِيْلَ : الحظُّ العظيمُ القَدْر ، العظيمُ عندَ الله.

(٠/٠)

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ } ؛ أي وإمَّا يلحقنَّكَ مِن الشيطانِ وَسْوَسَةٌ عند هفوةِ غيرِك وعندما يدعُو بكَ إلى معصيةِ الله فتصرِفُكَ الوسوسةُ عن الاحتمالِ ، { فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ } ؛ أي اعْتَصِمْ باللهِ من شرِّ الشَّيطانِ ، امْضِ على حُكْمِكَ ، { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ } ؛ لِمقالَةِ أعدائِكَ ، { الْعَلِيمُ } ؛ بهم وبمُجارَاتِهم.

ثُم ذكرَ اللهُ علاماتِ توحيدهِ ودلائل قُدرتهِ ؛ فقال : { وَمِنْ آيَاتِهِ الَّيلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } ؛ أي ومن آياتهِ الدَّالةِ على رُبُوبيَّتِهِ ووَحدَانِيَّتِهِ الليلُ والنهارُ بما فيهما من المنافعِ والمقاصدِ ، والشمسُ والقمرُ بما فيهما من البدائعِ ، { لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُواْ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ } ؛ أي لا تَعبدُوا

الشمسَ والقمرَ ، واعبدُوا اللهَ الذي خَلَقَهُنَّ ، { إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } ؛ أي إنْ كُنتم تُرِيدونَ بعبادةِ الشَّمس والقمرِ عبادةَ اللهِ.

وذلك أنَّ قَوماً من الكفَّار يَسجُدونَ لَهما ويزعمونَ أنَّهم يتقرَّبون بذلكَ إلى اللهِ تعالى ، فقيلَ لَهم : إنْ كنتم تريدون بذلكَ عبادةَ الله تعالى ، فالسُّجود لِخالِقِهما أولَى من السُّجود لَهما.

فإنْ قِيْلَ : ما معنى قولهِ { خَلَقَهُنَّ } والقمرُ مذكَّرٌ والشمسُ مؤنَّثة ، والمذكَّرُ والمؤنث إذا اجتمَعا غلبَ المذكَّر ؟ قُلْنَا : إنَّ قوله (خَلَقَهُنَّ) راجعٌ إلى الآياتِ التي سَبَقَ ذكرُها في أوَّلِ هذه الآيةِ من الليل والنهار والشَّمسِ والقمر ، ويكون ضميرُ ما لا يعقلُ على لفظ التأنيثِ كما يقالُ : هذه كِبَاشُ ذُبحْنَ وذُبحَتْ.

(٠/٠)

فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنِ اسْتَكْبَرُواْ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ } ؛ أي فإن تَكبَّرُوا عن عبادتِي والسجودِ لِي فالملائكةُ الذين عندَ ربكَ بقرب الكرامة والمنْزِلة يُصلُّون له بالليلِ والنهار ، ويَنزِّهُونَهُ عن كلِّ ما لا يليقُ له ، { وَهُمْ لاَ يَسْئَمُونَ } ؛ أي لا يَميلُونَ على عبادتهِ ولا يَفْتَرُونَ.

واختلَفُوا في موضعِ السُّجود من هذه السُّورةِ ؛ فقال الحسنُ : (عِنْدَ قَوْلِهِ (تَعْبُدُونَ). وهو قولُ الشَّافعي. وقا ابنُ عبَّاس ومسروقُ : (هُوَ عِنْدَ قَوْلِهِ : لاَ يَسْأَمُونَ) وهو قولُ عُلمائِنَا ، وهو الأصحُّ لأنه موضِعُ تَمام الكلامِ.

(٠/٠)

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً } ؛ مِن آياتهِ الدَّالة على وحْدَانِيَّتِهِ وقُدرتهِ أنَّكَ ترَى الأرضَ مُغْبَرَّةً يابسةً لا نباتَ فيها ، { فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ } ؛ تحرَّكت للنباتِ وانتفخَتْ وارتفعت له حتى يكادُ النباتُ يظهر ، { إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا } ؛ بإنزالِ المطر ، { لَمُحْيِ الْمَوْتَى } ؛ في الآخرة ، { إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ؛ من الإحياءِ والإمَاتةِ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا } ؛ أي يَمِيلُونَ عن الحقِّ في آياتنا إلى جانب الباطل ، قال مقاتلُ : (يَميلُونَ عَنِ الإيْمَانِ بالْقُرْآنِ) ، وقال مجاهدُ : (يَلْحِدُونَ بآيَاتِنَا بالْمُكَاءِ وَاللَّغَطِ) ، { لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ } ، بأَشْخَاصِهِمْ وَأفْعَالِهِمْ وَأقْوَالِهِمْ وَعَزَائِمِهِمْ. واللَّحْدُ واللِّحَادُ بمعنى واحدٍ وهو الْمَيْلُ ، ومنهُ الْمُلْحِدُ لعدولهِ عن الحقِّ ، ومنهُ اللَّحْدُ الذي في القَبرِ لأنه في جانبٍ منهُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ؛ هو تقديرُ نفيِ المساواة بين الفريقينِ. قِيْلَ : المرادُ قولهُ { أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ } أبو جهل وجدلهُ { خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ } حمزة ، وَقَوْلُهُ : { اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } ؛ لفظهُ لفظُ الأمرِ ، ومعناهُ التهديدُ والوعيدُ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ } ؛ أي بالقُرْآنِ ، { لَمَّا جَآءَهُمْ } ؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ } ؛ محذوفُ الجواب ، تقديرهُ : (إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ) سيَنْزِلُ لهم مِن العذاب ما هو مذكورٌ في الكتاب العزيزِ. والعَزِيزُ : هو الكريمُ على اللهِ. وَقِيْلَ : هو الممتنعُ على مَن يريدُ مُعَارَضَتَهُ وَتَغْيِيْرَهُ بزيادةٍ ونُقصانٍ.

(٠/٠)

لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ } ؛ أي لا يأتيهِ التكذيبُ من الكتب التي قبلَهُ ولا يجيءُ بعده كتابٌ فيبطلهُ ، وقال الزجّاج : (مَعْنَاهُ : أَنَّهُ مَحْفُوظٌ مِنْ أنْ يُنْقَصَ مِنْهُ فَيَأْتِيْهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، أوْ يُزَادَ فِيْهِ فَيَأْتِيْهِ الْبَاطِلُ مِنْ خَلْفِهِ) ، فمعنى الباطلِ على هذا الزيادةُ والنقصانُ. وفي عَينِ المعاني : (الْبَاطِلُ إبْلِيْسُ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } ؛ أي مُنَزَّلٌ من عالِمٍ بوجوه الحكمةِ ، مستحقٌّ للحمدِ على خَلْقِهِ بإنعامهِ عليهم.

(٠/٠)

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ } ؛ فيه تسليةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم على ما كان يلحقهُ من أذِيَّةِ قومهِ ؛ أي قد قيلَ للأنبياءِ قبلَكَ ساحرٌ ، وكُذِّبُوا كما كُذِّبْتَ. ويجوزُ أن يكون معناهُ : ما أقولُ لكَ ولا آمرُكَ بتبليغِ الوحْيِ والرسالةِ إلاّ ما قد قيلَ للرُّسلِ قبلَكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ رَبَّكَ ذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ } ؛ أي لذُو مغفرةٍ لِمَن تابَ وآمنَ ، وذُو عقابٍ أليْمٍ لِمَن ثابَ على الكُفرِ.

(٠/٠)

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ } ؛ أي لو جعلناهُ قُرْآناً بلُغةٍ غير لغةِ العرب لقال العربُ : ولو بُيِّنَتْ آيَاتهُ بلغةِ العرب حتى نفهمَها عندَكَ بغيرِ مُترجمٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ } ؛ استفهامٌ على وجهِ الاستبعادِ ؛ كأنَّهم قالُوا : كتابٌ أعجميٌّ ورسول عربيٌّ ، كيف يكونُ هذا؟! فيُنْكِرونَهُ أشدَّ الإنكار. يقالُ : رجل أعجميٌّ إذا كان لا يُفْصِحُ سواءٌ كان مِن العرب أو العجمِ ، ورجلٌ عَجَمِيٌّ إذا كان مَنْسُوباً إلى العجمِ وإنْ كان فَصِيحاً ، ورجلٌ أعْرَابيٌّ إذا كان مِن

أهل البادية سواءٌ كان من العرب أو لَم يكن ، ورجلٌ عَرَبِيٌّ إذا كان مَنْسُوباً إلى العرب وإن كان غيرَ فصيحٍ.

ومعنَى الآيةِ : أنَّهم كانوا يقولُونَ : إنَّ الْمُنَزَّلَ عليه عربيٌّ ، والْمُنَزِّلُ أعجميٌّ ، فكان ذلك أشدُّ لتكذيبهم ، { قُلْ } ؛ يا مُحَمَّد : { هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ } ؛ يعني القُرْآنَ هُدًى للذين آمَنُوا من الضَّلالةِ وشِفَاءٌ من الأوجاعِ. وقال مقاتلُ : (شِفَاءٌ لِمَا فِي الْقُلُوب بالْبَيَانِ الَّذِي فِيْهِ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ } ؛ أي إنَّهم في تَرْكِ القَبُولِ بمنْزِلَةِ الصُّمِّ العُمْيِ ، وسيؤدِّيهم تكذيبُهم إلى العَمَى ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى } ؛ أي عُمُوا عنِ القُرْآنِ وصُمُّوا عنه.

وقال السديُّ : (عَمَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْهُ). والمعنى : وهو عليهم ذُو عمَى. وانتصبَ قولهُ (عَمًى) على المصدر. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ } ؛ أي إنَّهم لا يَسمَعُونَ ويفهمونَ كما أنَّ مَن دعَا مِن مكانٍ بعيدٍ لَم يسمَعْ ولَم يفهم. والمعنى : أنَّهُ بعيدٌ عندَهم مِن قُلوبهم ما يُتْلَى عليهم.

(٠/٠)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } ؛ يعني التوراةَ ، { فَاخْتُلِفَ فِيهِ } ؛ قومهُ كما اختلفَ قومُكَ في القُرْآنِ ، وهذا تسليةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي كما آتينَاكَ الكتابَ وكذبَ به قومُكَ وصدَّقَ به بعضُهم كذلك آتينَا موسى الكتابَ فكذبَ به بعضُ قومهِ وصدَّقَ به بعضُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } ؛ معناهُ : ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِن ربكَ في تأخيرِ العذاب عن هذه الأُمةِ إلى يوم القيامةِ كما قَالَ تَعَالَى{ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ }[القمر : ٤٦] لعَذبَهم بعذاب الاستئصالِ. وَقِيْلَ : أرادَ بسبقِ الكلمةِ : أنْ لا يعَذِّبَهم وأنتَ فيهم.

والمعنى : ولَوْلاَ كلمةٌ سَبَقَتْ مِن ربكَ في تأخيرِ العذاب عن مُكَذِّبي القُرْآنِ إلى أجلٍ مُسمًّى يعني القيامةَ ، لقُضِيَ بينَهم بالعذاب الواقعِ بمَن كذبَ ، { وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ } ، مِن صِدقِكَ وكِتَابكَ ، { مُرِيبٍ } ؛ أي موقعٌ لَهم الرِّيبة ، وَقِيْلَ : إنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ من القُرْآنِ ظاهرِ الشَّكِّ.

(٠/٠)

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } ؛ ظاهرُ المرادِ.

(٠/٠)

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ } ؛ أي لا يَعْلَمُ متى وقتُ قيامِها إلاّ اللهُ تعالى ، ولا يجابُ فيها بشيءٍ ، ويقالُ : اللهُ أعْلَمُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا } ؛ قرأ نافعُ وابن عامر (ثَمَرَاتٍ) بالجمعِ ، وقرأ الباقونَ (ثَمَرَةٍ) على والوِحدَانِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { مِّنْ أَكْمَامِهَا } الأكْمَامُ جَمْعُ الكُمَّةِ ، وهي لِيْفُ النَّخْلِ ، وقال ابنُ عبَّاس : (الأَكْمَامُ الكُفُرِّيُّ قَبْلَ أنْ يَنْشَقَّ ، فَإذا انْشَقَّ فَلَيْسَ بأَكْمَامٍ) { وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ } ؛ بَيَّنَ اللهُ أنَّ الذي يعلمُ الثِّمارَ في الأكمامِ ، والأولادَ في الأرحامِ مع مُشاهدةِ الأكمامِ ، والأُمَّهاتِ هو اللهُ تعالى لا يَعْلَمُهُ أحدٌ غيرهُ ، ومَن لَم يُشاهد شيئاً منها أوْلَى.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآئِي } ؛ فيه وعيدٌ للمشركين ؛ أي يقالُ للمشركين يومَ القيامةِ : أيْنَ شُرَكَائِي في ظَنِّكُمْ وزَعمِكم؟! فيقولون : { قَالُواْ آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ } ؛ أي أعْلَمْنَاكَ وعرَّفنَاكَ أنَّا كُنا في الدُّنيا جُهلاءَ غيرَ عارفين ، ما مِنَّا من شهيدٍ أنَّ لكَ شَريكاً ، يَتَبَرَّؤُونَ يومئذٍ مِن أن يكونَ مع اللهِ شريكٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَضَلَّ عَنْهُم } ؛ أي ضَاعَ ، { مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ } ؛ يَعبُدُونَ ، { مِن قَبْلُ } ؛ في الدُّنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَظَنُّواْ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ } ؛ أي أيْقَنُوا أنه لا خلاصَ لَهم من النَّار.

(٠/٠)

لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ } ؛ أي لا يَمَلُّ الإنسانُ من الخيرِ ، { وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ } ؛ والمكروهُ والأمراض والأسقامُ والشَّدائدُ ، { فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ } ؛ أي يصيرُ آيَسَ شيءٍ من عَوْدِ النِّعمةِ ، وزوالِ المكروهِ عنه ، فيَضْجَرُ على ذلكَ غايةَ الضَّجرِ.

(٠/٠)

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا } ؛ أي نِعْمَةً منَّا ، { مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ } ؛ من بعدِ مَكْرُوهٍ مَسَّهُ ، { لَيَقُولَنَّ هَاذَا لِي } ؛ أي بفَضْلِي وقوَّتِي وعملٍ اسْتَحْقَقْتُهُ ، وهذا من اختلافِ الكفَّار. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً } ؛ هذا يدلُّ على أنَّ هذا الإنسانَ كافرٌ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى } ؛ أي لستُ على يقينٍ من البعثِ ، فإن كان الأمرُ على ذلكَ ورُدِدْتُ إلَى رَبي أنَّ لِي عندَهُ الجنةَ ويعطيني في الآخرةِ أفضلَ ما أعطانِي في الدُّنيا. قَالَ اللهُ تَعَالَى : { فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } ؛ وعيدٌ لَهم.

(٠/٠)

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١)

قوله تعالى : { وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ } ؛ أي اذا أنْعَمْنَا على الكافرِ أعرضَ عن الطاعةِ والشُّكر وتباعدَ عن الواجب كِبَراً ، { وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ } ، وإذا أصابَهُ مكروهُ الدَّهرِ فإذا هو يَئِسٌ يدعُو اللهَ ليكشِفَ ذلك عنهُ.
والمعنى بقولهِ تعالى { دُعَآءٍ عَرِيضٍ } أي كثيرٍ لا يَمِلُّ من الدُّعاء. وإنَّما لَم يقل : طَوِيلٍ ؛ لأن ذِكْرَ العريضِ أبلغُ في باب الامتدادِ والانبساط ، لأن العريضَ يدلُّ على الطويلِ ، ولا يدلُّ الطويلُ على العريضِ.

(٠/٠)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ } ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّد لأهلِ مكَّة : أرَأيْتُمْ إنْ كان القُرْآنُ من عندِ اللهِ ، { ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ } ؛ عن الحقِّ والْهُدَى ، { مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } ؛ خِلاَفٍ للحقِّ بعيدٍ عنهُ ، وهو أنتُمْ ، فلا أحدٌ أضَلُّ منكُم.

(٠/٠)

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (٥٤)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ } ؛ أي سنُرِيهم دلائلَ التوحيدِ من مَسِيرِ النُّجومِ وجَرَيانِ الشَّمسِ والقمرِ طُلُوعاً وغُرُوباً على مرِّ الدُّهور ، وفي الأرضِ من الجبالِ والأودية والأشجار.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفِي أَنفُسِهِمْ } من مَخَارِجِ الأنْفَاسِ ومجَاري الدَّم وموضعِ العَقْلِ والفِكْرِ والفهمِ وآلاَتِ الكلامِ.
وَقِيْلَ : معنى { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ } أي سَنُرِيهم ما نفتحُ من القُرَى على مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم في النواحِي والأطرافِ { وَفِي أَنفُسِهِمْ } فتحُ مكَّة. قال الحسنُ : يعني (سَنُرِيْهِمْ ظُهُورَ مُحَمَّدٍ عَلَى الآفَاقِ وَعَلَى مَكَّةَ حَتَّى يَعْرِفُواْ أَنَّهُ مُؤَيَّدٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى بَعْدَ أنْ كَانَ وَاحِداً لاَ نَاصِرَ لَهُ). وذلك معنى قَوْلِهِ تَعَالَى : { حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } ؛ أي ما يقولُ لَهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم هو الحقُّ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } ؛ معناهُ : أوَلَمْ يَكْفِ برَبكَ شَاهداً أنَّ القُرْآنَ من اللهِ وأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم صادقٌ وشهيد هو العالِمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ } ؛ معناهُ : ألا إنَّهم في شكٍّ من البعثِ والثواب والعقاب ، { أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ } ؛ أحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلْماً ؛ إنَّهُ يعلَمُ الغيبَ والشَّهادةَ.

(٠/٠)

حم (١) عسق (٢) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حم * عسق } ؛ (ح) حِلمهُ و (م) مجدهُ و (ع) عِلمهُ و (س) سناؤه و (ق) قُدرَتهُ ، أقسمَ اللهُ بها ، { كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ؛ اخباراً بالغيب ويكون قبلَ أن يكون ، وَقِيْلَ : الحاءُ من الرَّحمنِ ، والميمُ من مَلِكٍ ، والعين من عزيزٍ والسين من قدُّوسٍ والقافُ من قاهرٍ ، ومعنى { كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ } مثل ما أوحَينا إليك بهذه السُّورة أوحَينا إلى مَن قَبلَكَ من الرُّسلِ. وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنه أنه قالَ : (لَيْسَ مِنْ نَبيٍّ إلاَّ وَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْهِ بـ حم عسق كَمَا أُوحِيَ إِلَى نَبيِّنَا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم).

(٠/٠)

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ العَظِيمُ } ؛ ظاهرُ المعنى.

(٠/٠)

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥)

وقولهُ تعالى : { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ } ؛ أي تكادُ كلُّ سماءٍ تشَقَّقُ فوقَ التي تَلِيها من قولِ المشركين : اتَّخذ اللهُ ولداً ، ومِن استعظامِ كُفرِ أهل الأرضِ مع عِظَمِ نِعَمِ اللهِ تعالى عليهم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْمَلآئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } ؛ أي يُنَزِّهُونَ اللهَ عن القولِ الذي تكادُ السَّموات يتفطَّرن منه ، { وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلاَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } ؛ لأوليائهِ وأهلِ طاعته.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦)

وقولهُ تعالى : { وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ } ؛ يعني كفارَ مكَّة اتَّخذُوا آلهةً فعبَدُوها من دونِ الله ، وقولهُ تعالى : { اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ } ؛ أي اللهُ حفيظٌ على أعمالِهم ليجازيَهم بها ، { وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ } ؛ أي لم يوَكِّلكَ حتى تُؤخَذ بهم وتعاقَبَ بمخالفَتِهم.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا } ؛ أي كما أنزَلنا على مَن قبلكَ بلسانِ قَومِهم أنزَلنا عليكَ قُرآناً بلُغَةِ العرب لتُخَوِّفَ به أُمَّ القُرى وهي مكَّةُ ، سُمِّيت أُمَّ القرى لأنَّ الأرضَ دُحِيَتْ من تحتِها. وقولهُ تعالى : { وَمَنْ حَوْلَهَا } أي لتُنذِرَ أهلَ أُمِّ القُرَى ومَن حولَها مِن البُلدانِ ، وَقِيْلَ : يعني قُرَى الأرضِ كلِّها.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ } ؛ وهو يومُ القيامةِ ، يَجْمَعُ اللهُ فيه الأوَّلين والآخِرين ، وأهلَ السمواتِ وأهلَ الأرضِ ، { لاَ رَيْبَ فِيهِ } ؛ أي لا شكَّ في الجمعِ فيه أنه كائنٌ ، ثم بعدَ الجمعِ يتفرَّقون كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ } ؛ أي طائفةٌ من أهل الجمع وهم المؤمنون يُساقون إلى الجنَّة يتنعَّمون ويتمتعون ، وطائفة يُساقون إلى النار ذات الوقود وهمُ الكفَّارُ فيها يُعذبون.

(٠/٠)

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } ؛ أي لو شاءَ لجمَعَهم على دينِ الإسلامِ بأنْ يُعرِّفَهم

طريقَ الحقِّ بالاضطرار ، ولكنَّهُ لم يفعلْهُ ، أرادَ أن يعرضهم للثواب والإلجاءُ يَمنَعُ من ذلكَ ، ومثلُ قولهِ تعالى{ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى }[الأنعام : ٣٥]. وقولهُ تعالى : { وَلَـاكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ } ؛ أي في دينِ الإسلام ، { وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِّن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ } ، يَمنَعُهم ؛ أي والكافِرُونَ ما لَهم من وليٍّ يدفعُ عنهم العذابَ وَلاَ نَصِيرٍ يَمنَعُهم من " النار ".

(٠/٠)